

لورا مقدسي

٧٠٠ يوم  
في بغداد



لورا مقدسي

700 يوم في بغداد

دار الفارابي

الكتاب: 700 يوم في بغداد

المؤلف: لورا مقدسي

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: (01)301461 - فاكس: (01)307775

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 1107 2130

[www.dar-alfarabi.com](http://www.dar-alfarabi.com)

**e-mail:** [info@dar-alfarabi.com](mailto:info@dar-alfarabi.com)

الطبعة الأولى: آب 2013

ISBN: 978-614-432-007-5

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع الدار.

## مقدمة

هذا الكتاب هو محاولة متواضعة لجمع تجارب امرأة عايشة الحرب في بغداد في وقت كانت فيه المدينة مستباحة للعنف والحرب؛ والموت يحصد مئة ضحية في اليوم الواحد. تمتد الأحداث على مدى سنتين أي بين 2005 و2007؛ ولكنني اخترت مواكبة أهم التطورات التي طرأت على المسائل الجوهرية حتى مطلع عام 2013 لما لها من تأثير في الأزمة العراقية المستمرة في تأزمها والمفتوحة على كل احتمالات التقسيم والشرذمة والعنف المذهبي؛ والمرتبطة في بعض أوجهها بما يجري في المنطقة العربية وتحديداً في سوريا.

ويتميز هذا الكتاب بأصالة فريدة في مسار الأحداث واللقاءات والأمكنة؛ رافقتني بشكل وثيق في سعبي لتقديم قراءة شخصية في الزلزال السياسي الذي ضرب العراق والمنطقة عقب الغزو الأميركي عام 2003. ولعل خطورة الوضع العراقي الراهن وعودة العنف المذهبي والتفجيرات الدموية تذكّر بالأجواء التي سادت البلاد في بدايات العملية السياسية؛ كانت الدافع وراء إصدار الكتاب باللغة العربية بعدما كان قد نشر بالسويدية والألمانية.

يبقى أن أقول إنني تألمت كثيراً وسعدت كثيراً خلال كتابتي لهذه القصص الواقعية. لقد تسنى لي أن أعيش مرة جديدة اللقاءات التي جمعتني مع الناس الذين أحببتهم كعائلتي؛ وعشت معهم سنتين مليئتين بالحب والصداقة والتعاطف الإنساني. فإليهم أهدي هذا الكتاب وإلى كل الذين سقطوا ويسقطون ضحايا بريئة لحروب عبثية عنوانها التناحر على السلطة والهيمنة السياسية.

## رحلة إلى بغداد

- لماذا بريك نقوم بهذه المخاطرة المجنونة؟ تساءل دايف بصوت خافت مترقب. أنا جئت من كندا وأنت من السويد، أكثر بلدان العالم سلماً وأماناً، وخلال ساعتين نحط وسط الحرب المستعرة في بغداد. ألسنت خائفة؟

- أظن أن الفضول يطغى عندي على مشاعر الخوف، قلت وأنا أستعيد في ذهني كل ما قرأت عن بغداد طوال أعوام. عاصمة الخلفاء، وفخر العرب، بلاد ما بين النهرين. مهد الحضارات القديمة التي شكّلت مفاهيمنا الحديثة حول الحق والباطل، والخير والشر، استناداً إلى مدونة هامورابي وملحمة جلجامش التي ألهمت خيالي وسكبت فيّ جنون الرغبة في أن أمشي دروب الحياة بأخطارها ومغرياتها على خطى الملك جلجامش، في البحث عن سر الخلود، ومعنى الحياة.

انقطع حبل أفكارني عندما دفع دايف صوبي بكوب القهوة. جلسنا في مطار ماركا في عمان هذه الصبيحة من شهر أيار 2005 ننتظر الصعود إلى متن الطائرة الحربية التي ستقلنا إلى بغداد. باحة الانتظار

كانت تعج بالأميركيين: من دبلوماسيين ورجال أمن السفارة ومقاولين وتجار انشغلوا جميعاً في إكمال المعاملات الجمركية قبل الرحلة. وخلافاً لمطار علياء الدولي يقع مطار ماركا وسط العاصمة عمان: مطار صغير مجهّز بعدد محدود من المقاعد غير المريحة؛ ومدرج يتسع فقط لطائرات النقل الأميركية.

التقيت بدايف لأول مرة خلال الدورة التدريبية الإلجبارية في الزرقاء التي تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة عن عمان . حينها كانت الزرقاء قد ذاع صيتها في الشرق والغرب لاعتبارها مسقط رأس زعيم تنظيم القاعدة في بلاد ما بين النهرين أبو مصعب الزرقاوي. هذا الرجل الذي قُصّ مضاجع الأميركيين في العراق وأفلت من قبضتهم مرات ومرات؛ حتى أن مكافأة بقيمة 25 ألف دولار لم تفلح في الإيقاع به.

اسمه ارتبط بأبشع الاعتداءات في العراق؛ ومن بينها الهجوم الذي استهدف مقر الأمم المتحدة في بغداد في آب/ أغسطس 2003 والذي حصد 22 قتيلاً. ويحكى أيضاً أنه أمر بخطف وقتل وقطع رؤوس العديد من الأجانب العاملين في العراق وكان الرأس المدبر للعديد من الأعمال الإرهابية في عمان. وهو لشدة قسوته غدا الناس يرتجفون قصباً لمجرد ذكر اسمه. والزرقاوي واحد من هؤلاء العرب الذين توجهوا إلى أفغانستان في الثمانينيات من القرن الماضي للانضمام إلى حركة المجاهدين المدعومة من الولايات المتحدة في مواجهة قوات

الاحتلال السوفياتية. وعند عودته إلى الأردن حُكم عليه بالسجن لمدة سبع سنوات بتهمة التآمر على أمن المملكة؛ لمشاركته في التخطيط لانقلاب على العرش وإقامة خلافة إسلامية في الأردن.

وعندما أُطلق سراحه عام 1999 على أثر عفو ملكي غادر الزرقاوي الأردن متوجهاً إلى أفغانستان ومنها إلى العراق.

وبعد طول تعقب؛ تلقى الأميركيون في حزيران/ يونيو 2006 إخباراً عن موقع سري في مدينة بعقوبة السنية قيل إن الزرقاوي اتخذهُ ملجأً له. فشنوا هجوماً جويماً مكثفاً على المنزل؛ وتوفي الرجل خلال ساعة واحدة متأثراً بجراحه. ونقلت جثته لاحقاً إلى مسقط رأسه؛ الزرقاء حيث أقيمت مراسم الدفن التي حضرها لقيف من أهل السياسة إلى جانب عائلة الزرقاوي ومعارفه.

ففي الزرقاء كان الزرقاوي بطلاً وشهيداً. هناك عرفه الناس باسمه الحقيقي وهو أحمد فضيل الخلايلي.

ولم تكن الزرقاء تتمتع بأية مواصفات جذابة تجعل منها مقصداً؛ بل كانت بالأحرى بقعة من الفقر والإهمال يستخدمها الجيش الأردني للتدريبات الميدانية في المنشآت العسكرية المنتشرة في المنطقة. ويأشرف أفراد من الجيش الأردني جرى تدريبنا على كيفية التصرف في حال تعرضنا للخطف أو الاعتقال؛ أو الاعتداء بسيارات مفخخة أو عند توقيفنا على الحواجز المسلحة. وفي نهاية التمارين سمعنا من القيمين على الدورة أن سلامتنا الشخصية مسؤولية شخصية يقتضي



إزاءها التصرف بحكمة وتعقل. واقشعرّ بدني لهذه الحقيقة المقلقة؛ فهبط بطني مرتجفاً إلى أسفل فخذي.

عندما حان وقت الصعود إلى الطائرة ساد هرج ومرج بين المسافرين المنهمكين في ارتداء السترة الواقية والخوذة. دايف وأنا كانت لكل منا سترة زرقاء اللون محشوة بلوحات معدنية ثقيلة وخوذة من اللون نفسه. وشعرت بنفسي أترنّح تحت وطأة الوزن الثقيل فوق رأسي وكتفيّ حتى كدت أفقد توازني.

- يا إلهي؛ سأصاب بديسك في ظهري من جراء هذا؛ قلت بلهجة شاكية.

وتمتم دايف قائلاً إن معدّاتنا من طراز قديم؛ وإن في الأسواق ستراً وخوذات حديثة أقل وزناً وأكثر فاعلية.  
- يعني المسألة مسألة فلوس؟

- بحق السماء! همس دايف بغيظ. يرسلوننا إلى أخطر بقعة في العالم؛ كان بإمكانهم صرف القليل من المال لتزويدنا بمعدات حديثة. أومأت برأسي إيجاباً بينما كنت أخطو خطواتي الثقيلة باتجاه باص المطار.

وساد صمت مفاجيء بين المسافرين كأن طيراً حطّ على رؤوسهم. عند اقترابنا من الطائرة فوجئنا أن محركاتها كانت لا تزال تهدر زعيقاً ودخاناً أسود. دخلت الطائرة وصوت المحركات لا يزال ينخر في رأسي وحرارة جسدي ترتفع. ثم بدأ العرق البارد يتصبب

مني وكأن خرطوم مياه رش مخزونه عليّ من رأسي حتى أخصص قدمي. تهالكت بنفسني فوق أحد المقاعد المصنوعة من جبال المطاط المشبّك وظهري صوب هيكل الطائرة في مواجهة الركاب الآخرين. عند إغلاق الباب الخلفي؛ أطبقت الظلمة على صالون الطائرة؛ إذ لم يكن هناك من نوافذ باستثناء فتحتين ضيقتين حجب النور المنبعث منهما جنديان من سلاح الجو الأميركي وقفا قبالتهما وعيونهما مصوّبة كالرماح إلى الأسفل لرصد كل حركة مشبوهة على الأرض. ثم اقترب منا جندي مدجج بالسلاح وطلب من الركاب إغلاق هواتفهم الخلوية وقدم إليهم سدادات للأذن وأكياس التقيء الورقية شارحاً أن انحدار الطائرة في مطار بغداد سيكون عمودياً وسريعاً؛ وقد يحتاج معظم الركاب إلى هذه الأكياس.

وأصاب الجندي في تقديره. فبعد رحلة دامت ساعتين ونصف الساعة كانت غالبية الأكياس قد امتلأت قيناً وفاضت!

عندما هبطت طائرتنا في مطار بغداد الدولي كان الليل قد أطبق على المدينة. الجو جاف وساخن وأنوار المصابيح الفاقعة الكاشفة لبعض أجزاء المطار تعمي البصر؛ فيما أصوات خافتة كالأنين تتأرجح في الهواء. قطعنا المدرج سيراً على الأقدام نحو باحة الوصول لتطالعنا أفواج من الجنود الأميركيين؛ بالمئات... بالآلاف... بعشرات الآلاف مدججين بالسلاح. بعضهم يهرول شمالاً ويميناً سعياً لإتمام عمل أو

خدمة والبعض الآخر افترش الأرض تبعاً بانتظار الطائرة التي تحملهم إلى مهمة جديدة أو إلى خارج البلاد للاستجمام.

أصابني الدهشة لهذا الوجود العسكري الكثيف؛ وسمعت دايف يهمس مبتسماً بسخرية:

- من قال إن هذا احتلال؟

قصدنا مكتب التسجيل حيث يتجمع الركاب عادة بانتظار الباص الذي سيقلمهم إلى وسط بغداد. وهذه الرحلات لم تكن لتبدأ إلا بعد منتصف الليل؛ عند سريان حظر التجوال؛ وبعد أن تكون المدينة قد غرقت في الظلمة والسكون.

لكن الأخبار هذه الليلة لم تكن مشجعة. فغيوم الرمل التي تتكثف شيئاً فشيئاً في الجو تعيق حركة المروحية المواكبة للباس. وطلبت إلينا عاملة المكتب العودة خلال ساعتين لعل جديداً ما يطرأ. تهالكت خائفة القوى على مقعد جلدي عريض علني أستطيع أن أغفو للحظة. لكن ملائكة النوم بقيت على مسافة مني. فأغمضت عينيّ أستمع إلى محطة سي. إن. إن.

وصدر قرار مكتب التسجيل ليؤكد استحالة العبور إلى القاطع الآخر من المدينة تلك الليلة؛ وأحيل الركاب إلى الخيم العسكرية المنصوبة في محيط المطار للخلود إلى الراحة. زعيق مولدات الكهرباء العملاقة في الخارج لم يخفت طوال الليل؛ أما في الداخل فكان شخير

النائمين كوخز الإبر في أذنيّ. وتسبّلت داخل كيس النوم الذي كنت أحمله معي وسحبت السحاب إلى أعلى رأسي مستسلمة لنوم عميق. في الصباح؛ مشيت ببطء صوب الكافيتريا لتناول الفطور. كانت عيناى تلتقطان المشهد الممتد أمامي وكأنه اقتطع من فيلم هوليوودي تاريخي. رمال الصحراء لوّنت الهواء والسماء بالأصفر والبرتقالي. والشمس كرة نار تحوّل كل شيء إلى حصى. عشرات آلاف الخيم العسكرية انتشرت بانتظام في المساحات الشاسعة المفتوحة. عند أبوابها يقف جنود أميركيون وهم مدججون بسلاح أوتوماتيكي أسود؛ وزنار من الذخيرة مربوط بين الكتف والورك؛ ومسدس بين الورك والفخذ؛ وخنجر بين الفخذ والكاحل. كلهم كانوا يرتدون سترأ رملية اللون محشوة بلوحات معدنية تغطي القلب والرئتين؛ وخوذة من اللون نفسه. وكلهم كانوا يضعون نظارات شمسية سوداء اشتروها من محلات بيع التذكارات في المطار لتحميهم من الشمس الحادة ومن الرمال والشظايا الطائرة. كان مظهرهم الخارجي يوحي وكأنه تم استنساخهم على شاكلة رامبو- بطل أفلام الأكشن الأميركي.

في الصالة العملاقة التي تحولت إلى مطعم انهمك الجنود بالتهام البيض والبايكون؛ وسلاحهم يفترش الأرض محولاً المكان إلى غابة من آلات الحرب والدمار. ورحت أقفز فوق البنادق الأوتوماتيكية في طريقي إلى البوفيه التي امتلأت بكميات من الطعام والشراب تكفي

لسد جوع العالم بأسره. قضيت اليوم الطويل بصحبة دايف وآخرين ننتظر هبوط الليل لرحلة الباص إلى بغداد. لعبنا الورق وروينا النكات وسخرنا بصوت خافت من اعتمادنا المذهل على الأميركيين.

- نركب طائراتهم ونأكل طعامهم وننام في خيمهم وننتظر بصبر باصاتهم لتتوجه إلى مقرنا في المنطقة الخضراء. كيف يمكن أن نتتهج سياسة مستقلة عنهم عندما نكون بحاجة قصوى إلى خدماتهم؟ قلت متسائلة.

هز دايف رأسه إيجاباً. أما الآخرون فلم يهمسوا ببنت شفة. دقائق قبل منتصف الليل جاءنا الخبر اليقين. نحن ذاهبون! طلب إلينا الضابط الأميركي بصوت واثق أن نسجل أسماءنا لدى موظف مكتب الاتصال؛ نودع بعدها حقائبنا في شاحنة النقل وننتظر إشارة الانطلاق.

وهرولنا إلى الخارج نفتش كل عن باصه بين مجموعة من ست أو سبع مركبات رصاصية اللون مصفحة وعازلة للرصاص. وكانت النوافذ الداكنة اللون تضيف أجواء من الرهبة والخوف. وانصرف السائق يتأكد من عمل راديو الاتصالات؛ ويمرر إشارات بالشفيرة إلى السائقين الآخرين؛ بينما أحكم الركاب خوداتهم على رؤوسهم وشدوا جانبي السترة الواقية بالأطراف اللاصقة.

وبتنا على أهبة الاستعداد للانطلاق!

صمت رهيب ساد بين المسافرين بانتظار المروحية التي سترافق

موكب الباصات على طول الطريق المؤدية إلى المنطقة الخضراء والتي تعتبر أخطر طريق في بغداد.

«طريق الإيرلندي» كانت المنفذ الوحيد الذي يربط المطار الدولي ببغداد. ورغم أن طول الطريق لا يتعدى 12 كيلومتراً إلا أن اجتيازها كان يتطلب ساعة كاملة. فعشرات الحواجز ودشم الباطون المسلح نصبت على جانبيها وفي وسطها إضافة إلى الأسلاك الشائكة والمتاريس وأكياس الرمل المكّسدة أمتاراً. لكن هذه التدابير الوقائية لم تحجب عن الركاب الهجمات الإرهابية المتكررة. إذ ما فتىء المتمردون يقومون دون كلل أو ملل بزرع المتفجرات على جانبي الطريق؛ في براميل القمامة وداخل جثث الكلاب الراقدة وسط الشارع. متفجرات صنعها على الأرجح عاطلون من العمل مقابل دنائير قليلة تسدّ الرمق. لا يمر يوم واحد من دون أن يقع تفجير أو اثنان أو ثلاثة على هذه الطريق. وضحايا بالعشرات من المدنيين والعسكريين. وهكذا؛ وعلى مدى عامين؛ أصبح «طريق الإيرلندي» رمزاً للفشل الأميركي في ضبط الأمن في العراق.

وفجأة تراءت لي خيوط من الضوء ترقص في الأفق؛ وأيقنت أننا أصبحنا في أمان. المروحية المواكبة لنا عادت أدراجها و أزيز صوت محركها تلاشى شيئاً فشيئاً في الهواء. عند محطة الباصات؛ وضعنا حقائبنا في صفوف عمودية على الأرض؛ وجاء مدرّب محترف يصطحب كلباً ضخماً راح يشمّ حقائبنا بحثاً عن سلاح أو ذخيرة. وعند

انتهاء مهمة التفتيش سُمح لنا بالتوجه إلى الفندق ذي الطبقات الإثنتي عشرة - الرشيد.

في حالة من الإعياء الشديد صعدت إلى غرفتي. حنفية المياه في الحمام كانت أكثر جفافاً من حلقي. استعنت بقناني مياه معدنية لأغسل رمال الصحراء العالقة على وجهي؛ وتهاويت فوق السرير وأنا أكاد أموت من التعب.

لم أعرف كم من الساعات استغرقت في النوم؛ لكنني استفتت على صوت تدفق المياه من الحنفية. قفزت من السرير لأفاجأ بالمياه قد غطت الغرفة كلها والممشى؛ وأغرقت قدمي حتى الكاحل.

ما هذا الطوفان يا ربي! قلت في نفسي ثم استدركت أنني في بلاد الرافدين.

عندما أزحت الستارة صبيحة هذا اليوم الأول؛ كنت أتوقع أن أرى من نافذتي نهر دجلة متدفقاً طروباً منشرحاً في ظلال أشجار البلح الباسقة في قيظ بغداد. لكنني لم أر أثراً للنهر المزاجي المجنون كما لو أن قائد المغول هولوكو قد محاه من الوجود عندما دخل المدينة في القرن الثالث عشر وأحرق مكتبتها الهائلة وألقى بمحتوياتها في النهر. كانت مكتبة بغداد تحوي أعداداً لا تحصى من المؤلفات والكنوز الأدبية ما كان كفيلاً بأن يحول دجلة الكبير إلى نهر من الرماد!

## بيتي... الرشيد

هجوم دموي ضد الرشيد عام 2003 أكسب هذا الفندق شهرة واسعة في العالم؛ إذ وقع الهجوم بينما كان بول وولفويتز؛ نائب وزير الدفاع الأميركي حينها؛ يستغرق في النوم في الطابق الثاني عشر من المبنى. لم يصب وولفويتز بأذى غير أن جنرالاً أميركياً قتل وأصيب خمسة عشر عسكرياً أميركياً بجروح. وقد تناولت وسائل الإعلام الغربية الهجوم بشكل واسع على اعتبار أنه يستهدف نائب وزير الدفاع علماً أن التحقيقات لم تستطع أن تثبت ذلك. وخلصت إلى أن الفندق تحول بعد الغزو الأميركي إلى مقر لجنود التحالف؛ ومن الطبيعي أن يتصدر لائحة المواقع المستهدفة من قبل المتمردين ضد الاحتلال الأميركي.

بعد هذا الاعتداء الشهير بقيت طوابق الفندق الوسطى فارغة. فالجنود الأميركيون الذين تمارسوا على السطح لمراقبة المنطقة الخضراء من أقصاها إلى أقصاها؛ كانوا ينامون في الطبقات العليا التي تم إصلاحها واستحدثت مفروشاتها. أما الطبقات السفلى المخصصة لموظفي الأمم المتحدة فكانت مقززة لتراكم الأوساخ بين ثنايا الستائر



والمفروشات الفاخرة. رائحة العفن كانت تملأ الغرف والتتانة المنبعثة من المماشي والجدران تصيبي بالعثيان. ولم تكن الفرش المفتتة الأوصال من الداخل والمخدات المشبعة برائحة العرق والموكيت الملطخ بالبقع اللزجة، والتي منعتني من المشي حافية القدمين طوال فترة إقامتي في الفندق؛ إلا لتزيد من اشمئزازي.

وباستثناء النقص الفاضح في النظافة العامة؛ كان الرشيد فندقاً مسلياً. فعند مدخل كل طابق كان يجلس جنديٌ مسلّح على مدار الساعة؛ بين يديه مفتاح واحد يشدّ عليه بأصابعه خوفاً من الضياع؛ ويفتح به كل الغرف بعد أن تكشف له عن بطاقة هويتنا. لم نكن نعرف ما إذا كان لهذا التدبير السوريالي طابع أمني أم أنه فرض علينا لعدم توافر المفاتيح!

وعلى سورباليته؛ فقد كان الجندي والمفتاح موضوع نكتة بين الزملاء الذين قرأوا «علي بابا والأربعين حرامي»، فشاع القول إن نسخة حديثة من الحكاية تعرض ليلياً في ماماشي الرشيد.

وبين الطبقات العليا والسفلى سكنت أشباح بغداد!

كانت الأشباح تختبئ في الفرش الممزقة ووراء الأبواب المخلّعة. وفي الغرف التي تنثر زجاج نوافذها كانت تعصف الرياح الساخنة المحملة برمال الصحراء. أجواء شبيهة بأفلام الرعب. عندما استدرك دايف صبيحة اليوم الأول أنه كان الوحيد الذي نام في الطابق

السابع أسرع إلى موظف الاستقبال أحمد ليحتج ويطالب بتغيير غرفته فوراً.

- أنا مستعد لأن انام مع العدو على أن أتقاسم الفراش مع الأشباح؛ قال دايف بجدية.

وأطلق أحمد ضحكة مدوية وواعد دايف بأن يتحقق من إمكانية استبدال غرفته بأخرى كما فعل لأجلي من قبل. وكان هذا وعد يستحق الشكر والمديح! فقد علمنا فيما بعد أن موظفي الاستقبال درجوا على إظهار المودة والاحترام دون أن يفعلوا الشيء الكثير. كان النزلاء يأتون إليهم بشكاوى متكررة: تارة التلفاز وطوراً الحنفية أو جهاز التبريد. أما إذا خرجت الأمور عن طورها فكانوا يقومون بإرسال المحتجين إلى المكتب المجاور الذي يحتله جندي من المارينز يقوم بإدارة الفندق. غير أن الأوراق الخضراء كان لها فعل الساحر على عقول الموظفين العراقيين فيهبون للمساعدة بحماسة قل نظيرها.

- أتقاضى 150 ألف دينار في الشهر؛ قال أحمد عندما سألته عن مرتبه.

- كم بالدولار الأميركي؟ تساءل دايف.

- 100 دولار.

أصيب دايف بالذهول؛ ثم سأل أحمد:

- هل تستطيع أن تتدبر أمورك بمرتب كهذا؟

- لا أزال أعيش مع أهلي. لكن هذا المبلغ لا يكفي لشراء الخبز.  
 - لماذا مرتباتكم منخفضة إلى هذا الحد إذن؟  
 - لأنها لم تُعدّل منذ زمن العقوبات. كنا نعيش دوماً على البخشيش  
 عندما كان الرشيد يعجّ بالأمراء والسياسيين؛ قال أحمد.

وصار الرشيد بيتي لعام وثيّف. سُيد الفندق في الثمانينات  
 وسمي على إسم الخليفة الذي اشتهر برؤيته وحكمته وحبه الكبير  
 للحياة هارون الرشيد. خلال حكمه في القرن الثامن كانت الخلافة قد  
 بلغت أوج عزها سياسياً وثقافياً وتربعت بغداد عاصمة لدولة الخلافة  
 الإسلامية يحج إليها المثقفون من أنحاء الدنيا ليشهدوا على التاريخ  
 الإنساني في قمة إبداعه.

في عهد صدام حسين كانت للفندق مكانته وجرى تجهيزه بأفخر  
 الأثاث المستورد من الخارج وثريرات الكريستال التشيكي ليكون على  
 مستوى يليق بنزلائه من الرؤساء والملوك. لكن بعد العقوبات التي  
 فرضتها الأمم المتحدة على العراق لم يجرؤ أحد على زيارة بغداد.  
 ونتيجة لذلك أهملت أعمال الصيانة؛ فخرس الفندق مكانته شيئاً فشيئاً  
 ليصبح رمزاً لسقوط العراق وتخلّفه عن الركب.

ويطلّ الرشيد على قصر المؤتمرات الذي يأوي الجمعية الوطنية  
 ولجانها؛ وعلى قصور وأبنية فخمة سُيدت شرفاتها من الرخام، وزُينت  
 واجهاتها بالقناطر والأعمدة. والمنطقة التي عرفت سابقاً باسم الكرادة

شاعت تسميتها بعد الغزو بـ«المنطقة الخضراء». مساحتها لا تتعدى العشرة كلم مربعة؛ وفيها مقر الدولة من حكومة وجيش؛ وإدارات إضافة إلى السفارة الأميركية ومنظمات حكومية وأجنبية. وكان يوجد أيضاً محل لبيع الكحول؛ ومصبغة لاروزا؛ ومركز تجاري يروج لبضاعة أميركية؛ ومطعم بيتزا وهمبرغر؛ ومشفى ابن سينا؛ وصالون حلقة رجالية.

ففي مدينة عادية لا تتجاوز المسافة بين الرشيد والمكتب الخمس دقائق. ولكن هذه ليست مدينة عادية.

أسوار شاهقة وسدود منيعة تحيط بالمنطقة؛ تذكر بالجدار العازل الذي يفصل إسرائيل عن الضفة الغربية. حواجز كثيرة نصبت على الطرقات. أحدها يعمل بإمرة الكتيبة البيروفية وآخر بإمرة الأميركيين وثالث ورابع بإمرة الفيجينين؛ وهكذا دواليك على طول الطريق بين الفندق والمكتب.

وكانت الأمم المتحدة قد اتخذت من مدرسة ابتدائية مركزاً لها. كنت أصعد خلسة إلى سطح المبنى لألقي نظرة على دجلة رغم أن السطح كان منطقة ممنوعة على المدنيين لتعرضه لنيران القناصة من الجهة الأخرى. وفي الباحة الخارجية أقيم نصب تذكاري جميل تكريماً للزملاء الإثنيين والعشرين الذين سقطوا في الهجوم ضد مكتب الأمم المتحدة في بغداد قبل عام. وقفت أمام النصب وقرأت الأسماء

المنقوشة في الحجر بصوت عال وشعرت كم أن الزملاء موجودون في هذا المكان؛ وفي كل ما سنحققه أو نطمح إلى تحقيقه في هذا البلد الذي مزقته الحرب.

كان مكنتي يقع بالقرب من مدير قسم الموظفين السيد فريد. وهو عرف بصرامته وأناقته وتباهيه بسنوات خدمته كسفير لبلاده. كان يتصرف كزعيم إقطاعي مغرور. لا يخشى المواجهات؛ بل يفتش عنها لهوى في داخله.

رئيس البعثة؛ أشرف قاضي؛ يمثل النقيض بشخصيته المحببة المتواضعة وصوته الخافت. عمل سفيراً لبلاده لدى الأمم المتحدة قبل أن يختاره أمين عام المنظمة كوفي أنان ممثلاً خاصاً له في بغداد. لم يتباه يوماً بعمله في السلك الدبلوماسي أو ارتضى الدخول في تحديات أو مؤتمرات مع أي طرف. لكنه كان متطلباً وصاحب مزاج. كان يدخل مكتبه صباحاً متجهماً في بعض الأحيان ثم لا يلبث أن يستعيد توازنه خلال النهار ويوزع ابتساماته على المحيطين به. معظم الزملاء درجوا على الانفضاض عنه صباحاً والتجمع حوله بعد الغداء. وقد درج على أن يمر بمكنتي الصغير في الصباح ليطلب مني موافاته بموجز سريع للأخبار.

- نعم سيدي. سأوافيك خلال خمس دقائق؛ أجيبه ولغة الجسد تقول إنني منهمكة بأمر آخر.

- أكون قد غادرت المكتب وقتها!

- إذن سأجمع أوراقى حالياً .

وأروح أألمم الصحف المبعثرة فوق مكتبي ودفتر ملاحظاتي ثم أهروول خلفه إلى مكتبه الواسع كي أقدم ملخصاً مرتجلاً لآخر التطورات على الساحة العراقية.

كنت أكن احتراماً كبيراً للسفير قاضي رغم مزاجه المتقلب؛ وأتمنى الاستمرار في عملي في بغداد طالما هو موجود فيها. فالمهمة كانت بلا شك حبلى بالإثارة شكلاً ومضموناً والظروف مؤاتية لتحقيق تقدم نوعي يضع العراق والعراقيين المتقاتلين على سكة الأمان.

هذا الأمل بتوفير السلام لشعوب العالم تملكني منذ سنوات المراهقة وزادني إعجاباً بالقيم النبيلة التي تعمل الأمم المتحدة لتحقيقها في مناطق النزاع. ولكنني لم أضع مطلقاً إلى ترجمة هذا الإعجاب الرومانسي إلى مبادرة عملية كطلب الانضمام إلى المنظمة أو العمل تحت لوائها؛ فبقي الإعجاب فكرة في البال! ولذا فإن اختياري لهذه المهمة في بغداد يلفها الكثير من الغموض. والرواية مثيرة بتفاصيلها.

في صبيحة يوم استوكهولمي بارد من شباط 2005؛ رنّ هاتفي الجوال. كان واضحاً أن المكالمة خارجية فالخط يقطعق وصوت ذكوري عميق يسأل بالانكليزية إن كنت السيدة مقدسي؟

- نعم، أنا هي.

ثم تابع بالعربية قائلاً إنه يدعى أيمن الصفدي وإنه الناطق باسم

الأمم المتحدة في العراق. وسألني إن كنت أرغب في أن أعمل لبعثة الأمم المتحدة في المنطقة الخضراء في بغداد. لم أكن أعرف الكثير عن المنطقة الخضراء لكنني شعرت بالحماسة تنبض في أوصالي. لم أسأل شيئاً؛ ولا حتى كيف وجد إسمي أو رقم هاتفي؛ بل أجبته باقتضاب بأني كلّي رغبة للعمل في بغداد. فالصحافية القديمة في داخلي شعرت أن المهمة تنطوي على شرف كبير، شرف الشهادة عن قرب على جزء مفصلي من تاريخ العراق المعاصر ورؤية انحلال نظام الظلم والاستبداد وقيام نظام جديد لم يكن قد تكوّن بعد!

لكن الصوت الذكوري المجهول انقطع! مرّ شهران وأنا أتأرجح بين اليأس والأمل. اعتقدت أنني ضحية مقلب ثقيل الظل ورحت أبحث على الانترنت عن هوية أيمن؛ ووجدت أنه المدير التنفيذي لأكبر قنوات التلفزيون الأردني وأنه شخصية معروفة في الإعلام العربي، فارتاحت ظنوني.

وهكذا؛ وبعد انقضاء ثلاثة أشهر وصلتني رسالة التعيين من الأمم المتحدة في نيويورك. فانقلب القلق إلى فضول وحماسة. عندما وصلت إلى بغداد في أيار 2005 كان أيمن قد غادر منصبه وترك لي مسؤولية ضخمة في إدارة مكتب الإعلام.

فريق العمل الصغير الذي تتألف منه البعثة كان يقوم بعمل دؤوب على مدار الأسبوع. عند لقائي الأول بهم لم يهتم أحد بمن أنا ومن أين أتيت؛ بل كان على شفاههم سؤال وحيد: لماذا أتيت إلى بغداد؟

ولم أعرف أن أجيب بأكثر من أنني فضولية وأعشق المغامرات. وكانت الأمانة العامة في نيويورك قد حددت سقفاً لعدد العاملين في بغداد بحيث تسهل عملية الإجلاء عندما تستدعي الظروف. وكان الهجوم على مقر البعثة قبل عام ونيف والذي حصد عدداً كبيراً من الموظفين من بينهم رئيس البعثة آنذاك سيرجيو فييرا دي ميللو - الصديق المقرب من كوفي أنان - لا يزال يؤرق بال الأمين العام.

ولدهشتي، فقد كان عدد العراقيين العاملين في البعثة لا يتجاوز عدد أصابع اليد.

العراقي الوحيد سرمد، كان سعيداً جداً بالعمل وحيداً في مكتب الإعلام. وبات فجأة تعيساً للغاية عندما علم أن مديراً جديداً انضم إلى المكتب. كان سرمد يرغب بالعمل وحيداً كما اعتاد؛ ويجد متعة في مساعدة الآخرين في أبحاثهم على الإنترنت. وعندما طلبت إليه أن يتوقف عن ذلك ويركّز على المهمات التي أسندتها إليه؛ انتفض غيظاً وهرول إلى الخارج احتجاجاً. رأيته وهو يتأفف مني على مسمع من الآخرين ويبحث عن وظيفة أخرى في قسم آخر. وعندما لم يجد سبيلاً عاد إلى مكتبه وقد عدّل شيئاً من لهجته.

كان سرمد بأعوامه الثمانية والعشرين من خيرة الشباب العراقي. قوي البنية، عريض الكتفين، طويل القامة كشجرة النخيل. أصيل. لا يهاب الموت.



- مدراء يأتون ويذهبون والمطلوب مني أن أرضي الجميع وأنفذ تعليماتهم؛ أليس كذلك؟ سألني بانفعال.

- أبدأ. المطلوب فقط أن تتعاون معهم.

- ومن أكون إذن؟ وماذا أفعل هنا؟ وهل دوري أن أتعاون وأساند الأجانب الذين لا هم لهم إلا توزيع الأوامر؟

- المدراء الأجانب يأتون ويذهبون وأنت تبقى. أنت الاستمرارية في هذا المكان، وهذا أهم بكثير من كل ما أحاول ويحاول الآخرون تحقيقه.

للتو، اضمحلت نقمة سرمد كالثلج في ضوء الشمس وكأنه شعر بنفسه ممتلاً، مزهواً بهذا الدور الجديد. شرحت له خططي لتنشيط عمل مكتب الإعلام، فازداد اعتداداً.

- هذا مخطط طموح؛ قال. ولكن ليس هناك إلا أنت وأنا ونحن لا نستطيع جر العربة وحدنا.

- سنفتح باب التوظيف أمام العراقيين الكفوئين ونوسع نشاطاتنا. أريد فقط أن تكون موضع ثقتي وأنا متأكدة أننا سننجح.

وصمت سرمد. وخلته في تلك اللحظة قد وعد نفسه بألا يخذلني أبداً. ومنذ ذلك الحين بات هذا الشاب البغدادي من أوفى الأصدقاء وأقربهم إلى قلبي. ربما ساهمت نشأتي البيروتية خلال الحرب الأهلية وإدراكي لمعاناة العراقيين في إرساء الثقة والتفاهم فيما بيننا.

- تعرفين، قال، كان الرفاق في المدرسة يعتقدون أنني مسيحي.

- لماذا؟

- يعتقد العراقيون أن المسيحيين قوم محبوبون للسلام. فالمسيحيون العراقيون لا يتشاجرون وهم إجمالاً يتحلون بالأدب وحسن التصرف. وخلال أعوام الدراسة كنت دوماً أتجنب الخناقات وأبحث عن حلول سلمية لكل المشكلات.

ثم راح يريني فخوراً صور زوجته الجميلة ويحدثني عن أبويه اللذين انفصلا عندما كان صبيّاً يافعاً.

- تشاجرت مع أبي وقاطعته لسنوات. لقد خذلني وتخلى عن أُمي وتزوج بامرأة أخرى. لكنني عاودت الاتصال به قبل سنتين بتشجيع من والدتي. إلا أن علاقتنا ليست متينة كما كانت من قبل.

نشأ سرمد في كنف أمه التي تنتمي إلى طائفة الفيليين؛ وهي طائفة من الأكراد الشيعة طردهم صدام حسين في الثمانينات من القرن الماضي إلى إيران. والفيليون يعودون بأصولهم إلى جبال زاغروس التي تفصل بين العراق وإيران. وكان أجدادهم قد عاشوا في العراق لأجيال عندما قام الرئيس العراقي بسحب جنسياتهم العراقية منهم وسلبهم جوازات سفرهم ثم رماهم خارج البلاد.

وهكذا، وفي ليلة من دون ضوء قمر، أصبح عشرات الآلاف من الفيليين مشردين بلا هوية ويعيشون كلاجئين في مخيمات اللجوء في إيران. وراح رجال المخابرات العراقيين يطرقون أبواب الناس باباً باباً ويطلبون مراقبة أوراقهم الثبوتية للتأكد من مواطنيتهم على مدى أجيال.

ووعدت أجهزة الدولة بدفع عشرة آلاف دولار لكل عراقي يطلق زوجته أو زوجاً من الفيليين.

- والداي تطلقا بعد ذلك. طلاقهما لم يكن مرتبطاً بهذه الحملة الحاقدة. أظن أن أبي سئم من انشغال أمي بعملها في وزارة الشؤون المائية والكهربائية؛ وقرر أن يفتش عن غرام جديد مع امرأة جديدة. مشكلتي الوحيدة مع سرمد كانت جهاز التبريد في الغرفة. كنت أطفئه كلما جلست إلى مكتبي وكان هو يشغله كلما خرجت إلى اجتماع عمل. كنت لا أقوى على التكيف بين نقيضين: جليد المكتب وجهنم الخارج. وجع الرأس لم يكن يفارقني؛ والرمال لا ترحم رثتي المعطوبتين أصلاً بالربو.

وعندما وصلت ذات صباح إلى المكتب وحرارة أربعينية تلهب جبهتي أصيب سرمد بالذعر. أسرع إلى الكافيتيريا ليحضر إليّ أكواب الشاي؛ الواحد تلو الآخر؛ ووعد بآلا يشغل جهاز التبريد بعد اليوم؛ وأن يتكفل بتسيير أعمال المكتب لو أردت أن أخلد إلى سريري في الفندق.

غادرت المكتب متسلحة بالمضادات الحيوية وقدت سيارتي بجفون شبه مطبقة ورأس ثقيل باتجاه الرشيد.

اجتزت حاجز الأمم المتحدة ووقفت في الطابور أمام الحاجز الأميركي. وعندما رنّ هاتفي الجوال؛ ظننت لوهلة أن الزملاء في غرفة الاتصالات يذكرونني بوجود التواصل معهم على الراديو. وبعفوية

سحبت جهازتي من حقيبة اليد وقبل أن تتسنى لي الإجابة وجدت سلاحاً نارياً مصوباً باتجاهي؛ والجندي الأميركي على وشك أن يضغط على الزناد. ارتعدت خوفاً. وانزلت الجوال من يدي ونظرت متجمدة على الجندي، أعد الثواني التي ستخرق فيها الرصاصة الزجاج الأمامي لتستقر في جبينتي. رفعت يدي عالياً باستسلام مطلق؛ فخفض الجندي سلاحه وأمرني بالتقدم. كان الأدرينالين يهتاج في جسدي كأموج البحر العاتي ويسلبني كل قواي. انتظرت نهاية التفتيش وأكملت سيرتي.

- هذه هي المنطقة الخضراء إذاً؛ تمتمت لنفسي. وها هي الأمثلة الأولى تأتي بمثابة الصفحة؛ كضربة على الرأس.

أسبوعان والإعياء لا يفارقني. وفي تقدير الطبيب أن الضغوط النفسية أثرت لربما على جهاز المناعة؛ فنصحني بالراحة لمدة يومين في عمان.

## عقوبات... وسقوط

عاصفة رملية تضرب بغداد لليوم الثالث على التوالي؛ والرحلات الجوية من وإلى العاصمة العراقية معلقة. والطائرة التي كان من المفترض أن تأخذني إلى بغداد حطت برحالها في القاعدة العسكرية الأميركية في الكويت - قاعدة علي السالم.

كنت بصحبة الأميركي جون سميث الذي عمل سابقاً في برنامج الغذاء مقابل النفط وبدا متحمساً لوظيفته الجديدة في إطار مشاريع الإعمار والتنمية. لم يكن جون من مؤيدي الرئيس جورج بوش بل كان يعتبر غزو العراق خطأً استراتيجياً. كان يجيد بعض الكلمات العربية ويدخن النرجيلة ويتحدث بحرارة عن أصدقائه العراقيين وحسن ضيافتهم وإنسانيتهم وقدرتهم على التحمل والصبر في وجه ظلم الحياة وصعوباتها.

على مدى ثلاثة أيام كنا نستفيق في الثالثة فجراً ونتوجه إلى قاعدة علي السالم التي تبعد مسافة ساعة عن العاصمة. نقدم جوازات سفرنا إلى الضابط الأميركي ومنتظر حتى التاسعة صباحاً ليأتينا الخبر اليقين ومفاده أن الرحلة ألغيت لرداءة الأحوال الجوية في بغداد.

ونعود إلى الفندق والنعاس يطبق على أجفاننا فننام حتى غياب الشمس. فقيظ الصيف الكويتي مزعج إلى حد لا يطاق، والمدينة مملّة إلى حد لا يطاق. ترف ومظاهر ثراء ومطاعم ومقاه أميركية تكتسح الشوارع والأسواق بحيث يصعب الوقوع على الروح الكويتية.  
من هنا بدأ سقوط العراق!

صحيح أن صدام حسين خسر حروبه جميعاً؛ وصحيح أيضاً أنه خلق بيئة مذهبية لوّثت فضاء المنطقة عندما نبش في قبور الصراع العربي-الفارسي وخاض ضد إيران حرب المليون شهيد. لكن سقوطه الفعلي بدأ عند اجتياح الكويت.

وخلفية هذا النزاع أن الكويتيين طالبوا باستعادة الإعانة الاقتصادية بقيمة 14 مليار دولار التي كانوا قد قدموها لصدام حسين خلال حربه ضد إيران بحجة أنها قرض وليست هبة. وتمنّع الرئيس العراقي عن تسوية الخلاف المالي مع الكويتيين بحجة أن حربه ضد إيران كانت بالنيابة عن العرب في مواجهة الخطر الإيراني وامتداداته الدينية في كل المنطقة العربية. وتحول النزاع إلى خصام شخصي بين حكام البلدين تخلله السباب والإهانات العلنية. وشنّ صدام هجومه على الكويت في آب، أغسطس 1990 بعدما حصل على ما كان يظنه موافقة ضمنية من الأميركيين.

ثم جاءت سلسلة العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على

العراق لتقصم ظهور المواطنين العراقيين وتشجع أساليب الفساد والغش التي اعتمدها صدام حسين والمقربون.  
ورأى جون أنه من الناحية الأخلاقية لا فرق بين صدام حسين والولايات المتحدة.

- صدام أرد السيطرة على منابع النفط؛ كذلك جورج بوش. صدام كان يطمح لضم الكويت وإعلاء نفوذه؛ كذلك كان بوش. صدام نهب الكويت وأحرق آبار النفط؛ والغرب وافق على العقوبات التي أهلكت الشعب العراقي وتركت ملايين الأطفال يموتون جوعاً. العراق انسحب من الكويت بعد ستة أشهر؛ فيما احتلال الولايات المتحدة للعراق مستمر بعد سنة ونيف من الغزو. فما الفرق بربك بين ديكتاتور كصدام وقوة عظمى كالولايات المتحدة؟ تساءل جون في معرض تحليلنا للأوضاع التي آلت اليها العراق.

عندما وصلنا فجر اليوم الثالث إلى القاعدة العسكرية كان الانزعاج بادياً على وجوه الجميع باستثناء جون. أحكم إغلاق حقيبته الجلدية، ثم تناول حبة دواء وقال بهدوء:  
- لا تقلقي. سنغادر اليوم إن شاء الله.

- وكيف لك أن تعرف؟ هل أخبرتك الملائكة بذلك؟

- لا طبعاً؛ قال مبتسماً. اتصلت بأصدقائي في بغداد وقالوا إن العاصفة قد هدأت.

وغادرنا أخيراً الكويت الساخنة لنحط في بغداد أكثر سخونة!

كانت الأمور لا تزال على حالها. التطور الجديد كان وصول مساعد السفير أشرف قاضي في إدارة الشؤون السياسية الذي قفز نحوي بحماسة المراهقين لحظة دخولي المكتب؛ مديده صوبي وقدم نفسه. لوهلة أخذت بحماسته فلم أسمع الاسم.

- عفواً؛ من تكون؟

- ادعى مايك فون شولنبرغ وأكون نائب السفير قاضي ويده اليمنى.

رجل في الخمسين فارغ القوام وسيم الوجه يضحك لأشياء تافهة كحذائه غير الأنيق أو شعره الخفيف الذي يكاد يكشف صلعته. ملبسه بسيطة من الطراز الذي يستهوي الشباب في أوروبا.

غير أن هذه الشخصية المازحة التي تفتقر إلى الوقار؛ لم تستهوا العراقيين ولا العاملين الدوليين. فخلف هذا البرقع كان فون شولنبرغ يخفي وجهاً بشعاً غيوراً. والزملاء كانوا ينادونه همساً «بالشرير مايك».

وانهمكت في توظيف زملاء جدد. وكان أول المنضمين إلينا المترجم علي؛ ثم عصام؛ فالسكرتيرة الإدارية شروق. ولدهشتي، فقد ساد التفاهم بين الزملاء رغم أن السياسة العراقية كانت شغلهم الشاغل. كان يكفي أن أعلّق على تصريح أحد السياسيين حتى ينخرط الجميع في حديث سياسي لا يعلم إلا الله متى ينتهي! لم أرغب أن أعرف شيئاً عن انتماءاتهم الدينية والمذهبية باعتبار أن ذلك لا يمت إلى الوظيفة بصله؛ لكن آراءهم المختلفة حول التطورات السياسية كانت أوضح دليل.



علي كان شيعياً كإسمه. يدخن دون توقف ويبيدي اهتماماً ملحوظاً بالنقاشات التاريخية. عصام كان شيعياً أيضاً ويسكن منطقة غالبية سكانها من الفلسطينيين السنّة. شروق كانت سنينة قلباً وقالباً؛ أما سرمد فكان يتباهى بتعدد انتماءاته: والده شيعي وأمه كردية وزوجته سنينة.

- أحمل في داخلي كل أطراف العراق. أنا الوطن الحقيقي، كان يحلو له أن يردد.

والاعتزاز بالنفس والهوية كانا ظاهرين على شروق أيضاً ولو بشيء من الانكسار. انفصلت عن زوجها قبل عشرين عاماً، وأمضت حياتها في إعالة وخدمة ولديها اللذين تخاف عليهما كما تخاف الدجاجة على صيصانها.

هي واحدة من أولئك الذين نجوا من الهجوم الذي تعرض له مقر الأمم المتحدة في بغداد قبل عام ونيف؛ ولا تزال تحمل ندوباً على خدها الأيمن مما حسم الأمر لصالحها في حصولها على الوظيفة رغم تقدم مرشحين آخرين من أصحاب الكفاءة. فالمسؤولية الأخلاقية كانت تقتضي أن نعيد إليها الوظيفة التي كادت أن تموت بسببها.

لم يخطر ببالها يوماً أن تتزوج ثانية. ربما من أجل التفرغ لولديها؛ وربما لأنها لا تحب الرجال العراقيين لقسوة قلوبهم. وكانت تروي تعرضها للضرب والإهانة منذ أول يوم تلا شهر العسل أو ما درجت على تسميته «بأسبوع العسل».

كانت ترتدي العباءة السوداء التي تغطي جسدها من الرأس حتى الكاحل؛ وتضع غطاءً مناسباً على الرأس لا تلبث أن تنزعهما ما أن تصل إلى المكتب. وتروح تتمختر بين الأقسام المختلفة بملابسها الصارخة الألوان كما لو كانت ترغب في أن تنتقم من العباءة وكل الذين أرغموها على ارتدائها. تضع الكحل على عينيها الجميلتين بإتقان الفنان وتهوى تمشيط شعرها مرات عديدة خلال النهار؛ وتذكر بحنين ذكريات طفولتها في مصايف لبنان.

- كان والدي يستأجر منزلاً للعائلة في الشوف وكنا نلعب في الطبيعة الخلابة ونتمتع بالطقس الجميل. كنا نعيش طويلاً في بحوثة حتى جاءنا الأميركيون فخربوا علينا بهجة الحياة. اليوم نحن فقراء بائسون لا يكفينا الراتب حتى للضروريات.

كانت شروق والزلاء الآخرون يرون أن عشر سنوات من العقوبات وانقطاع العلاقات الديبلوماسية والتبادل الاقتصادي مع العالم قد حولت مجتمعاً متطوراً كالعراق إلى مجتمع فقير عاجز عن اللحاق بالركب. وأدى برنامج الأمم المتحدة «النفط مقابل الغذاء» إلى رواج الفساد والصفقات السرية والأموال المتبادلة تحت الطاولة. والمداحيل لم تكن تكفي لشراء الطعام أو الدواء. فبات المواطنون يعتمدون على البطاقة التموينية للحصول على المواد الغذائية؛ ولم يعد بإمكانهم شراء الدواء لأولادهم المصابين بالسرطان. ووقف الأطباء عاجزين عن إنقاذ الأطفال من الموت.

- العراق بلد غني يملك أكبر ثاني احتياطي من النفط في العالم؛ قال عصام فخوراً؛ لكن عقوبات الأمم المتحدة جعلت منا شعباً فقيراً يستعطي الغذاء ببطاقات إعاشة؛ وهذا لا يليق بأمة عظيمة كالعراق.  
- لم يعد من وجود للطبقة الوسطى؛ أضافت شروق. وبات الغذاء يأكل كل رواتب الناس ومدخراتهم.

- والتعليم الذي كان مجاناً لجميع العرب أصبح مكلفاً إلى درجة أنه لم يعد بالإمكان إرسال أولادنا إلى المدرسة. عدد الطلاب في تراجع بشكل حاد. اليوم نتحدث عن جيل عراقي أمي بالكامل. وهذا له نتائج مدمرة على مجتمعنا للسنوات العشرين المقبلة، قال عصام.

- مهما فعلت الأمم المتحدة لأجلنا اليوم؛ فنحن لا ننسى تخليها عنا في فترة العقوبات؛ قال سرمد.

ورغم الوضع الأمني المتردي في بغداد كان الزملاء يدأبون على الحضور إلى المكتب في الوقت المحدد كل صباح. يقفون في طوابير حواجز التفتيش؛ يقدمون بطاقات هويتهم ويرسلون أغراضهم عبر جهاز اللايزر؛ ويستسلمون لتفتيش جسدي دقيق قبل السماح لهم بدخول المنطقة الخضراء المحصنة ضد الإرهابيين. ولم تكن هذه الصباحات تمر دوماً على خير! فقد حدث مراراً أن انفجرت عبوات ناسفة فيما كانوا ينتظرون دورهم على هذه الحواجز؛ ورأوا بأعينهم

القتلى من الصغار والكبار يسقطون وهم في طريقهم إلى العمل أو المدرسة.

وصبيحة يوم من أيام شهر آب/ أغسطس دوى انفجار بالقرب من مقر البعثة. حاولت الاتصال بالزملاء للاطمئنان لكن خطوط الهاتف مقطوعة كالعادة! فتحت التلفزيون ورحت أنتظر بقلق... ودخلت شروق وهي تجهش بالبكاء. ووصل الآخرون الواحد تلو الآخر ورووا قصصاً مروعة عن قتلى وجرحى في محيط وزارة الدفاع التي كانت تقع على مرمى حجر من مقرنا.

قالت شروق إنه في زحمة هذه الفوضى والدم السائل قام جندي عراقي على أحد الحواجز ضمن إطار التفتيش الجسدي بلمس نهديها. - الحقيير! السافل.. وكأنه لا يكفيننا كل هذا الرعب والموت.

- يمكن أن تبليغي عنه لو أردت؛ قلت لها بسذاجة.

- ماذا؟ هل تعتقدين أننا هنا في بلد ديمقراطي يتمتع فيه المواطنون بكامل حقوقهم؟ قبل العدوان الأميركي كان الحكم في العراق ديكتاتورياً؛ قالت شروق. وقد لا يكون هذا أفضل أنواع الحكم لكن لا أحد كان يتعرض للنساء. كنا نذهب إلى الوظيفة من دون مشاكل؛ ونرفق عن أنفسنا في المطاعم ودور التسلية ولا نعود إلى البيت إلا بعد منتصف الليل. كانت الدنيا أماناً، والنساء بأمان. الآن يجب أن تتبع قوانين المجرمين. الاحتلال سجننا في منازلنا وتركنا عرضة لهواجس كثيرة. نحن سعداء لمجرد أننا لم نقض في هذا الانفجار أو ذلك. أنا

لست من المدافعين عن صدام حسين لكن يجب قول الحقيقة مهما كانت صعبة. الأميركيون وعدونا بالديمقراطية وأعطونا حكماً دينياً. - لم يكن أحد يسأل إن كان المرء سنياً أم شيعياً؛ عربياً أم كردياً. النساء احتلن أرفع المناصب في مؤسسات الدولة. كنا كلنا عراقيون؛ أضاف علي متحسراً وهو مدرك تماماً أن حال اليوم يكاد يكون على نقيض ذلك تماماً.

فالانقسام السني - الشيعي قد بلغ حداً مخيفاً وبدا أن العراق يفرق إلى أدنى مستوى من العنف المذهبي. فتقارير الأمم المتحدة كانت تتحدث يوماً عن خطف مواطنين وتعذيبهم واغتيالهم استناداً إلى انتماءاتهم المذهبية. وطاولت الاعتداءات المساجد والحسينيات؛ وجرى تهجير العائلات من بيوتها والأحياء التي سكنتها لسنوات.

ويبدو أن الحادثة التي أجمت هذا الصراع بين الطرفين هي انفجار سيارة ملغومة أمام مسجد الإمام علي في النجف عام 2003 والذي أسفر عن مقتل 85 شخصاً؛ من بينهم زعيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق آية الله محمد باقر الحكيم. واستشرى العنف بين مناصري القاعدة من جهة والذراع العسكري للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية - منظمة بدر، من جهة أخرى. فما أن يفجر انتحاريون ستة أنفسهم بين جماعات المصلين الشيعة حتى تبادر قوات بدر أو جماعة الصدر إلى خطف متعاطفين مع القاعدة أو حزب البعث والتكامل بهم ورمي أشلائهم فيما بعد في سلات الزباله على الطرقات.

في السنوات الأولى للغزو الأميركي كانت حوادث من هذا النوع تُواجه بدعوات إلى التعقل والمسامحة. فالخطاب السياسي يومها كان يشدد على الأخوة بين العراقيين ويلقي باللوم على عناصر خارجية كالقاعدة والاستخبارات الإيرانية. لكن الأجواء أخذت بالتشنج شيئاً فشيئاً بعد الانتخابات العراقية الأولى في كانون الثاني/يناير 2005. حينها حققت الغالبية الشيعية فوزاً ساحقاً مما حدا بالسنة الذين كانوا قد قاطعوا الانتخابات، للتنبه إلى الخطر الشيعي الزاحف إلى البلاد مع عودة أحزاب المعارضة من المنفى.

- تاريخ العراق مليء بالعنف والدم، قال سرمد مستاءً. نعيش على الحروب والخراب ونتغذى بالدم والموت؛ ولا تحلو لنا الحياة إلا هكذا.

وساد جو من الكآبة بين الزملاء. ربما هزهم كلام سرمد فاستغرقوا في تفكير عميق في محاولة لتبيان مدى صحته. كنت أرتجف هلعاً لمجرد التفكير أن أحداً منهم قد يصيبه مكروه بسبب هذا الجنون المستشري الذي حوّل بغداد إلى مدينة أشباح وشبيحة!

- غداً يصادف ذكرى الإمام كاظم؛ والشيعه يحجون إلى ضريح الإمام إحياء لذكراه؛ وقد تشهد بغداد أعمال عنف وشغب؛ شرح علي.

- الله أكبر، هتفت بإعياء. لا تغادروا منازلكم لو سمحتم! التزموا

الحدرا!

## ألف قتيل وبطل واحد

اليوم الأخير من شهر آب/أغسطس 2005 لم يكن كغيره من الأيام. تابعت النقل المباشر على القنوات العراقية للمسيرة المليونية من مختلف أحياء بغداد باتجاه ضريح الإمام موسى الكاظم في الكاظمية. النساء يمشين بخطى ثابتة ملتحفات بالعباءات السود؛ وفي عيون الأطفال بين أذرعهن لمعان الدهشة والفرح للمشاركة في هذه الذكرى السنوية لإحياء ذكرى الإمام. تساءلت وأنا أراقب هذا التدفق البشري كيف لم تردع رداءة الظروف الأمنية هؤلاء الناس من الخروج الكبير إلى الشارع. وأدركت لاحقاً أن لا شيء يمكن أن يشيهم عن القيام بالواجب الديني. لا شيء أبداً.

فالواجب يقضي بزيارة سنوية لضريح موسى الكاظم؛ سابع الأئمة الاثني عشر الذين يعتبرهم الشيعة من أحفاد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم). سجنه هارون الرشيد وقتله عام 799 وأمر بدفنه في أقدم أحياء بغداد - الكاظمية التي حملت فيما بعد اسمه.

وفجأة دب الذعر بين جموع المؤمنين. وراحوا يهرولون فوق الجسر الذي يربط ما بين ضفتي دجلة باتجاه الكاظمية. الخوف ظاهر

على الوجوه والصراخ يملأ المكان. ويلمح البصر انتشرت فوضى عارمة... الناس يقعون أرضاً... يغيبون عن الوعي... يُداسون بالأرجل... يرمون بأنفسهم في دجلة ويغرقون. الأطفال يكون... النساء يلطمن وجوههن والصدور. آلاف الأحذية خلفتها أقدام الهاربين وراءها. التراجيديا تستمر لساعات وقلبي يتقطع حزناً. أجلس مسمرة أمام شاشة التلفزيون وأتابع ما يجري على بعد كيلومترات من المنطقة الخضراء. الهاتف يرن بحرارة ومؤسسات الراديو والتلفزيون السويديين ترغب بأن أشارك في تغطية الحدث من موقع الحدث. أعتذر لأسباب مهنية معللة أنه ليس مقبولاً خلط الأدوار.

الهابيون يستمرون في الجري باتجاه الأعظمية التي هب سكانها السنة إلى نجدة إخوتهم في المواطنة. فقدموا إلى الهاربين المياه والطعام فيما رمى الشبان بأنفسهم في النهر وحاولوا إنقاذ الناس من الغرق. وفي ممرات المستشفيات وعلى أرصفة الشوارع تكدست أجساد الغرقى الذين تم انتشالهم من النهر أو أولئك الذين قضوا تحت أقدام الهاربين المدعورين. وراح البغداديون يدقون أبواب المستشفيات؛ يرفعون الأكفان عن الجثث؛ يدقون في سماتهم عليهم يتعرفون إلى مفقودهم.

الأرقام الرسمية تحدثت عن وقوع ألف قتيل من الحجاج سقطوا ضحية للذعر. وهو أكبر عدد من القتلى يقع في يوم واحد. وروى شهود فيما بعد أن الشرارة اندلعت عند سماع الحجاج بوجود انتحاري يرتدي حزاماً ناسفاً فيما بينهم. وقال آخرون إن الذعر انتشر بين الناس



عند سماعهم سقوط الصواريخ وانفجارها في محيط مسجد الكاظمية؛ وقد أودت بحياة سبعة أشخاص وإصابة 36 آخرين بجروح.

وتوجست شراً. وظننت أن عمليات الثأر والانتقام ستوالى قريباً. فانكبتت على تحرير بيان يستنكر الاعتداء على الحجاج ويتقدم بالتعازي من الشعب العراقي والعائلات المنكوبة التي خسرت أفراداً أعزاء في هذا الحادث الأليم.

في اليوم التالي خرجت الصحف العراقية بعناوين عريضة تهلل لبطل العراق في السباحة؛ شهيد الأعظمية وكل الوطن؛ عباس؛ الذي رمى بنفسه في النهر لإنقاذ الأطفال والنساء في صراعهم مع دجلة وأُنقذ كثيرين من الموت؛ لكن قواه لم تسعفه إلى النهاية فأخذه النهر في رحلة الموت الأبدي.

قنوات التلفزيون العراقي ركّزت في نشراتها على التعاضد بين سكان الكاظمية ذات الأغلبية الشيعية والأعظمية السنية؛ وعرضوا الريبورتاجات لسكان الكاظمية وهم يكيلون لجيرانهم في الأعظمية كل معاني الشكر والمديح. والد الشهيد عباس بدا متماسكاً وفخوراً بمآثر ابنه البطل؛ وتحدث عن الأخوة وإرادة العيش المشترك بين المنطقتين. أما السياسيون العراقيون فلم يوفروا هذه المناسبة ليدلوا بدلوهم؛ فأشادوا بالبطل عباس وتضحياته لتكون مثلاً يحتذى لروح الإخاء والتضامن بين العراقيين.

وأعلنت الحكومة العراقية الحداد الوطني لمدة ثلاثة أيام.  
وتنفسنا الصعداء! هذه المرة مرت أيضاً من دون ثأر!

كان الهدوء يسيطر على العاصمة طوال أيام الحداد. جلست في مكثبي أفكر في الخطوط العريضة لحملة إعلامية تناول في سلسلة مقالات مسائل دستورية شائكة. وكنت أرغب في نشر هذه المقالات بالتزامن مع عملية صياغة الدستور؛ وفي ثلاث صحف عراقية مستقلة، إحداهما «الصباح الجديد». الناشر إسماعيل زاير اتصل بي ليلغني أنه في طريقه إلى المنطقة الخضراء.

- ضعي إسمي على لائحة الزوار لدى «جنودك» الفيجيين لثلاث  
يعرقلوا دخولي المقر.

زاير كان صديقاً قديماً اعتدت دعاباته ومزاحه الذي لا يوفر شيئاً بين الأرض والسماء. ورغم أنه كان قد تخطى الستين فإن شهيته على الكحول والنساء لم تكن تظهر وهناً أو اكتفاءً. وإن سأله أحد بالغلط عن عمره فكان يجيب أنه ولد في اليوم نفسه الذي ولد فيه السيد المسيح. التقينا أول مرة في كوبنهاغن عام 1995 خلال مؤتمر دولي كان يغطي وقائعه لصحيفة الحياة اللندنية.

كان متزوجاً من سيدة هولندية؛ يعيش حياة مستقرة في أمستردام ولا يكف عن الحديث في السياسة العراقية. عندما بدأ غزو العراق غادر زاير أمستردام على وجه السرعة وعاد إلى بغداد.

- تتخلى عن أوروبا والحياة المريحة لترمي بنفسك في النار

المستعرة في بغداد؟ أين الحكمة في قرار كهذا؟ قلت له في اتصال هاتفي جرى بيننا في الأسابيع الأولى التي أعقبت الغزو.

- هل تريدني أن أبقى لاجئاً ومواطناً أوروبياً من الدرجة الثانية طوال حياتي؟ العراق بلدي وبيتي؛ وحلمي هو أن أرى عراقاً ديمقراطياً قبل أن أموت. الآن وقد تخلصنا من صدام فقد يصبح الحلم حقيقة.

لم أفهم ما كان يقصده صديقي العراقي يومها. كنت أسكن وأعمل في استوكهولم وأعجب للناس الذين يتخلون عن كل الترف في البلدان الهائلة للعودة إلى الفوضى، وإلى أوطان تركوها قبل عشرات السنوات وصارت أشلاء. لكن رؤيتي تبدلت كلياً وبدأت أدرك القليل عن الموضوع الكبير عندما انتقلت للعمل في بغداد. فالأوطان غالية على قلوب معظم الناس. وهم في سعيهم إلى إعطاء حياتهم معنى وأهمية يحاولون تلبية نداء القلب وتغريداته.

إسماعيل زاير كان قد عُين مستشاراً لدى رئيس الجمهورية الانتقالي غازي إلياوير لكنه كان أقرب سياسياً إلى رئيس الحكومة الانتقالية العلماني إياد علاوي. يكره المتطرفين من الشيعة والسنة؛ ولو سألته عن طائفته لامتعض من السؤال وحاول اللجوء إلى النكتة للإفلات من الإجابة.

كان يشغل منصب رئيس تحرير صحيفة «الصباح» المدعومة من الأميركيين. لكنه استقال احتجاجاً على ما وصفه بـ«التدخل السافر» في العمل التحريري للصحيفة وأطلق «الصباح الجديد» المستقلة

والمعتمدة في إصداراتها على الإعلانات التجارية وحملات الأمم المتحدة الإعلامية.

وأبلغني الحراس أن زائري ينتظر على الباب. فخرجت لملاقاته.

- أراك قد شخت فجأة. ما الأمر؟ هل أنت بخير؟

- نجوت من محاولة اغتيال أخيراً. قصدني الزعران في منزلي؛

ولحسن الحظ كنت أحضر اجتماعات في الخارج. قتلوا مرافقي لترهيبي؛ السفلة!

- ماذا لو عادوا؛ ألسنت خائفاً؟

- هم يريدون إسكاتي. يزعمهم أنني شيوعي علماني.

وأخذت صديقي بذراعه ومشينا نحو المطعم لتناول الغداء.

- يجب أن تأتي لزيارتي في بيتي. سأحضر لك المسقوف العراقي.

سمكة كبيرة طازجة على خاطرك... من دجلة مباشرة.

- شكراً جزيلاً. يظهر أنك نسيت الزعران الذين قد يعودون... أو

ربما تخطط للتخلص مني؟

واستغرق زائر في الضحك؛ وضحكت معه.

- أرغب جداً في الخروج من هذا السجن الذي أعيش فيه لأتجول

قليلاً في بغداد؛ لكن هذا غير مسموح عندنا. كيف تقيّم الأوضاع في العاصمة؟

- فوضى عارمة. هل تتخيلين الكارثة التي كان يمكن لحادث جسر

الكاظمية أمس أن يتسبب بها؟ هذه فقط البداية... صدقيني المذهبية

معششة ويمكن أن تتحول إلى حرب أهلية لها أول وليس لها آخر.

- اكثر سوءاً مما هو سائد؟

- المذهبية في العراق كانت دائماً موجودة ولكن مستترة. ولم يتخيل الأميركيون أن خلع صدام حسين قد يؤدي إلى هذه الفوضى العارمة. الأنكى أنهم أرسلوا إلينا شخصاً أمياً لا يفهم من أمور الشرق الأوسط شيئاً وعينوه حاكماً مدنياً لإعادة إعمار العراق. فخلال السنة الوحيدة التي قضاها في بغداد نجح هذا المسؤول المدني - بول بريمر - في وضع العراق على مشارف حرب أهلية.

خلال فترة خدمته القصيرة نشر بريمر مئة قرار نافذ المفعول تميزت جميعها بالتضييق على العراقيين وعلى سبل كسب رزقهم. فالقرار رقم 81 مثلاً يفرض استعمال البذور الأميركية على الفلاحين؛ ويحول دون تمكنهم من استعمال البذور المحلية التي تشكل أساس زراعة القمح والشعير والذرة والعدس في العراق.

لكن سياسة بريمر الفضائية تعدت القوانين المئة النافذة لتلمس مسائل شائكة ترتبت عليها نتائج حددت مسار الصراع العراقي. أولى هذه القرارات كان حل حزب البعث ومؤسسات الأمن التابعة للدولة بما فيها وزارة الدفاع ووزارة الإعلام والاستخبارات ومكتب الأمن القومي والجيش ووزينة أخرى من وحدات وأجهزة الدولة.

باختصار، قام بريمر بفكفكة الدولة من جذورها. وفهم من سياسة تقويض الدولة هذه على أنها موجهة ضد فئة معينة من المجتمع العراقي؛ باعتبار أن الطائفة السنية كانت المسيطرة على معظم هذه الأجهزة. وجاءت النتائج الفورية لعملية تسريح 300 ألف جندي عراقي دون

تعويضات نهاية الخدمة أو التقاعد لترفع من أعداد العاطلين عن العمل المستعدين لرمي أنفسهم في أحضان الميليشيات لتأمين لقمة العيش لعائلاتهم.

- هذه الإجراءات جرحت السنة أكثر من أي فريق آخر. والحق إن السنة هم أكثر المتمسكين بوحدة العراق؛ ومؤسسة الجيش كانت تجسد هذه الوحدة؛ قال زاير محلاً. الآن بدأوا يشعرون بالتهميش والتقليل من وجودهم ودورهم. وجاء قرار حل البعث ليؤكد هذا المنحى العدائي تجاههم.

وحل حزب البعث العراقي كان يقتضي طرد كل البعثيين من مؤسسات الدولة؛ وخصوصاً موظفي الطبقة الأولى والثانية والثالثة. وبقرار واحد كهذا تم تفرغ أجهزة الدولة من أصحاب الخبرة والكفاءة الذين قضوا حياتهم في هذه الدوائر. وجاء القرار التالي بتأليف لجنة اجتثاث البعث برئاسة أحمد الشلبي لتزيد الطين بلة! فالشلبي كان قد فقد صدقيته في العراق لأسباب كثيرة منها استعمال منصبه في اللجنة للتخلص من منافسيه واستمالة الأحزاب الشيوعية التي كانت تعد العدة لخوض الانتخابات البرلمانية. وهكذا جاءت قرارات بريمر لتدق إسفيناً داخل البيت العراقي وتزيد الانشقاقات بين أطراف الشعب الواحد.

- هوه دمرنا هوايه؛ قال زاير باللهجة العراقية المحببة. تعريفين ما فعل أيضاً؟ قام بتأسيس مجلس الحكم الانتقالي الذي فشل فشلاً ذريعاً. وعين مجمل أعضائه من الأحزاب السياسية العائدة من المنفى.

السنة تمثلوا بأشخاص لم يكن لهم أي صفة تمثيلية أو دائرة انتخابية في العراق؛ كما أن تيار الصدر لم يكن له ممثلون في مجلس الحكم رغم الثقل الشعبي لهذا التيار عند فئات الشباب والطبقة الكادحة في البلد. وهكذا ساعد بريمر المجموعات الكردية والأحزاب الدينية المتطرفة التي تحمل برامج عمل طائفية وإثنية على احتلال مقاعد المجلس وأدخل الطائفية والإثنية إلى السياسة العراقية فأصبحت كما عندكم في لبنان من مؤهلات العمل المؤسساتي الرسمي في البلاد.

- أذكر أن الزعيم السنّي طارق الهاشمي ردد أكثر من مرة عبر وسائل الإعلام أن بريمر كان السبب في مشاكل العراق اليوم.

- نعم. باعتياده مبدأ الأكثرية في توزيع المقاعد؛ ساند بريمر حزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية المقربين من رجال الدين في النجف؛ مما دفع بالسنة إلى الارتقاء في أحضان القاعدة والمجموعات المتمردة على الاحتلال الأميركي، قال زاير. وماذا فعل الأميركيان؟ ردوا بالعنف والنار وقصفوا الفلوجة ومناطق سنية أخرى؛ وروجوا بأن السنة هم المشكلة في العراق رغم أن كل العراقيين باستثناء الأكراد هم ضد الاحتلال.

- يعني بدل أن يجمع العراقيين حول طاولة حوار ومصالحة؛ قام بريمر بتفضيل فريق على فريق وزرع الفتنة فيما بينهم؛ قلت.

وضرب زاير كفا بكف في الهواء دلالة شعوره بالإحباط وأضاف

يقول:

- استُبدل مجلس الحكم عام 2004 بحكومة انتقالية برئاسة إياد علاوي؛ لكن الحكومة كانت مقيدة اليدين بالدستور الانتقالي الذي وضع في عهد بريمر والذي حدد جدولاً زمنياً للاستحقاقات الدستورية ومنها مثلاً الانتخابات التشريعية في كانون الثاني/يناير عام 2005 التي تتولى لجنة برلمانية منبثقة عنها صياغة دستور جديد للعراق؛ وتنظيم استفتاء بشأنه؛ وانتخابات دستورية جديدة في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه تتوج انتقال البلاد إلى الديمقراطية.

- لكن السنة قاطعوا الانتخابات الأولى وهذا لم يكن لصالحهم.  
- نعم يا عزيزتي. هذه المقاطعة كلفتهم غالباً وأعتقد أنهم يشعرون بالندم. الأحزاب الشيعية والكرديّة فازت بكل المقاعد وأحكمت سيطرتها على عملية صياغة الدستور. هذا كله من مآثر بريمر الذي دمر فرصنا في بناء عراق ديمقراطي. نأمل أن يتمكن الدستور الجديد من إصلاح الأضرار.

وانتصب زاير واقفاً. شكر لي دعوة الغداء؛ قبلني على وجعتي  
وهرول مسرعاً. هتفت باتجاهه بأن ينتبه إلى نفسه.

تمتم: انشالله... انشالله...

واختفى وراء دشم الرمل.



## صفية الجميلة

وهو يدخل مكنتي، سمعته يدندن «استوكهولم في قلبي...»  
- غنّ لحناً عراقياً... أو كردياً لا فرق. نحن الآن في بغداد؛ قلت  
لضيفي بختيار أمين.

- وصلت لتوي من استوكهولم ولا تزال موسيقاها تعنّ على بالي.  
وأطمئنك أن البرنامج الصيفي لاقى نجاحاً باهراً.  
كانت الإذاعة السويدية قد طاردت بختيار أمين لأشهر لتضمن  
مشاركته في برنامج صيفي خاص يحوز على نسبة عالية من المستمعين.  
وكنت وعدت الزملاء في هيئة الإذاعة بالبحث عنه عند وصولي إلى  
بغداد.

وبسويدية مكسرة قال لي عبر الهاتف إنه سيغادر إلى ألمانيا خلال  
أسبوعين؛ ويمكن التوجه من هناك إلى استوكهولم لو استطاعت هيئة  
الإذاعة تأمين بطاقة سفر له. وقام السويديون بإزالة كل العقبات لتمكين  
بختيار أمين من المشاركة في البرنامج الإذاعي.

وبختيار المولود في كركوك من أبوين كرديين؛ اضطر إلى  
مغادرة العراق والتنقل في المنافي الأوروبية بعدما سُجن والداه، وقُتل

قراة خمسين شخصاً من أقاربه وقام نظام صدام حسين بحجز كل الممتلكات العائدة للعائلة.

كنت أتوقع أن ألتقي رجلاً بديناً بشارين غليظين ووجنتين عريضتين. لكن الرجل الذي وقف أمامي كان أنيقاً، وسيماً، ولا أثر للشارين على الوجه الحليق الناعم. وروى بختيار عن زيارته إلى العاصمة السويدية وبرنامجه الإذاعي الذي تناول فيه سنوات المنفى في السويد وعمله واهتماماته بمسائل الديمقراطية وحقوق الإنسان؛ ومن ثم عودته إلى العراق وتبؤته وزارة حقوق الإنسان في حكومة إياد علاوي ومطالبته بإنشاء محكمة دولية تتولى محاكمة صدام لجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي اقترفها نظامه؛ لكن جملة اعتبارات قانونية وسياسية لم تسنح بطلب مساعدة قضائية دولية.

واليوم؛ يتابع بختيار نشاطه السياسي رغم خروجه من الوزارة. فهو يدير جمعية غير حكومية تُعنى بحقوق الإنسان؛ ويبدل وقتاً وجهداً في دعم شريكته في النضال السياسي وزوجته صافية السهيل، أو كما اعتدت أن أناديها صافية الجميلة.

أثارت صافية فضولي عندما قرأت تصريحاتها في الصحف تتهم فيها وزارة الخارجية بعرقلة تسميتها سفيراً للعراق في القاهرة. وكان قرار تسميتها سفيراً قد اتخذ من قبل حكومة علاوي الذي تربطه بصافية علاقة عائلية. لكن وزير الخارجية هوشيار زيباري لم يكن متحمساً لتطبيق هذا القرار.

اتصلت بصفية أطلب مقابلة معها، فجاءت إلى مكنتي صبيحة يوم حار بصحبة سكرتيرها اللباني ورائحة عطرها الباريسي قد سبقتها إلى المبنى. جاذبيتها القوية جعلتها تشع كشجرة الميلاد؛ وأناقتها الأوروبية وحلاها الكثيرة في المعصم مبالغة جميلة. وجلست صفية ترشف القهوة؛ وتكلم بطلاقة باللهجة اللبنانية، من دون خوف أو تحفظ.

- وزير الخارجية الحالي صديق لعائلتنا ولا أفهم سبباً لوضعه العصي في الدواليب.

اشتهرت صفية في الشرق والغرب عندما شوهدت تجلس جنباً إلى جنب مع رئيس الولايات المتحدة جورج بوش وزوجته لورا في اللقاء الذي ألقى خلاله بوش خطابه الشهري إلى الأمة، وتناول فيه الانتخابات العراقية الأولى. وشكر بوش في الخطاب نفسه ضيفته الموقرة صفية السهيل لجهودها في بناء عراق الحرية والعدل. وقال إن صفية مثال رائع لتصميم النساء العراقيات وشجاعتهن.

- قبل ثلاثة أيام، أضاف بوش، تمكنت صفية للمرة الأولى من الإدلاء بصوتها في أول انتخابات حرة هي الأولى منذ خمسين عاماً. هذه الانتخابات كلفت حياة 2000 جندي أميركي حتى الآن. آخرهم كان جندي المارينز جايمس نورود الذي نستضيف والديه هنا بيننا.

والتفتت صفية فوقع نظرها على الوالدة جانيت نورود تجهش بالبكاء؛ وبعفوية خطت خطوتين باتجاهها وضمتها إلى صدرها ضمة طويلة حصدت تصفيقاً حاراً من الحاضرين لم يحظ بمثله الرئيس بوش

طوال فترة توليه سدة الرئاسة الأميركية. صفية وجانيت لم تكونا على معرفة ببعضهما، لكن في لحظة عفوية وحميمة كهذه شعرت المرأتان أن بينهما أشياء مشتركة كثيرة.

وفي مقابلة صحفية لاحقة، شكرت صفية الشعب الأميركي للتضحيات التي بذلها من أجل إعطاء العراقيين سلاماً وديمقراطية. وخصت بشكرها الجنود الأميركيين وعائلاتهم.

لكن صفية كانت تريد أكثر من حق التصويت. كانت تأمل أن تلعب دوراً سياسياً في هذا العراق الجديد وفي البرلمان. ولم لا؟ وهي الوريثة الشرعية لوالدها النافذ الشيخ طالب السهيل؛ زعيم عشيرة السهيل؛ والمعارض السياسي البارز لصدام حسين؛ والذي اغتيل في بيروت عام 1994 على يد عملاء صدام.

عملية الاغتيال حثت صفية للانخراط في العمل السياسي؛ فكافحت إلى جانب زوجها بختيار أمين ضد نظام صدام حسين وطالبت أن يُحاكم البعثيون أمام محكمة دولية لجرائم ضد الإنسانية. وطافت أوروبا والولايات المتحدة وروت عن واقع المرأة العراقية في ظل حكم البعث: أحكام اعتباطية بالسجن؛ تعذيب واعتداءات جنسية. - عملت طوال حياتي لأُنشر صورة التراجيديا العراقية في العالم. تحدثت إلى أصحاب القرار؛ توجهت إلى ضمائرهم وطالبتهم بخطوات عملية ضد صدام الذي احتل العراق لمدة 35 عاماً. الآن تخلصنا منه وحان الوقت لأن نحول الحلم بعراق جديد إلى حقيقة.

وصفية فخورة بعروبيتها وشيعيتها وبكونها ابنة الشيخ السهيل وابنة عشيرة التميمي التي تعد أكثر من مليون شخص. وهي لا تخفي نيتها في خوض انتخابات كانون الاول/ ديسمبر 2005 والتي تعتبر الانتخابات الدستورية الأولى وتحدد شكل الحكومة المقبلة.

- سأخوضها على لائحة إياد علاوي. نحن نتفق سياسياً. هو شيعي علماني؛ كان رئيساً للوزراء ويملك علاقات ممتازة مع الدول العربية ومع الأميركيين. وبيننا أيضاً قرابة لجهة الأم. فوالدته من عائلة عسيران اللبنانية العريقة؛ مثلي تماماً.

- ما هي حظوظكم في النجاح في ظل أجواء المذهبية الزاحفة إليكم من إيران؛ والتي تثقل كاهل العراق والعراقيين. هل هناك فسحة للتيارات العلمانية في هذا العراق الجديد؟ سألت صافية.

- هذا تحد يجب أن نواجهه. لا نستطيع أن نترك البلد في أيدي المتطرفين الذين يريدون أخذ البلد في اتجاهات لا نريدها. لا تنسي أن العراق كان دائماً تقدماً ولانزال هناك ثقافة علمانية في البلد. أنا متأكدة أن المثقفين والشيعيين والاشتراكيين سيصوتون لي. إضافة إلى مليون ناخب من عشيرة التميمي يدعمون ترشيحي للانتخابات.

ابتسمت للمبالغة؛ وابتسمت صافية. كنا نتخيل المليون ناخب يهجمون على صناديق الاقتراع للتصويت لصالح صافية.

- في انتخابات كانون الثاني/يناير الماضي حصدت لائحة علاوي 14 بالمئة من الأصوات؛ أي 40 مقعداً في الجمعية العمومية.

ونأمل أن نحصل على عدد أكبر من الأصوات في الانتخابات المقبلة وهي انتخابات تضعنا على المحك، كما تعلمين.

- صافية، ربما حصل علاوي على 40 مقعداً بسبب مقاطعة الأحزاب السنية؛ والناخبون السنة الذين تجرأوا على التوجه إلى صناديق الاقتراع لم يجدوا بديلاً لللائحة علاوي كونها تضم أسماء من كل أطراف الشعب العراقي. لكن الأمور قد تختلف في كانون الأول/ديسمبر المقبل. ليس سراً أن الأميركيين والأمم المتحدة منكبون على العمل لإقناع السنة بالانضمام إلى العملية السياسية التي قاطعوها سابقاً. وبعضهم أظهر ليونة في هذا الموضوع.

- من دونهم لن نعرف طعم الاستقرار في البلد؛ المشكلة مع السنة أنهم منقسمون. أتمنى أن يعودوا إلى رشدهم، قالت وأسرعت الخطى نحو الباب الخارجي.

ففي ذهن صافية؛ كانت الحملة الانتخابية قد بدأت بالفعل؛ رغم أن أشهراً عديدة لاتزال تفصلنا عنها؛ واستحقاقات مهمة تتقدم عليها. فكل العراق منشغل هذه الأيام بعملية صياغة الدستور البالغة التعقيد والتي ترسم وجه عراق المستقبل.

## دستور تحت الاحتلال

✈ ما من بلد في العالم تحمّل كل هذا الحقد والازدراء من الولايات المتحدة وبريطانيا كما تحمّل العراق. وما من بلد في العالم باستثناء العراق خسر في غضون إثني عشر عاماً حربين مدمرتين ضد الائتلاف الدولي، وعانى بنتيجتهما الجوع والموت والإهانة.

بعض المحللين السياسيين رأوا في دستور العراق العائد إلى عام 1970 المسببات التي أدت إلى غزوه عام 2003 باعتبار أن دستور السبعينيات كان نسخة عن دستور 1958 الذي أخرج المحتل البريطاني من البلاد. والنص الدستوري القديم نص صراحة على أن «كل الموارد الطبيعية تعود ملكيتها إلى الشعب العراقي من دون قيد أو شرط». وهكذا فإن أي شكل من أشكال الملكية الأجنبية لحقول النفط العراقية أصبح غير قانوني وغير دستوري؛ مما ساهم في تجنّب العراق جشع الشركات العالمية التي امتصت على مدى نصف قرن ينابيع النفط والثروات الطبيعية في الخليج.

فهل يعني ذلك أن الغزو الأميركي للعراق كان هدفه الوصول إلى منابع النفط؟

يخيّل إليّ أن كل الحروب تهدف إلى وضع اليد على الأرض أو الثروات الطبيعية العائدة للدول الأخرى. وما حروب الشرق الأوسط على المياه والنفط والأراضي إلا قاعدة راسخة في أذهان الناس! لا شك أن هناك رابطاً بين النفط والحرب، وبين الدستور والحرب. وصيف 2005 كان صيفاً دستورياً حاراً بامتياز في العراق. إذ أطلقت العملية الدستورية الطويلة والمعقدة كجزء لا يتجزأ من عملية إعادة إعمار سياسي للبلاد.

وكان يؤمل أن يتمخض عن هذه العملية دستور يكون أداة لجمع العراقيين، أي عقد مصالحة بين مختلف الأطياف. لكن يصعب أن يتخيل المرء ظروفاً أصعب لطرح مسائل دستورية أساسية ومعالجتها، كالسيادة والهوية الوطنية وتقاسم الثروات الطبيعية في وقت يرزح فيه العراق تحت الاحتلال ودماء العراقيين تسيل أنهاراً في الشوارع وعلى الطرقات.

رغم ذلك، فإن الحماسة بشأن دستور جديد كانت كبيرة بين العراقيين والأميركيين على حد سواء. فبالنسبة إلى العراقيين كان من الضرورة بمكان بعد الغزو إعطاء الدولة الحديثة هوية دستورية وديمقراطية؛ ومرجعية قانونية يمكن العودة إليها للبتّ في شؤون الدولة. وأظهرت الأحزاب الكردية والشيعية إصراراً وواقعية شديدين للمضي قدماً في التفاوض على نص دستوري يدعم رؤاهم بشأن



المستقبل ويكون مرجعاً في القضايا الخلافية الكثيرة كالشريعة مصدراً للتشريع، والفيدرالية، وتقاسم الموارد والسلطة.

أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة، فإضافة إلى كون الدستور جزءاً لا يتجزأ من المفهوم الغربي للديمقراطية وبناء دولة القانون؛ فإنه يشكل إنجازاً تقدّمه إلى الرأي العام الأميركي والعالمي كدليل على نجاحها المزعوم في العراق.

وقد نص القانون الإداري الانتقالي على أن الجمعية الوطنية تنتهي من صياغة دستور جديد قبل حلول 15 آب/ أغسطس 2005؛ وإذا رأت الجمعية العمومية أن المهلة غير كافية فيمكن تمديدتها لفترة ستة أشهر إضافية، على أن يعرض النص الدستوري على الرأي العام للاستفتاء عليه في موعد أقصاه 15 تشرين الأول/ أكتوبر 2005.

وواكب المواطنون العاديون هذه العملية على أمل أن تحمل لهم سلاماً واستقراراً لطالما حلم بهما العراقيون.

- نحن على قاب قوسين من الديمقراطية؛ كان سرمد يردد كلما طالع في الصحيفة خيراً يتعلق بالعملية الدستورية.

- انشالله! كانت شروق تجيب باستهزاء.

- يجب أن نقرأ النص النهائي ونرى علام رست الحال قبل أن نبنى الآمال؛ يضيف علي مختتماً النقاش.

في العام 2004 رفض السنة جملة وتفصيلاً أيّ اقتراح بإجراء الانتخابات التشريعية. وكان الشيخ حارث الضاري، رئيس هيئة

العلماء المسلمين يعتبر أن أي انتخابات تجري في ظل الاحتلال تعتبر غير شرعية. وانطلاقاً من هذا الموقف الايديولوجي قاطع السنّة الانتخابات في كانون الثاني/ يناير 2005 ونتج عن هذه المقاطعة فوزهم بـ17 مقعداً فقط من أصل 275. وتعتبر هذه النسبة ضئيلة جداً بالمقارنة مع مجموع عددهم والبالغ 21 بالمئة من السكان. وحصل الائتلاف الكردي على 40 مقعداً في حين حقق ائتلاف الأحزاب الشيعية فوزاً كاسحاً ونال 140 مقعداً.

نظرياً، كانت الأحزاب الشيعية قادرة وحدها دون مساعدة الفرقاء الآخرين على صياغة الدستور؛ لكن عملياً، لم يكن ممكناً تجاهل مصالح السنّة على المدى البعيد خصوصاً أن الفقرة 6 من القانون الإداري الإنتقالي نصت بوضوح على أن تصويت 3 محافظات من أصل 18 - بغالبية الثلثين - ضد الدستور يترتب عليه عواقب وخيمة؛ منها استقالة الجمعية الوطنية والدعوة إلى انتخابات جديدة.

ولم يكن صعباً على السنّة إفشال العملية الدستورية كونهم يسيطرون على ثلاث محافظات على الأقل وهي: الأنبار وصلاح الدين ونينوى.

ولم يكن بوسع الشيعة أو الأكراد الذين حققوا فوزاً ساحقاً في هذه الانتخابات أن يخوضوا انتخابات جديدة لا أحد يستطيع التكهن بنتائجها.

وقد شاءت سخرية القدر أن ينقلب السحر على الساحر؛ إذ

كانت الأحزاب الكردية التي تسيطر على ثلاث محافظات هي: أربيل والسليمانية ودهوك؛ من طالب بإضافة هذه الفقرة إلى القانون الإداري الانتقالي ظناً منها أن حق النقض هذا قد يمكنها من حماية مصالحها إزاء المجموعات الأخرى.

وغياب الأحزاب السنّية عن الجمعية الوطنية؛ وكذلك عن اللجنة البرلمانية الخاصة المنوط بها صياغة الدستور لا يعني فقط أن رأي السنّة لم يكن مطروحاً في المداولات، وأن المقاومة المتأججة في البلاد تضع السنّة في موقع المعارضة السياسية والمقاومة العسكرية ضد الاحتلال؛ ولكن أيضاً - وهذا المهم - أن الدستور قد يسقط في الاستفتاء.

ولو افترضت الأحزاب الكردية والشيعية أن الاستفتاء حول الدستور مضمون النجاح، فإنها لن تتمكن من تجاهل الفشل السياسي المتمثل في عدم القدرة على جمع الفرقاء المتحاربين حول طاولة واحدة.

هذه النتائج المروّعة لغياب الفريق السني دفعت بالجميع لحثهم على اللحاق بالعملية السياسية.

وما لبث الدكتور حسين الشهرستاني، وهو من ألمع السياسيين، أن وجّه نداءً إلى كلّ أبناء العراق للمشاركة في عملية صياغة الدستور. تبعه رئيس الوزراء السابق الدكتور إياد علاوي مناشداً الفريق السنّي وكل المنظمات غير الحكومية بالمشاركة في العملية الدستورية.

في أيار/ مايو 2005، اختارت الجمعية الوطنية همام حمودي رئيساً للجنة الدستورية المؤلفة من 55 عضواً. وتعرض حمودي لضغوط كثيرة من الأمم المتحدة والسفير الأميركي في بغداد لتسهيل عملية ضم السنة إلى اللجنة. وبعدها كانت الجمعية الوطنية في الماضي قد رفضت الاقتراح الأيل إلى فتح المجال أمام العراقيين من خارج الجمعية الوطنية؛ عادت وقبلت بأن تسمح بذلك بشكل استثنائي فيما يتعلق بالعرب السنة. وساد هرج ومرج حول عدد وهوية الأشخاص الذين سيمثلون الفريق المقاطع للانتخابات. واستغرقت المفاوضات أسابيع طويلة أعطيت خلالها الأحزاب السنّة الحرة في اختيار ممثليها في اللجنة الدستورية.

في بداية شهر تموز/ يوليو تلقى 15 ممثلاً سنياً الدعوة للمشاركة في اجتماع اللجنة الدستورية؛ في وقت كانت فيه اللجان الصغرى المختصة قد انتهت من صياغة 80 بالمئة من الوثيقة الدستورية.

وفي 16 تموز/ يوليو اغتيل عضو اللجنة السنّي الشيخ مجبل عيسى وأصيب اثنان من رفاقه خلال تنقلهم بالسيارة في ضواحي بغداد. واتهم المتمردون السنة بوقوفهم وراء الاغتيال الذي أريد من خلاله إرهاب الآخرين وثنيتهم عن المشاركة في اللجنة الدستورية.

بنتيجة ذلك، قام عدد من السنة بتعليق عضويتهم في اللجنة الدستورية مطالبين الحكومة برفع مستوى الحماية الأمنية لهم لا سيما وأن العديدين منهم لا يقطنون المنطقة الخضراء الآمنة نسبياً.

في هذا الوقت؛ أعلن الشيخ حمودي أن اللجنة الدستورية ستكون جاهزة لتقديم وثيقة الدستور في 15 آب/أغسطس مهما كانت الصعوبات. إذ فهم من التصريحات الأميركية المتكررة أن أي تأخير لن يكون مستساغاً من الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية. واللغة الدبلوماسية المعتمدة في صياغة هذه البيانات لم تكن تخفي الإرادة الحديدية للأميركيين كالقول مثلاً: إن «الولايات المتحدة تدعم الشعب العراقي في رغبته أن تنتهي صياغة المدستور قبل الموعد المحدد في 15 آب/أغسطس».

من جهته، أكد الرئيس العراقي جلال طالباني في حديث تلفزيوني أن اللجنة ستنتهي مهمتها قبل التاريخ المحدد شرط ألا يعترض العرب السنة على المسائل الجوهرية في النص الدستوري. ولكن أي معنى لمشاركة العرب السنة في العملية الدستورية إن لم يكن لإبداء ملاحظاتهم على المسائل الجوهرية؟ وكان السنة القلائل الذين استمروا في عملهم في اللجنة قد اعترضوا على جملة مواضيع منها: حل حزب البعث وإضعاف صلاحيات رئيس الجمهورية؛ واقترحوا استبدال الفيدرالية بمفهوم اللامركزية.

وأعرب عدد من السياسيين عن ضرورة تمديد المهلة ليتسنى للأعضاء دراسة التحفظات المقدمة من مختلف الفرقاء. ولجأ الشيخ همام حمودي بالفعل إلى استشارة خبراء دوليين في شأن طلب المهلة استناداً إلى القانون الإداري الانتقالي. إلا أن الجمعية الوطنية قررت

في 1 آب/ أغسطس ألا تتقدم بطلب التمديد. وتردد في الكواليس أن عدم طلب المهلة جاء تلبية للضغوط الأميركية.

في هذه الأجواء الضاغطة والأطر الزمنية المحددة بصرامة لم يتسن للأمم المتحدة أن تلعب دوراً مفصلياً في تسوية الخلافات الدستورية بين الفرقاء. وانصرف السفير أشرف قاضي إلى عقد الاجتماع تلو الآخر مع الزعماء السنّة خصوصاً مع رئيس «جبهة الحوار الوطني» صالح المطلق الذي ميّز نفسه بمواقف كانت الأصلب بين الزعماء السنّة في المفاوضات الدستورية.

وأصبح المطلق هدفاً لحملات إعلامية وشائعات تتهمه بالطائفية وانتماؤه إلى حزب البعث؛ علماً أن هذه الاتهامات أصبحت في حينها مادة مبتذلة في العراق يستعملها من يشاء وكيفما يشاء ضد منافسيه. ولم يكن المطلق ليخفي تعاطفه السابق مع حزب البعث لكنه كان ينفي الشائعات التي كانت تتناوله كضيف دائم على طاولة عشاء صدام وشريك زوجته ساجرة في صفقات تجارية درّت عليه وعليها ثروات طائلة.

وفي سعيه إلى نفي تهمة الطائفية والمذهبية عن نفسه كان المطلق يضطر لأن يكشف عن تفاصيل حميمة في حياته الشخصية.

- زوجتي شيعية وإبني الوحيد نصف شيعي ونصف سني؛ وأنا سني غير متدين. فكيف أكون معادياً للشيعية؟ أنا صاحب موقف سياسي وقضية. وأعرف أن ما يجري في بغداد يتم تخطيطه في طهران

وهذا يجب مواجهته بشجاعة؛ قال لي بانفعال عند لقائنا في الندوة البرلمانية التي نظمتها الأمم المتحدة في فندق يطل على البحر الميت. وأضافت زوجة المطلق وشعرها الأشقر المصبوغ يغطي عينيها: - صالح ليس معادياً للشيعه. هو مؤمن أن السنّة فقدوا موقعهم السياسي مع الاحتلال الأميركي ويجب استعادة دورهم ومكانتهم في البلد.

وإلى جانب الندوات البرلمانية والنقاشات الدستورية كانت الأمم المتحدة تقدم للبرلمانيين العراقيين فرص الاطلاع على خبرات وتجارب دستورية في بلدان أخرى كجنوب إفريقيا، وأفغانستان وتيمور الشرقية. وكان فريق الخبراء بإشراف فينك هايسوم، وهو أستاذ جامعي لامع من جنوب إفريقيا، يعمل دون تلكؤ، وبصمت في تزويد اللجنة باقتراحات ونصائح حول كيفية ضم ممثلي العرب السنّة إلى اللجنة البرلمانية.

المفاجأة السعيدة هبطت علينا عندما طُلب إلى أحد الخبراء العرب في الفريق بصياغة النص الدستوري الجديد.

- هذا شرف عظيم...! نحن سعداء أن نساهم في صياغة دستور العراق الجديد؛ أعلن فينك بفخر واعتزاز أمامنا في الاجتماع الصباحي في مقر الامم المتحدة.

لكن فرحتنا لم تكتمل! فبعد يومين وتحديدأ في 8 آب/ أغسطس، دخل رؤساء الأحزاب الكبرى على الخط ووضعوا اليد على الوثيقة

الدستورية ضاربيين الأصول البروتوكولية بعرض الحائط. المبادرة التي ما كانت لتحدث من دون معرفة ومباركة السفير الأميركي في بغداد، كان لها وقع الانقلاب السياسي؛ والعرب السنة الذين لم يمض على وجودهم طويلاً في اللجنة وجدوا أنفسهم بين ليلة وضحاها خارج السرب!

في الأيام التالية جرت المفاوضات في قصر الرئيس جلال الطالباني في المنطقة الخضراء بحضور رؤساء الأحزاب الكردية والشيعية، وعرفت هذه المداولات باسم «المطبخ».

واقترنت المشاركة في «المطبخ» على رئيس الوزراء ابراهيم الجعفري ورئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق عبد العزيز الحكيم ورئيس إقليم كردستان مسعود بارزاني ورئيس الجمهورية جلال طالباني وسفير الولايات المتحدة في بغداد زلماي خليل زاد. إلى هذه الاجتماعات لم تتم دعوة أي من الزعماء السنة رغم أنهم طالبوا بذلك علناً؛ كما أن دور الأمم المتحدة كان يشوبه الغموض. إذ دعي فينك من حين لآخر إلى تقديم المشورة في مسألة ما لكنه لم يعط فرصة المشاركة الحقيقية أو معرفة ما يدور في هذه الاجتماعات. وهكذا تم تغييب أي دور فاعل للأمم المتحدة.

- لقد فقدنا موقعنا؛ ولا نستطيع التأثير في سير المفاوضات كما من قبل. الأميركيان يريدون أن يفعلوا ذلك بمفردهم وعلى طريقتهم؛ قال فينك بخيبة أمل.



الواضح أن الفريق المفاوض عند طالباني كان ينوي إنهاء العمل الذي بدأت اللجنة الدستورية وتقديم وثيقة نهائية للعرب السنة على قاعدة « خذها أو اتركها ». وهم اختاروا أن يتركوها!

وأمرت الانتقادات من كل صوب. أحزاب وجمعيات علمانية ومتطرفة انتفضت. والسنة العلمانيون والمتدينون بما في ذلك الحزب الإسلامي وجبهة الحوار الوطني وهيئة العلماء المسلمين أعلنت أنها ستصوت بـ« لا » مدوية في الاستفتاء. وتركزت اعتراضاتهم حول نقاط عريضة كالفيدرالية والنفوذ غير المبرر للأقاليم في عملية إنتاج النفط واجتثاث حزب البعث وتأكيد الهوية العربية للعراق، والإسلام مصدر التشريع.

والتقى السنة العلمانيون مع لائحة إياد علاوي والأكراد حول هذه النقطة الأخيرة لخشيتهم من إعطاء الإسلام وزناً كبيراً في الدستور. وانتقد مقتدى الصدر الفيدرالية في الجنوب التي قد تعطي المجلس الأعلى للثورة الإسلامية - المدعوم من إيران - سيطرة على منطقة شاسعة تضم تسع محافظات. أما الجمعيات النسائية والأقليات فانتقدت النص لكونه لا يأخذ بالاعتبار مصالحهما وتطلعاتهما.

كانت محزنة مشاهدة هذا التدخل السافر من الاحتلال الأجنبي فيما كان يعتبر رمزاً للسيادة العراقية. وعلّق الزملاء العراقيون على التدخلات الأميركية بنكات لاذعة.

- كان من الأفضل لو كتبوه في واشنطن وأرسلوا إلينا بنسخة

نهائية؛ قال أحدهم.

قبل 8 آب/ أغسطس كانت السفارة الأميركية تقف على مسافة واحدة من جميع الفرقاء وكان سفيرها يعلن ضرورة إعطاء العراقيين الفرصة لإيجاد حلول عراقية لمشاكل عراقية. لكن الموقف تغير فجأة رأساً على عقب؛ وفوجيء الجميع بحضور السفير خليل زاد كل الاجتماعات مع قادة الأحزاب ويعمل فريق السفارة الدؤوب والسافر في الصياغة النهائية للدستور.

ولدهشتي، حضر السفير الأميركي شخصياً إلى الجمعية الوطنية في 15 آب وراح يهمس في أذن رئيس الجمعية هاشم الحسيني قبل أن يطلب من البرلمانين - الذين كان قد تم تجاهلهم قبلاً - الموافقة على طلب مهلة أسبوع واحد لإنهاء صياغة الدستور. هذا المشهد تكرر بتفاصيله في 22 آب عندما تمت الموافقة على طلب مهلة جديد.

واقترح الأميركيان سلسلة تعديلات فيما يتعلق بحقوق النساء، ومكافحة الإرهاب، وبنوداً تتعلق بالنفط والقواعد الأجنبية في البلاد؛ وانتقد تيار الصدر هذه المحاولات وقال: إن الدستور أصبح سلعة أميركية بامتياز، كذلك وُجّهت انتقادات إلى الجمعية الوطنية لطريقة تعاملها غير الشرعي مع طلبّي التمديد وافتقاد النص للشرعية.

وبدأت الجمعيات النسائية وممثلون عن الأقليات تحركاً باتجاه الأمم المتحدة ومنظمات دولية أخرى لشرح مخاوفها من دستور يطيح بقانون الأحوال الشخصية العلماني. واستقبلهم السفير أشرف قاضي بذراعين مفتوحتين معلناً استعداداه لأن يتحدث باسمهم ويدافع عن حقوقهم الإنسانية في النص الدستوري.

المناضلة حنان إدوارد اعتبرت أن خشية النساء مبررة. فالمادة التي تتحدث عن «الإسلام مصدراً للتشريع» تسبب القلق لكثيرين وكثيرات في العراق.

- هذا يعني أن الدين سيكون له الكلمة الفصل في مسائل جوهرية كالزواج والطلاق والإرث. قبل عام 1959 كانت عندنا محاكم سنّية وشيعية منفصلة تعطي أحكاماً متناسبة مع تفسيرها للدين الإسلامي. بعد ذلك دخل حيز التنفيذ قانون أحوال شخصية مستمد من الإسلام ولكن التطبيق كان منوطاً بمحاكم الدولة العلمانية. أما الآن فستتولى المحاكم الروحية الفصل في كل الأمور. هل تتخيلين المشكلات التي سيسببها ذلك للزيجات المختلطة؟

- لكن الدستور الجديد منح النساء 25 بالمئة من المقاعد في البرلمان الجديد. أليس هذا رائعاً؟ حتى في السويد كافحت النساء طويلاً قبل الحصول على امتيازات كهذه.

- لكن النساء عندنا؛ بمن فيهن البرلمانيات، لا يملكن وعياً لشؤون المرأة. عندما حاولت إحداهن في إحدى اللجان الصغرى جمع التواقيع للمطالبة برفع حصة النساء من 25 بالمئة الى 31 بالمئة لم تحصل على تجاوب البرلمانيات؛ واشتكت أن الفيدرالية وكركوك هما المسألتان الوحيدتان المهمتان لهؤلاء النساء. فإذا كانت مهمة البرلمانيات تمثيل مصالح الحزب فقط، فلا يهم حينها إن كان الممثلون رجالاً أم نساءً. هل تفهمين ما أريد قوله؟

كان فينك يجلس في مكتبه المجاور لمكتبي ويدخن بدون انقطاع عندما قصدته أسأل تفسيراً للمادة المتعلقة بالإسلام والتشريع.

- اللجنة ناقشت هذه المادة لأسابيع، شرح فينك. ودار النقاش بين المجموعات حول الصياغة. البعض اقترح «الإسلام مصدراً للتشريع» والبعض الآخر «الإسلام هو المصدر للتشريع». وتم اعتماد الصيغة المرنة التي تقبل بمصادر أخرى للتشريع.

- شرط أن تكون متناسبة مع الشريعة الإسلامية. أليس كذلك؟

- نعم صحيح! ولكن ما العمل؟ لقد تصفحنا دساتير البلدان المجاورة والدستور العراقي مشابه لها فيما خص هذه النقطة. فلا يمكن أن نستحضر دستوراً علمانياً بعضاً سحرية عندما تكون الغالبية الحاكمة متدينة.

في 28 آب/ أغسطس أرسلت الوثيقة الدستورية إلى الجمعية الوطنية وتمت تلاوة مقدمتها أمام البرلمانين. المبادئ الأساسية نصت على أن العراق دولة مستقلة، ديمقراطية وجمهورية فدرالية. الإسلام هو دين الدولة ومصدر التشريع. للدولة لغتان رسميتان: العربية والكردية في حين أن التركمانية والأشورية لغات رسمية في المناطق المعتمدة فيها. يحظر القانون الإرهاب والتطهير العرقي وكذلك أي نشاط لحزب البعث. العراق جزء من العالم الإسلامي ومواطنوه العرب جزء من المنطقة العربية.

مراسم التوقيع على الدستور لم تمرّ من دون دلالات هي الأخرى. ثلاثة فقط من أصل 15 سنياً في اللجنة الدستورية حضروا

المراسم دون أن يوقعوا على الوثيقة. وحث المفاوض السنّي الأبرز، صالح المطلق، ناخبيه أن يصوّتوا ضد الدستور في الاستفتاء المقبل. وفي الأسبوع الذي تلا حفل التوقيع أرسلت الجمعية الوطنية النسخة الإنكليزية المصدّقة إلى الأمم المتحدة فيما النسخ العربية والكردية والتركمانية والأشورية تقبع في الأدراج بانتظار تصديق المجلس. وكانت الأمم المتحدة قد أخذت على عاتقها مهمة طبع 5 ملايين نسخة من الدستور باللغات الخمس وتوزيعها على العائلات في كل المناطق قبل الاستفتاء المحدد في 15 تشرين الأول/أكتوبر. وكنا جميعاً نترقب وصول النسخ المصدّقة ونستفسر يوماً من المسؤولية عن المشروع، كريستينا، فيما إذا كانت قد وصلت.

- ليس بعد؛ كانت تجيب بطريقة ميكانيكية يوماً بعد يوم.

في الأسبوع الأخير من أيلول/سبتمبر بلغنا الخبر أن النصوص الدستورية جاهزة للطباعة.

واتسمت المهلة الفاصلة بين مراسم التوقيع والاستفتاء بنقاشات حامية في الإعلام وبين السياسيين والمثقفين. العرب السنّة رفضوا النص الدستوري باعتباره «مذهبياً» ويعكس إجماعاً شيعياً - كردياً ضدّهم وضدّ مصالح العراق الوطنية، ضدّ العراق! واعتبر السنّة أن الفيدرالية كما هي مطروحة في الدستور الجديد تهدد بزوال الدولة؛ ليس فقط من خلال دعم الحكم الذاتي الكردي في شمال العراق فحسب، بل من خلال إقامة منطقة شيعية شاسعة من تسع محافظات في الجنوب الأمر الذي يحدد وجود السنّة في المناطق الوسطى الخالية

من النفط. وشدد العرب السنّة في تصريحاتهم على الوحدة العراقية والهوية العربية التي جرى تفسيرها من قبل الأفرقاء الآخرين على أنها محاولات بائسة لتسلم الحكم.

وفرضت المهمة الجديدة نفسها على الأمم المتحدة، ألا وهي إقناع العرب السنّة بالتصويت لصالح الدستور. السفير قاضي انشغل في عقد اجتماعات لا تنتهي مع ممثلين للأحزاب السنّية في محاولة لرأب الصدع بين مختلف المكونات السياسية. وعملت السفارة الأميركية من دون توقف على إقناع ممثلي السنّة بالمشاركة في الاستفتاء والتصويت لصالح الدستور. لا أحد كان يريد للاستفتاء أن يفشل لأن الفشل يعيد العملية السياسية إلى نقطة الصفر.

في هذا الوقت، استمرت الاعتداءات الدموية بين السنّة والشيعية، وبين ميليشيا بدر وجيش المهدي الشيعيين. وصدرت وسائل الإعلام المحلية والعالمية بعناوين عريضة مثل «العراق في طريقه إلى الحرب» و«إما أن تصوتوا وإما الفوضى».

إسماعيل زاير بدا مكتئباً على الهاتف عندما اتصلت به صباح يوم تشرينى.

- الدستور الجديد ليس إلا قبلة موقوتة، قال. وإني أتوقع أن يزيد التشنجات بين الطوائف والإثنيات بدل أن يرأب الصدع فيما بينها. نحن في طريقنا إلى شكل من أشكال لبننة العراق.  
- لبننة...؟.

- صحيح! يعني حرب أهلية مدمرة لا يستطيع أحد التكهن بنتائجها.

كان من السهولة بمكان مقارنة العراق بلبنان. والعراقيون وجدوا معطيات كثيرة تشجع على المقارنة بين الدولتين. فلبنان بلد متعدد الطوائف والإثنيات كما العراق؛ اعتمد نظاماً طائفيّاً راعى توزيع السلطات بين الإثنيات والمذاهب. وخاض حرباً طويلة أظهرت للعلن أزمات بنوية في تركيبة نظامه السياسي الطائفي أو الفيدرالية الطائفية كما يحلو لبعض اللبنانيين أن يطلقوا عليها.

هذا التوصيف دفع البعض إلى دق ناقوس الخطر لئلا يسقط العراق بحساسياته المذهبية السنية - الشيعية، في مصيدة الحرب الطويلة نفسها التي مزقت لبنان.

والحقيقة أن أوجه الاختلاف أكثر بكثير من أوجه الشبه.

فباستثناء شكل من أشكال الفدرالية المنصوص عنها صراحة في الدستور العراقي، وفدرالية الطوائف غير الدستورية التي تفرض نفسها على الثقافة السياسية في لبنان، فإن التجربة السياسية اختلفت في مساراتها طوال القرن الماضي في البلدين، وكذلك أشكال الحكم والأنظمة السياسية وأسباب النزاع.

ومهما يكن من تباين أو تشابه، فإن التسوية السياسية هي جوهر النظام السياسي في البلدان ذات التعدد الثقافي، ومنها النظام السياسي اللبناني عندما يكون هذا النظام فاعلاً فعلاً، يحترم صيغة العيش المشترك والمشاركة الحقيقية في الحياة السياسية.

ففي البلدان التي يتمتع فيها المواطنون بدرجة عالية من الوعي السياسي، فإن الديمقراطية التوافقية هي أفضل الأنظمة على الإطلاق لحفظ السلام والاستقرار. أما النماذج السياسية التي تقوم على قاعدة «الفائز يأخذ كل شيء والخاسر لا شيء» فهي صفات مسمومة لا تجلب لأنظمة التعدد الثقافي إلا النزاعات والبلبلة.

نشاط سياسي محموم بلغ أوجه في الأسابيع القليلة التي سبقت الاستفتاء والتي وعد خلالها السفير الأميركي خليل زاد العرب السنة بطرح الدستور للمراجعة والتعديل أمام ممثلي الشعب لو قاموا بالتصويت لصالح الدستور في الاستفتاء.

وبحسب الصفقة السياسية بين خليل زاد والزعماء السنة؛ يقوم البرلمان الجديد المنبثق عن الانتخابات المقبلة بتشكيل لجنة دستورية يكون من مهامها مراجعة وتعديل البنود التي تثير حفيظة العرب السنة، على أن تطرح التعديلات الجديدة في استفتاء جديد.

وبعد صياغة الاتفاق وتضمينه في النص الدستوري، كما اشترط السنة، أعلن رئيس الحزب الإسلامي، طارق الهاشمي، أنه سيشارك في الاستفتاء وسيصوت بنعم مدوية.

- حصلنا على فرصة إحداث التعديلات التي نراها ضرورية؛ فليس هناك من عذر لعدم مشاركتنا في الاستفتاء؛ قال الهاشمي شارحاً الأسباب الآيلة إلى تغيير موقفه.

وهكذا جاء الوعد الأميركي بمراجعة الدستور ليقرب الموازين



ويعيد خلط الأوراق، وليضع السياسة الأميركية على مسار جديد. إذ أدرك الأميركيون أن مقاطعة سنّية للاستفتاء ستؤدي إلى عرقلة العملية السياسية والعودة بها إلى نقطة الصفر، حسبما نص عليه القانون الإداري الانتقالي. والمقاطعة ستزيد أيضاً من عزلة العرب السنّة السياسية، وتؤجج الحروب المفتوحة بين المتمردين وقوات الاحتلال.

أضف إلى ذلك أن السفير الأميركي بدأ متوجساً من حجم النفوذ الإيراني على الأحزاب العراقية؛ ولم يخف في أحاديثه أن إعادة السنّة إلى العملية السياسية غدت أولوية في السياسة الأميركية في العراق. وأن مشاركتهم لم تعد فقط مسألة تتعلق بالديمقراطية والعدالة والمصالحة الوطنية؛ بل أداة مهمة لمكافحة الوجود الإيراني الكثيف والطاغي على السياسة العراقية.

وبينما راح طارق الهاشمي يروج للدستور ويدعو جمهوره والمحازبين للمشاركة في الاستفتاء والتصويت بنعم، استمر صالح المطلق، رئيس جبهة الحوار، بالمعارضة إذ اعتبر أن وعود السفير الأميركي لم تكن كافية!

وبدا واضحاً للرأي العام أن انشاقاقاً في الصف السني بات حقيقة. وهكذا ذهب الناخبون السنّة إلى صناديق الاقتراع بأجندتين سياسيتين مختلفتين. ومر الاستحقاق بسلام. ونجح الاستفتاء!

ففي محافظتين اثنتين من أصل 18 صوّت الناخبون بغالبية الثلثين ضد الدستور؛ وكان ينقص السنّة محافظة واحدة إضافية لقلب

المعادلة؛ الأمر الذي لم يحصل بسبب الانشقاق الحاصل بين الحزب الإسلامي وجبهة الحوار.

الهيئة العليا المستقلة للانتخابات أعلنت أن نسبة المشاركة بين الناخبين بلغت 63 بالمئة؛ وأن 78 بالمئة من الناخبين صوتوا بنعم فيما 21 بالمئة منهم صوتوا بلا.

وانهمرت الاتهامات بالتزوير والغش من السنة لكن أحداً لم يعرها أذاناً صاغية.

فالجميع كان يترقب عملية مراجعة الدستور الموعودة التي علّل العرب السنة أنفسهم بها لاستقامة المسار السياسي ومسار العراق!

ولم تبصر اللجنة البرلمانية المكلفة مراجعة الدستور النور قبل أيلول/ سبتمبر 2006 برئاسة الشيخ همام حمودي. ولم تكن الأحزاب الشيعية والكردية ترغب في إعادة فتح صفحة التعديلات الدستورية؛ إلا أن الأميركيين مارسوا ضغوطاً لإقناعهم أن دستوراً لا يستقطب تفاهماً وطنياً يفقد شرعيته ويلحق الأذى بمصالحهم على المدى البعيد.

عندما زرت الشيخ حمودي؛ وكنت يومها أعمل في قسم الشؤون السياسية؛ طلب الشيخ من الأمم المتحدة مساندة اللجنة الدستورية بخبراء دستوريين عرب.

- ياريت من لبنان أو السودان ومصر تحديداً؛ قال.

- لماذا الإصرار على خبراء عرب؟

- تعرفين، سنقوم بمراجعة لغوية للنص؛ والخبراء العرب يساعدوننا في ضبط اللغة بشكل كبير.

وداهمني إحساس أن شيئاً ما ليس على ما يرام؛ وأن اللجنة لن تتمكن من إحداث تغييرات بالعمق؛ إنما سيقصر عملها على بعض الرتوش اللغوي. وبدأت اللجنة أعمالها في تشرين الأول/أكتوبر 2006؛ فحياً الرئيس جورج بوش هذه البداية بالقول إنها خطوة إلى الأمام.

بعد ثلاثة أشهر أعلنت اللجنة أنها انتهت من العمل على الجوانب التقنية واللغوية؛ وحاولت إيجاد حلول لبعض المسائل الخلافية، مضيفاً أن الباقي يجب مناقشته من قبل السياسيين. واعتبر سليم الجبوري، ممثل الحزب الإسلامي في اللجنة، أن اللجنة لا تملك أن تفعل أكثر.

- نحن في الحزب الإسلامي نرى أن على زعماء الأحزاب ورئيس الجمهورية ونائبيه أن يلتقوا ويناقشوا المواضيع الصعبة. اللجنة لا تستطيع أن تفعل أكثر من دون دعم السياسيين.

وهذا لم يحصل قط. وبقيت المسائل الخلافية على حالها.

فالمادة 41 من الدستور المتعلقة بالحقوق الدينية لم ترض أياً من الأطراف: الأحزاب الشيعية والسنية سعت كل منها إلى تضمينها تفسيرها الخاص للدين فيما عارضت الأحزاب الكردية والجمعيات النسائية والعلمانية هذه المادة شكلاً وتفصيلاً.

التوازن في السلطات بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء لا يزال مدار جدل بين الأطراف المتنازعة.

الشيعية يطمحون إلى إعطاء رئاسة الوزراء سلطات واسعة لا سيما

وأن الأكرثية البرلمانية والعددية تضمن لهم وجودهم في هذا الموقع؛ في حين أن السنة يرغبون في تقليص صلاحيات رئيس الوزراء وتعزيز صلاحيات رئيس الجمهورية الذي منحه الدستور الجديد موقعاً رمزياً. العقدة الأصعب هي تلك المتعلقة بإدارة آبار النفط والتي تكوكت حولها الأحزاب الشيعية والسنية والعلمانية من جهة؛ والأحزاب الكردية من جهة ثانية. فرغم أن الدستور ينص في المادة 111-112 على أن توزيع العائدات يجب أن يتم بشكل نسبي بين مختلف المناطق؛ فإن غالبية الأحزاب تميل إلى وضع قطاع النفط إنتاجاً وتنقياً تحت إدارة السلطة المركزية؛ وتطالب بتعديل هذه المواد بحيث تتمكن السلطة المركزية من مراقبة هذا القطاع.

ويرد الأكراد على هذه المآخذ بتقديم تفسير قانوني جازم على أن هاتين المادتين تعطيان كردستان الحق في أن تقرر سياستها النفطية وتدير بنفسها إنتاج الآبار. ويعارض العرب - سنةً وشيعاً - هذا التفرد الكردي؛ ويشتكون من النزعة الانفصالية لدى الأكراد الذين يخططون للاحتفاظ بآبار النفط عند انفصالهم عن العراق في المستقبل.

والأنكى أن البرلمان الكردي أقر في آب/ أغسطس 2007 قانوناً نفطياً للإقليم اعتبرته الحكومة في بغداد غير شرعي. وردت أربيل أن القانون الكردي كان ضرورياً بغياب التوافق على قانون نفطي وطني. المادة 140 المتعلقة بوضع مدينة كركوك تنص على مراحل العملية التي ستقرر وضع المدينة النهائي. والمراحل هي: تطبيع وإحصاء سكاني، فاستفتاء. والمادة وضعت أيضاً إطاراً زمنياً لتنفيذ

هذه المراحل لا يتعدى 31 كانون الاول/ ديسمبر 2007 . عندما أدرك الجميع أن التاريخ المحدد غير ممكن التقيده من الناحية العملية؛ قام البرلمان الكردي بالتصويت على مهلة ستة أشهر إضافية، لم تكن هي الأخرى كافية، ولم تساعد في دفع المفاوضات قدماً.

المفاوضون العراقيون عجزوا عن إحداث تعديلات في الدستور؛ ليس فقط لأن المسائل المتنازع عليها مرتبطة ببعضها ومتشابكة؛ ولكن أيضاً - وبشكل أساسي - لأنها تعبر عن رؤى كل فريق لعراق المستقبل. وهي رؤى متضاربة؛ متنافسة يغلب عليها التناحر على السلطة والموارد الطبيعية.

بعض الأحزاب بما فيها تيار الصدر والأحزاب السنّية تطمح إلى مراجعة دستورية جديدة؛ في حين أن الأحزاب الكردية وأحزاب شيعية أخرى تخشى أن تُفقد هذه العملية مكتسبات قيّمة لا يمكنها التفريط بها.

ففي ظل غياب إرادة سياسية توافقية واضحة يبدو أن أية مراجعة حقيقية للدستور غير ممكنة؛ وبالتالي فإن آمال العراقيين بأن يكون هذا الدستور عقداً اجتماعياً أو اتفاقاً يحمل السلام والاستقرار إلى البلاد غير قابلة للتحقيق.

فرصة أخرى لتحقيق السلام والمصالحة الوطنية أفلتت من أيدي العراقيين!

## جنس وخمر وموت

- أنت أفعى متخفية في شكل إنسان؛ سمعنا فون شولنبرغ يصرخ.

- وأنت أحرق؛ أجب فريد.

وهبّ الجميع من مكاتبهم وهروا لواء على رؤوس أصابعهم صوب الباب؛ مدّوا أعناقهم خارج الفتحة ليروا بأم العين مشهداً سورياً لا يتكرر في معاقل الديبلوماسية الدولية.

وإذ بفون شولنبرغ وفريد يقفان وجهاً لوجه والعيون تقدح شرراً. كانا يبدوان كديكين غاضبين على وشك الهجوم على بعضهما البعض. وراح واحدهما يتحدى الآخر بأن يتجرأ ويكرر شتائه بحضور السفير قاضي وهما يقفان على بعد خطوة من باب مكتب السفير.

وربما استدرك الرجلان فجأة رعونة تصرفهما فابتسما ابتسامة خجلة، ثم خطوا خطوة إلى الوراء وقد فهمتا على الأرجح أن استهلاك وقت السفير بهذه التفاهات يزيد الأمر سوءاً ويؤثر في مكانتهما. وراحا يتمتان كلمات الأسف والاعتذار ويشتكيان من الضغوطات الحياتية في المنطقة الخضراء التي حملتهما على فقدان صوابيهما.

والحقيقة، إن الظروف المحيطة بالحياة اليومية كانت ضاغطة إلى حد أنه كان من السهولة بمكان أن يفقد المرء صوابه. كم من المرات لم أتورط بمواجهات مع الجنود الفيجيين لتمردي على التعليمات ورفض ارتداء السترة الواقية في السيارة المصفحة. كنت أتحمس شمس بغداد وهي تسليخ جلدي وأصرخ في وجوه الجنود متذمرة من هذه الإجراءات الوقائية البائسة التي تفتقد إلى المنطق؛ وأردد أنني لست بحاجة لحماية مزدوجة. ولو قدر لي أن أموت في بغداد فسأموت مهما فعلت!

كنا نشعر بالوضع الضاغط يلتف حول رقابنا كالثعبان: السلاح الكثيف المتجول في الطرقات والصواريخ التي كانت تطلق باتجاهنا من مدينة الصدر؛ وروتين الحواجز الذي لا ينتهي؛ وتفاصيل الحياة اليومية المزعجة تضغط على أنفاسنا وتحول الحياة في هذه المنطقة الخضراء - التي ليس فيها أثر للخضرة - إلى سجن كبير. كنا نقضي الجزء الأكبر من يومنا في المكتب؛ نتعاطى مع الأشخاص أنفسهم ونأكل في أوقات محددة؛ ونتناول الوجبات المقلية المشبعة بالزيوت والمواد الدهنية كل أيام الأسبوع دون تدمير. عالما الصغير كان يمتد بين فندق الرشيد والمكتب. النزاهات ممنوعة والتسلية عملة صعبة!

كان الزملاء يمضون لياليهم بمشاهدة أفلام الفيديو أو مطالعة الكتب التي كانوا يشترونها خلال العطل في الخارج، ويتبادلونها فيما

بينهم ثم يناقشون محتواها خلال جلسات الغداء أو العشاء كبديل منعش عن تقارير الموت الواردة إلينا كالشلال من بغداد.

نقاط الضوء القليلة في هذا النفق الرتيب كانت فرصة الاختلاط بالعراقيين الذين يسكنون الفندق؛ وجميعهم من الوزراء والنواب والعاملين في السلك القضائي. كنا نلتقي حول طاولة عشاء دائرية لتناول العشاء، ونلخص أحداث النهار ونحللها ونستتج ما ستؤول إليه الأمور، ثم تأخذنا الثرثرة فنلقي النكات؛ ونسخر من تصرفات هذا المدير أو ذاك؛ ونضحك.

وكان العراقيون ينصرفون إلى صالونات الاستقبال الفسيحة في الرشيد لاحتساء الشاي؛ فأنضم إليهم بطبق عرمرمي من البوظة الأميركية؛ بينما ينتقل آخرون إلى البار المجاور لتناول البيرة حتى تثقل رؤوسهم وتترنح مشيتهم على الدرج المؤدي إلى غرفهم.

أصبحت بوجع فظيع عندما جاءني مدير الشؤون السياسية كيش بنجار، إلى طاولة الفطور صباح يوم ليخبرني أن صديقي ورفيق سفري جون سميث قد توفي. ونزل الخبر علي كالصاعقة.

- أنت متأكد أن هو جون نفسه الذي كان يعمل في برنامج النفط

مقابل الغداء؟

أوماً كيش إيجاباً. وقال إنه أراد إبلاغي بالخبر بنفسه لعلمه بالصدقة التي كانت تربطني به. لم أعرف ماذا أقول. انهمرت الدموع بصمت بينما راح كيش يخبرني بالتفاصيل.



- عند عودة جون من العطلة في بلغاريا اتصل به صديقه وزميله كريس وسأله فيما إذا كان يرغب بالخروج وتدخين النرجيلة سوياً. لكن جون اعتذر لارتباطه بمواعيد أخرى. وعاود كريس الاتصال يوم السبت لكنه لم يلق جواباً. بعد عدة محاولات قصد كريس منزل صديقه لكن أحداً لم يفتح الباب. فخلعه ودخل الشقة ليجد جون جثة هامدة على الأرض.

- هل كنت تعرفين شيئاً عن صديقه البلغارية؟

- سمعته مرة يتحدث عنها بشكل عابر. أذكر أيضاً أنه كان يتناول دواء بانتظام لكني لم أسأله قط عن وضعه الصحي لخصوصية الموضوع.

وربّت كيش على كتفي وقال إنه سيقوم بدعوة رفاق جون في منظمات الإغاثة الأميركية في بغداد إلى احتفال صغير إحياء لذكراه. وألقى الرفاق كلمات مؤثرة في جون؛ فانهالت دموعنا أنهاراً. ووضع كتاب كبير إلى جانب صورته الفوتوغرافية سطرّ فيه الزملاء تحية أخيرة للفقيد. وكتبت جملتين مختصرتين: كان بيننا رجل اسمه جون سميث. اليوم غادرنا إلى الأبد. لتسترح نفسك بسلام أيها الصديق العزيز.

في غضون ذلك التحق عدد من الموظفين الجدد بفريقنا في بغداد. أحدهم دلفين؛ وهي موظفة قديمة في الأمم المتحدة وخبيرة في مجال حقوق الإنسان. كانت شابة في نهاية الثلاثينيات؛ تملك ظرفاً

ولباقة وقدرة على شد انتباه الآخرين. لكنها كانت قلقة إلى حد الهوس بمسائل الإنجاب. فساعتها البيولوجية كانت تنام في سريرها، وتحت مخدتها، وتؤرق عليها صفاء أفكارها. وكانت تردد بمناسبة ومن دون مناسبة أنها ترغب بإنجاب الأطفال قبل فوات الأوان.

- تعرفين؟ قالت لي مرة؛ لقد عملت في عدد كبير من البلدان حول العالم وتنبهت إلى أن النساء اللواتي يلتحقن بالمنظمة للعمل في أماكن بعيدة هن في الغالب شابات في العشرين أو كهلات في الخمسين. الشابات يسعين للعمل قليلاً قبل الزواج والإنجاب والأخريات يلتحقن بالعمل بعد أن يكن قد أنجبن وريين الأولاد. أظن أننا، أنت وأنا، نقترف من هذا المنظور خطأ كبيراً.

- ولماذا جئت إلى بغداد إذن؟

- جئت إلى بغداد لأن من شأن ذلك أن يفتح أمامي أبواباً جديدة كالانتقال إلى بعثة أخرى تتوافر فيها حياة مريحة. حلمي هو أن أحصل على وظيفة في نيويورك.

وانصرفت دلفين تبحث عن مقومات حياة طبيعية في مدينة غير طبيعية مثل بغداد.

لم تتأخر عن تلبية كل دعوات التسلية والترفيه، وتناول الخمرة كالرجال، والتزيّن كالنساء. لم تكن تكثرث كثيراً لتعليقات الزملاء الذين كانوا يذكرونها أن هذه بغداد وليست نيويورك. كانت تعيش كما يحلو لها وفي رأسها طنين الساعة البيولوجية.

وجاءنا زميل آخر إلى بغداد. تقدم مني، صافحني وقال إنه يتمنى

أن نتعاون في المستقبل. كان يعمل في مقر البعثة في أربيل؛ لكنه طلب الانتقال إلى بغداد بعدما أصيب بالإرهاق في الشمال.

- كنا ننام في مستوعبات ونتقاسم الحمامات مع جنود كوريين يستعملون مغطس الحمام لغسل الصحون. وقد انتهى بنا الأمر إلى الاستحمام وبقايا الطعام والزيوت تحت أقدامنا؛ قال وعلامات التقزز بادية على وجهه.

كان اسمه علاء الدين. عينان دافئتان وضحكة رنانة. هادئ وصبور كأن سلاماً سماوياً هبط على رأسه كالطير. كان يعمل في قسم الشؤون الأمنية؛ يلاحق التطورات الميدانية ويحرر التقارير. ودرج على أن يأتي إلى مكنتي ليطلب مساعدة في تحرير رسالة موجهة إلى السلطات المحلية أو ليسأل عن آخر الأخبار في الصحف. كان يبدو لي حريصاً على أن يكون عمله متميزاً خالياً من الأخطاء كوسيلة للتعويض عن تجربته القصيرة مع المنظمة الدولية.

فقبل انخراطه مع البعثة في العراق، عمل علاء الدين ضابط مباحث في بلاده.

- لم أرفع سلاحي في وجه أحد طوال حياتي، قال جازماً.

- يعني أنك لم تطلق النار أبداً على أحد؟

- وهل هذا غير قابل للتصديق فقط لأنني عربي.

- ليس لكونك عربي، بل لأنك بوليس.

كنا نتناول الغداء معاً معظم الأحيان. وفي الأيام التي لم نكن نفعل فيها ذلك كنت أشعر به قريباً مني. أسمع صوته يأتي من الزاوية

الأخرى لصالة الطعام؛ وأرى عينيه الضاحكتين تبحثن عني؛ تتحدثان إليّ بأشياء كنت أفهمها... ولا أفهمها. وأصبح علاء الدين خلال أسابيع قليلة ظلي المحبب الذي من دونه أشعر بالوحدة. وبعد أسابيع على هذه الحال، قررت أن أواجهه.

- أظن أن بيننا حالة من الانجذاب أو الإعجاب. ماذا تريد أن تفعل بشأن ذلك؟

وشعر علاء الدين بالصدمة. وقفت أمامه أحاول أن أفهم ما يدور في رأسه: ربما لم يكن معتاداً على الصراحة البالغة تأتيه من امرأة تفتح شجاعتها شهية الرجال على هزيمتها. ربما كان يفضل الاستمرار في لعبة الإغواء هذه إلى ما لا نهاية، بشروطه، وعلى مزاجه. أخذ نفساً عميقاً ونظر إلى كفيه طويلاً يفكر ثم حدق في عيني وقال:

- وما الخطأ في أن يشعر الواحد منا بالانجذاب تجاه الآخر؟ لكنني متزوج ولي ثلاثة أولاد، ولا أريد التسبب بالأذى لهم من جراء تورطي في علاقة نسائية خارج الزواج.

- طالما أنك صاحب مبدأ وحريص كل هذا الحرص على مشاعر عائلتك؛ ماذا تريد مني؟ لماذا تلاحقني؟

- لم أنظر يوماً إلى امرأة أخرى غير زوجتي؛ ليس من طبعي الخيانة. لكن الأمر مختلف هذه المرة. أشعر بشيء مختلف تجاهك. - آه صحيح! هذا ما يدعيه كل الرجال في البداية.

انصرفت وأنا أستشيط غيظاً. لم أكن على بينة من المشاعر

المتضاربة التي انتابتنني. هل كنت أشعر بالإهانة؟ أو ربما بالهزيمة؟  
ربما أخطأت وأنا امرأة تجهل قواعد لعبة الحب على الطريقة الشرقية؟  
كيف لي أن أعلم وقد أمضيت نصف عمري في استوكهولم ولم أعرف  
رجلاً عربياً واحداً؟ وامتألت بالنقمة على نفسي!

في الصباح التالي رأيت علاء الدين متوجهاً إلى الباب الخارجي  
بينما كنت أتحدث مع أحد زملاء. التفت إليّ بعينه الوديعتين وقال  
إنه ذاهب إلى مشفى ابن سينا.

- هل أنت مريض؟

- لم أقو على النوم طوال الليل بسبب هذا الورم في إبهامي.

أتوجع كثيراً.

عند الظهر، دوى انفجار بالقرب من مقرنا. كان الدوي عنيفاً إلى  
حد أن قلبي ارتجف بين ضلوعي. ركضت صوب المكتب ووجدت  
الزملاء خلف مكاتبهم وكأن الطير حطّ فوق رؤوسهم. تذكرت علاء  
الدين الذي ترك المقر صباحاً ولم يعد. شعرت بالقلق مما زادني  
حيرة بأمرى. حاولت الاتصال به لكن شبكة الاتصالات كانت خارج  
الخدمة. ورحت ألوم نفسي لقلقي. كيف يتحول الغضب فجأة إلى  
عاطفة؟ ولماذا أهتم لحال من خذلني وخدعني؟ وفجأة رأيت يقف  
أمامي والضمادة تلف إبهامه. حاولت أن أقول إنني قلقته لغيابه. لكنه  
قاطعني ليسرّ إليّ بالشيء نفسه. وابتسم ابتسامته الساحرة وراح في  
سبيله.

في قبو فندق الرشيد صالة رياضة صغيرة تبدو بمعدات المحطمة التي يتأكلها الغبار والإهمال، والروائح النتنة المنبعثة من شبكة الصرف الصحي، وكأنها من مخلفات الحرب العالمية الثانية. وخلت أن انصراف الزملاء عن ارتيادها سيخلي لي الجو لأمارس رياضة العدو على الآلتين الجديدتين اللتين أحضرهما الأميركيون خصيصاً للجنود في الفندق.

كنت أتحمّل على نفسي كل مساء وأنزل إلى القبو لأخفف رياضياً من التوتر القابض على مفاصلي. لكن وحدتي لم تطل طويلاً. علاء الدين أصبح فجأة هو الآخر مدمناً على ممارسة العدو.

خلال التمارين كان الحديث يأخذنا إلى أماكن حميمة: زواجه الخاوي من الحب والمستمر بقوة التقاليد؛ الصراع مع الأولاد ومشكلات العمل والعلاقات المتشنجة مع الزملاء؛ ونحن! كان صريحاً وصادقاً وجدياً. شعور بالدفع والانسجام قرب المسافات بيننا. وتمسكنا بهذه الصداقة وخيل إلينا أننا نهتم لحال بعضنا بسبب وجودنا في منطقة حرب.

كنا نريد لهذه الصداقة أن تنجح. الحب لم يكن أولوية عنده ولا عندي. ولا لزوم لتعقيدات نحن بغنى عنها. لكل منا معاركه مع الذات ومع شياطينه اللعينة: هو يغالب الإغراءات التي تدفعه إلى خيانة زوجته وأنا أصارع الرغبة بالاستسلام لرجل متزوج وأب لثلاثة أولاد.

وذاً ليلة، دعوته بعد التمارين الرياضية إلى غرفتي. لم أعرف من أين أتتني الجرأة! فهل كنت أريد امتحانه في الفسحة الحميمة أم

امتحان نفسي؟ تلك الليلة أطلنا الحديث حتى غلبنا النعاس. قبّلني  
على جفني وعاد إلى غرفته.

وشعرت بالسعادة لهذه المهلة الإضافية لاستنفار كل ما لدينا من  
شجاعة لخنق براعم الانجذاب في مهدها.

أوليس الانجذاب التوأم الوسيم للحب؟!

## الجامع في الصدارة

أيام الجمعة كانت أكثر أيام الأسبوع دراماتيكية. فالجمعة هو اليوم الذي يؤم فيه الناس المسجد للصلاة؛ واليوم الذي يخرج فيه الناس للتظاهرات؛ ويوم الانفجارات بامتياز؛ واليوم الذي يقع فيه أكبر عدد من الضحايا المدنيين.

في الشوارع الخلفية للمنطقة الخضراء، كان يوجد مسجد صغير يؤمه المؤمنون أمثال زميلي أبو أحمد. لحيته البيضاء التي تركها تنسدل على صدره تتحدث عن تدينه وفهمه العميق للقرآن. كان يعمل كمدقق مالي، لكن، بعد ساعات العمل يتحول أبو أحمد إلى مستشار في أمور الدين ينهل من علمه وحكمته ورحمته وحبه للبشر لينور طالبي المعرفة والنور من الزملاء العرب والمستشرقين.

لم يتأخر مرة عن صلاة الجمعة ولم يفوت خطبة إلا واتعظ منها؛ وكان يؤمن بقدرة الدين على توحيد الناس.

لكن شيئاً ما أخذ يقلق أبا أحمد أخيراً. كان يعود من صلاة الجمعة تعباً متشائماً، مشتت الأفكار.

سألته مرة عندما جلسنا معاً إلى طاولة الغداء عن سبب تشاؤمه.



- أظن أن الأمور تذهب في الاتجاه الخطأ. فلم يبق في خطب الأئمة إلا القليل القليل من الروحانية وحب البشر؛ قال. أظن أن السياسة تسيطر على عقول الجميع هنا بمن فيهم الأئمة.  
- لكن السياسة كانت دوماً تحتل حيزاً لا بأس به من خطب المساجد، قلت.

- صحيح! الأئمة يفعلون ذلك ليشرحوا للمصلين ما لا يفهمون من أمور السياسة بلغة سليمة ومتوازنة ومسؤولة. أما هنا فالمسألة صارت تحريضاً بتحريض. أنا تعبت من كل شيء.

ما لبث المسجد؛ وهو من أقدم المؤسسات الدينية في الإسلام، أن عاد مركزاً لتفعيل التواصل السياسي بين الناس في العراق. والأئمة الذين يُعترض بهم أن يفسروا للمؤمنين كلام الله في القرآن، أصبحوا لاعبين سياسيين يتقنون لغة التعبئة السياسية لجمهور المصلين. والأنكى أن عدداً منهم احتل مقاعد في الجمعية الوطنية ممثلين لأحزاب طائفية. وبدت المسافة بين الدين والدولة وبين السماوي والديني ضيقة وغير واضحة المعالم.

فعندما عاد العراقيون من المنفى بعد سقوط حزب البعث كانت مؤسسات الدولة في انهيار تام. وارتأى العائدون أن الهوية الدينية والمذهبية تصلح لأن تكون مرتكزاً شرعياً وثابتاً للتعبئة السياسية وتعزيز النفوذ، فغزوا المساجد التي هي بالأساس أماكن للصلاة وحولوها إلى مراكز لنشر الدعاية السياسية والتجيش وتجنيد المتطوعين.

وفي المساجد الشيعية - الحسينيات - كانت خطب الأئمة

تحدث عن العذابات التي ألمت بالشيعة، منذ واقعة كربلاء عام 680 التي تجسد في الذاكرة الشيعية كل الظلم والتهميش السياسيين اللذين عانى منهما الشيعة عبر العصور .

ولذلك، باتت المعاناة التي تحاكي الضمير الشيعي وتؤجج مشاعره مادة دسمة تعتمد في الحسينيات ليس فقط لتشكيل الهوية المذهبية بل لتجنيد المتطوعين. ودرج الأئمة على القول للمؤمنين : إذا صوّتم للائتلاف الشيعي فستذهبون إلى الجنة. أو حرام أن تمارسوا الجنس مع زوجاتكم إذا لم تصوتوا للائتلاف الشيعي.

آية الله العظمى علي السيستاني توجه إلى الشيعة قبل موعد الانتخابات عام 2005 ليحثهم على عدم التفريط بأصواتهم. ففي أحد النداءات التي نشرت على الموقع الرسمي لآية الله السيستاني قبل أيام من انتخابات كانون الأول/ ديسمبر نقراً: « هذه الانتخابات ليست أقل أهمية من سابقتها. والمواطنون، نساءً ورجالاً، مدعوون للمشاركة وتسجيل حضور كثيف وذو معنى لدعم القيم الشيعية ودعم ممثليهم الذين سيدافعون عن هذه القيم في البرلمان الجديد. لهذا السبب يقتضي تجنب الانقسام وهدر الأصوات».

وكتب أحد المعلقين في صحيفة الشرق الأوسط بعد نشر نداء السيستاني. « أصبنا بالصدمة عند قراءة نص الفتوى العائدة لآية الله العظمى السيستاني، والتي يحث فيها الناس على أن يصوتوا للائتلاف الشيعي. إن هذا يتعارض كلياً مع ما كان قد أعلنه السيستاني في موقف

سابق عن امتناعه تفضيل حزب على آخر، والتزام عظمته الحياد خارج حلبة الصراع السياسي. وإنه لخطأ جسيم أن ينخرط أكبر مقام ديني في الحملة الانتخابية، إذ إن موقفه هذا قد يؤدي إلى تعميق الفجوات وتأجيج الصراع في البلد».

وإذا كان شيعة العراق سابقين إلى استخدام الدين من أجل التعبئة السياسية، فإن السنة كانوا لاحقين. وكانوا يؤمنون أن الفوضى السياسية هي من صنع الأميركيين كي يستمروا في احتلال العراق، وأنهم إضافة إلى قوات الاحتلال يواجهون أعداء كثرأ أمثال: الشيعة والأكراد؛ وفي بعض المراحل تنظيم القاعدة عندما كانت مصالح السنة السياسية تتقاطع وتشتبك بأجندة تنظيمات القاعدة في بلاد الرافدين.

وشرح أبو أحمد خلال إحدى وجبات العشاء أنه بحسب التفسير الديني السنّي ينبغي على المؤمنين أن يتبعوا قائدهم في كل الظروف. فالسنة مثلاً يميلون إلى الانصياع للقائد بعكس الشيعة الذين يميلون إلى التشكيك بنواياه وبكفاءته على إرساء العدل. وقد اعتاد السنة طوال قرون أن ينصرفوا إلى مجلداتهم ومخطوطاتهم للبحث عن تفسير أو حديث يهديهم إلى الطريق الصواب.

- عند السنة، لا يحق للمؤمن أن يشكك في القائد عندما يكون القائد مسلماً. ينبغي عليهم الطاعة بغض النظر عما إذا كان القائد صالحاً أم طالحاً؛ لأن الله وحده سبحانه وتعالى يعرف ما هو خير للبشر، ولرب العالمين وحده الحق أن يحاكم القائد على أفعاله.

إنطلاقاً من هذه الافتراضية تصبح السياسة عند السنّة جعجعة فائضة. فأنا كمسلم سنّي أتبع قائدي المسلم على الحلو وعلى المر. والباقي أسلمه لرب العالمين. وهذا يفسر مثلاً من الوجهة الدينية، عدم قيام السنّة هنا بالانتفاض على صدام.

- السنّة لم ينتفضوا لأنهم كانوا المستفيدين من حكم صدام. كانوا الدولة بأمها وأبيها؛ قلت مقاطعة.

- هذا تفسير سياسي. أنا قدمت تفسيراً دينياً.

مهما يكن من أمر، فغياب صدام حسين عن الساحة السياسية وافتقار الساحة إلى قائد وطني بحجمه دفع السنّة إلى التحرك بقوة باتجاه المساجد المكتظة بالمؤمنين لإخفاء السلاح وجمع التبرعات للمقاومة وتجنيد المتطوعين. المستشار الأمني في الرئاسة العراقية؛ موفق الربيعي، الذي كان يزورنا بانتظام في الرشيد للعب التنس مع فون شولنبرغ كان لا ينفك يردد أن البعثيين الأوفياء أصبحوا بعد غياب الرئيس صدام حسين مسلمين ملتزمين.

- يؤمنون المساجد التي لم يزورها يوماً في حياتهم، قال الربيعي. يصلون ويناقشون في السياسة، ويجيشون الشبان. فالدين دافع قوي إذا جرى تفسيره بانتقائية؛ ولا يقل قوة عن قوة أسلحة الدمار الشامل.

ففي وقت غدت فيه صلاة الجمعة أداة للدعاية السياسية، أصبحت النشاطات في الجوامع السنّية منها والشيعية مصدراً مهماً للأخبار ولفهم ما يجري في العراق. وبالتالي هدفاً للهجمات الإرهابية

ولسقوط المئات من المؤمنين مضرجين بالدماء. وهكذا أصبح المسجد مكاناً خطيراً ويوم الجمعة أكثر أيام الأسبوع دموية.

أحد هذه المساجد الذي استهدف مرتين خلال شهرين متتاليين هو جامع برائي بقيادة الإمام جلال الدين الصغير الذي كان أيضاً ممثلاً لمنظمة بدر في الجمعية الوطنية وعضواً في اللجنة البرلمانية الدستورية وممثلاً للسيستاني في بغداد. عرف عنه سلاطة لسانه وميله إلى مشاكسة زملائه النواب السنّة واتهامهم أفراداً وجماعات بتغذية الطائفية والضعيفة بين أطراف الشعب العراقي.

وتناولت الشائعات جامع برائي كمركز للتعذيب ضد الموقوفين السنّة على أيدي فرق الموت الشيعية في خلايا الاعتقال في أقبية المسجد.

عندما اتصلت بالإمام الصغير لأطلب موعداً لرفض اللقاء مع الأمم المتحدة متّهماً المنظمة بالتحيز.

- لا أبغي تضيق وقتي بلقاء منظمتمكم. أنتم تساندون السنّة وقد فشلتم فشلاً ذريعاً في البقاء على مسافة واحدة من جميع الأطراف.

- نحن لا نساند السنّة أبداً ولسنا منحازين لأي طرف.

- أنتم دائماً تستنكرون الهجمات ضد المساجد السنّة؛ وتلتزمون

الصمت المطلق عندما يقع اعتداء على حسينيّات الشيعة. لماذا؟

- غير صحيح. نستنكر كل أشكال العنف ضد أي كان. استنكرنا

الاعتداءات على برائي وضدكم شخصياً؛ ونحن سعداء أنك لم تصب

بأذى. نحن في الحقيقة هنا لنشجع على الحوار والمصالحة الوطنية من أجل العراق والعراقيين.

وبعد نصف ساعة من الكر والفر والاتهامات والدفاعات المضادة قبل الإمام الصغير بمقابلتنا.

- لو أردتم أن تلتقوا بي، فأنا لا أقبل بأقل من السفير أشرف قاضي زائراً. لا أحد دونه مرتبة.

في هذا الجو المشنج والمشح بالطائفية المتطرفة، تقلصت بطبيعة الحال المساحة المتاحة لنشاط السياسيين العلمانيين. وكثيرون منهم، في الحقيقة، ممن كانت تعرف عنهم ميولهم العلمانية، التحفوا بلباس التدين بعد عودتهم من المنفى. ففي العراق الجديد، أدرك السياسيون أن رضى وبركة آيات الله العظمى في النجف أكثر نفعاً لمستقبلهم السياسي من العلمانية. ومن أبرز الذين تظاهروا بالتدين نائب رئيس الجمهورية عادل عبد المهدي والسياسي الذي يعرف كيف يدير الدفة حسب مجرى الريح أحمد الشلبي.

ومع تصاعد الاستقطاب السياسي، تقهقرت الدولة بشكل دراماتيكي، وباتت المؤسسة الوحيدة التي تفرض الهوية الوطنية في مواجهة الطائفية والإثنية والمناطقية في تلاشٍ. ورأت المجموعات العراقية التي تمسك بزمام السلطة أنها عانت الكثير في ظل حكم البعث الطويل فعملت على إضعاف الحكم المركزي في بغداد.

ومن المضحك المبكي أن الفرقاء المتصارعين كانوا يسعون إلى نيل دعم الولايات المتحدة فيما كانوا في العلقن يرفضون الاحتلال ويطالبون بانسحابه.

فالشيعه كانوا يخافون من بطش القاعدة فيما السنة يخشون تصاعد الشيعة التي أصبحت أكثر منهجية ومؤسسية منذ انتخابات كانون الثاني/يناير 2005.

فعند سقوط نظام صدام حسين أسرع المجلس الأعلى للثورة في العراق وذراعاه العسكري «بدر» بالعودة إلى العراق. في البداية لم يلقيا ترحيباً من العراقيين المقيمين الذين رأوا فيهم تجسيداً للامتداد الإيراني؛ لاسيما وأن المجلس الأعلى ساند هذه الأخيرة خلال الحرب العراقية - الإيرانية. لكن حدث أن أُنخب القائد العسكري لبدر، عبد العزيز الحكيم، عام 2003 ممثلاً للمنظمة في إدارة الحكم الذاتي، واستطاع من موقعه أن يعيد تشكيل النظم السياسية ويتخلص من منافسيه بحيث يضمن للمجلس الأعلى للثورة الهيمنة الكاملة على الأرض، وفي الجمعية الوطنية في انتخابات كانون الثاني/يناير 2005. ومن نتائج الفوز الكاسح في الانتخابات بروز نجم جبر بيان صولاغ، ممثل المجلس الأعلى للثورة في لبنان خلال تسعينيات القرن الماضي، ووزير داخلية العراق منذ نيسان/إبريل 2005. وتعهد صولاغ بسحق المتمردين والصداميين والإرهابيين. وبدأ مهمته في

الداخلية بتجهيز قوة من الشرطة العسكرية قوامها 11 الف رجل زرعو الرعب في العاصمة.

فمنذ تسلمه مهامه الوزارية إلى لحظة تخليه عنها في العام التالي؛ كانت الاتهامات تكال ضده وضد وزارته يوماً في الصحف المحلية. وفي المناطق ذات الغالبية السنية كان السكان يرددون أن صولاغ قام بإعادة تنشيط فرق الموت التي كانت تجول في العاصمة داخل سيارات الشرطة خلال ساعات منع التجوال، وتغير على منازل العائلات، وتسوق الشبان إلى خلايا التوقيف في الوزارة حيث كانوا يتلقون التعذيب بشتى أشكاله على أيدي فرق الموت.

والأنكى أن شرطة وزارة الداخلية كان قد تم خرقها من قبل قوات بدر والمجلس الأعلى للثورة. وكانت هذه تجول في العاصمة وتقيم الحواجز المتنقلة للتدقيق في هويات المواطنين .

وانتشر الرعب في العاصمة وتداول الناس حكايات كثيرة عن شبان يحملون أسماء سنّية كعمر أو طارق قاموا بتغييرها إلى علي أو حسين. واتهم السنّة منظمة بدر بشن حرب وسخة ضدهم انتقاماً من الظلم الذي عانوه خلال حكم صدام. وقال رئيس الحزب الإسلامي طارق الهاشمي إن هذه الحرب الوسخة جزء من مخطط إيراني يراد منه تفرغ بغداد من السنّة!

وأسرع وزير الداخلية صولاغ إلى تكذيب التقارير التي تحدثت عن تورط قوات الشرطة في وزارته مع فرق الموت التي تعيث موتاً في



العاصمة أو أن يكون هناك وجود لسجون تعذيب في وزارته. وقال: إن الإرهاب المنتشر في بغداد هو من صنع خلايا إجرامية سرقت سيارات الشرطة من الوزارة واشترت أزياء الشرطة من السوق السوداء لتقوم بقتل المواطنين وسرقتهم. وتساءل الزعماء السنّة كيف يمكن لهؤلاء المتنكرين بزى الشرطة تسيير دوريات مؤللة في المدينة بشكل منتظم خلال حظر التجوال دون أن تحرك الشرطة التابعة للوزارة ساكناً؟

وكيف يمكن تفسير أن هؤلاء المتنكرين كانوا يقودون سيارات وزارة الداخلية، ويتحدثون في أجهزة الواكي توكي ويستعملون المسدسات نفسها التي يستعملها رجال الشرطة أنفسهم؟

التقارير المرعبة عن فرق الموت هذه حفزت الأميركيين للإغارة على اثنين من مراكز التوقيف التابعة لوزارة الداخلية بعدما تناهت إلى المدعي العام في بغداد معلومات تحدثت عن قيام شرطة الوزارة باعتقال المواطنين اعتباطياً دون أوامر توقيف، ومن دون تعبئة البلاغات اللازمة. ووجدت القوات الأميركية مئات المواطنين الموقوفين في سجون الوزارة ومعظمهم من السنّة ويحملون أثراً بالغة تؤكد تعرضهم للتعذيب. وعرضت محطات التلفزيون العراقي مشاهد إطلاق السجناء من خلايا التعذيب في مواكب شعبية قال خلالها المسجونون أمام الكاميرات: إن موظفين في الوزارة مارسوا التعذيب ضدهم. وقامت القيامة ضد هذا الفلتان في وزارة الداخلية وطالب زعماء السنّة برحيل صولاغ. أحد البرلمانيين الذي شغل منصب وزير

للدخالية في حكومة إياد علاوي كشف للإعلام العراقي أن كاتبة تابعة لوزارة الداخلية، ككتيبة الذئب والبركان والصقر وكتيبة النهريين مسؤولة عن نشر الفوضى والرعب في العاصمة، وهي تعمل لحساب منظمة بدر وإيران.

وعندما قمت بصحبة مايك فون شولنبرغ؛ والمسؤول عن قسم حقوق الإنسان جيانني ماغازيني بزيارة الوزير بيان جبر صولاغ في مكتبه لفتتنا مظاهر الترف التي كان يحيط نفسه بها. الأرضية الرخامية تعكس ظلالنا كالمرايا على الأرض؛ وثريرات الكريستال تتلألأ وتشر تألُقاً ولمعاناً على المساحة النظيفة الغارقة بنور شمس بغداد.

وعلى الحائط خلفنا علقت خارطة كبيرة للعراق مفصّلة منطقة منطقة ومدينة مدينة وقرية قرية. وتقدم صولاغ صوبنا مرحباً. كان قصير القامة، نحيلاً، يرتدي بذلة باهظة الثمن وكأنه أتى بها للتو من واجهات كريستيان ديور.

وراح الوزير يتحدث عن سنوات إقامته في لبنان؛ ويستفيض في التفاصيل عن صداقاته مع اللبنانيين فيما جلس الزملاء ينتظرون انتهاء الوزير من رواية مغامراته في بيروت.

وأعرب ممثلاً الأمم المتحدة عن قلق المنظمة للتقارير التي تتناول انتهاكات فاضحة ضد حقوق الإنسان قامت بها قوات من وزارة الداخلية ووزارة الدفاع. وكررا أن الأمم المتحدة طالبت في

أكثر من مناسبة بالسماح لزملاء من قسم حقوق الإنسان للدخول إلى سجون التوقيف. فالمعلومات المتوافرة تتحدث عن أن 80 بالمئة من الموقوفين أبرياء والأمم المتحدة تريد أن تتحقق من ذلك.

وقال صولاغ إنه ليس مسؤولاً عن هذه الانتهاكات؛ معتبراً أن قوات الداخلية تحتاج إلى تدريبات حول حقوق الإنسان وكيفية التعامل مع المواطنين.

- ليس سهلاً التعامل مع المتمردين؛ أضاف الوزير. فهم على قدر كبير من الجهوزية والتنظيم. والسنة والصداميون يجهدون لتغيير التوازن الديموغرافي في بغداد، بدعم من ضباط في جيش صدام.

- لماذا فشلت في جذب السنة إلى فرق الشرطة في وزارة الداخلية؟ سأل جيانى.

- نواجه مشكلة حقيقية في تجنيد السنة؛ هناك فقط 3000 عنصر جديد من الإخوان السنة في الشرطة.

- ربما لأن الوزارة في عهدك اقترفت أخطاء كثيرة؟ قال جيانى.

- المشكلات في البصرة من فعل البريطانيين. جندوا 13 ألف شخص؛ 2000 منهم لا يحسنون القراءة والكتابة. في البصرة لم يكن للوزارة رأي في توظيف شخص واحد. العمل في هذه الوزارة متعب جداً. أتمنى أن أترك وجع الرأس هذا إلى وظيفة أكثر هدوءاً.

- ماذا هناك في الأفق؟ هل وعدوك بشيء؛ تساءل فون شولنبرغ.

- لا يزال الموضوع في مرحلة التفاوض. وهناك عدة اقتراحات منها المالية، لو سارت الأمور على ما يرام في الانتخابات المقبلة. فوجئت واحمررت وجنتاي. وفي طريق الخروج لم أرغب في مصافحة الوزير لكن لم يكن بالإمكان تجاوز أدبيات الدبلوماسية بوجود فون شولنبرغ إلى جانبي. وما إن استقلنا سيارتنا حتى قال بسخرية: إن السياسيين هنا يأكلون الحصرم والمواطنين يضرسون.

- كما تعامل مع أمن العراقيين سيقوم بإدارة أموالهم؛ قلت. في أية دولة أخرى تحترم نفسها يُحال مسؤول بمكاتبته إلى المحاكمة؛ لكن هنا يوكل إليه بوزارة أكبر شأنًا. هل هذه دولة القانون أم جمهورية الموز؟

المذهبية المميّنة لم تقتصر مفاعيلها على وزارة الداخلية. فالأحزاب الطائفية نشرت ثقافتها في الوزارات التي باتت امتداداً أيديولوجياً لها وللوزراء الذين كانوا يديرونها.

فوزارتنا الصحة العامة والنقل اللتان كانتا من نصيب تيار الصدر شهدتا تغييراً جذرياً لطاغم الموظفين فيهما وفي إجراءات التوظيف. إذ تمت إقالة كل الموظفين السنّة وجرى ملء الوظائف الشاغرة بموظفين تابعين لتيار الصدر. ولم يلحظ في دفتر شروط الوظيفة ميزات شخصية وخبرات عملية أو شهادات أكاديمية. فكان الرقيب الأول مثلاً يُعين مديراً. فالمعيار الأهم هو الانتماء الطائفي والعلاقات العائلية مع

الوزير المختص. وقد عُين رجل دين في هاتين الوزارتين لمراقبة تطبيق هذه المعايير بدقة.

ومحاربة الأقارب لم تقتصر على الإدارات التابعة لتيار الصدر؛ بل كانت منتشرة في كل الوزارات والإدارات دون استثناء. ففي الوزارات التي كانت تسيطر عليها الأحزاب الكردية كان السؤال الأول الذي يواجه طالب العمل: هل أنت عربي أم كردي؟ وغني عن القول إن كل الوظائف كان يشغلها موظفون أكراد.

أما وزارة الدفاع؛ وهي الوزارة الوحيدة التي سيطر عليها السنة بعد انتخابات كانون الثاني/يناير؛ فلم تكن في حال أفضل؛ حيث انتشرت المذهبية بين قوات الجيش وظهر الانقسام جلياً بين الفيالق. وكان ذلك موضع تدمر الأميركيين الذين كانوا يقومون بتدريب القوات المسلحة العراقية؛ إذ كانوا يرددون في اللقاءات الأسبوعية بيننا أن الانتماءات الطائفية والمناطقية أو العشائرية كانت أكثر أهمية للجنود من الهوية الوطنية. واعترف الأميركيون أن صهر رجال من مختلف الانتماءات في بوتقة واحدة وحملهم على العمل معاً بعيداً عن الانتماءات الإثنية والمذهبية كان هدفاً صعب البلوغ. وكان الغياب السنّي عن المؤسسة العسكرية واضحاً واقتصرت نسبته على 7 بالمئة. وعندما كانت وحدات كردية أو شيعية ترسل مثلاً إلى المناطق السنيّة لقمع التمرد والفوضى، كان الجنود يقومون بإثارة حفيظة السكان والتعامل معهم بقسوة مما يفقد الأهالي ثقتهم بالمؤسسة العسكرية.

حصل هذا مرات ومرات في الموصل والفلوجة وتلعفر والرمادي، حتى إن أهالي الرمادي طلبوا في إحدى المناسبات من وزير الدفاع أن يستبدل الوحدة السابعة الشيعية في معظمها، والمتمركزة في المدينة بوحدة عسكرية من أبناء المدينة باعتبار أن الجنود الشيعة يستفزون الأهالي بالترويج للاتلاف الشيعي.

وللاطلاع على أوضاع الجيش قمت بصحبة فون شولنبرغ؛ وكنت يومها أعمل في قسم الشؤون السياسية، بالاجتماع مع مستشار وزارة الدفاع عمار الهاشمي - شقيق طارق الهاشمي. واتهم عمار سوريا وإيران بزرع الفوضى في العراق، معترفاً بوجود انشقاقات مذهبية وإثنية بين القوات المسلحة.

- يلزمننا بعض الوقت، ربما سنوات للتخلص من هذه الآفة؛ قال. وأعرب عمار عن ارتياحه من الشيعة معتبراً أنهم يمارسون التقية. وشرح لنا أن التقية عادة مارستها الطائفة الشيعية منذ القدم؛ وتقوم على إخفاء الشيعي لأرائه عن الناس كأن يقول شيئاً مثلاً بينما يعني شيئاً آخر مختلفاً تماماً. هذا التقليد تم تعميمه خلال قرون طويلة من الظلم والتعسف ضدهم.

- لا نثق بهم بسبب ممارستهم للتقية. لا نعرف ماذا يضمرون لنا أو للعراق. هم يريدون الآن ترحيلنا عن بغداد. يا ليتهم لا يسمعون لإيران ولا ينفذون ما تريده، قال عمار الهاشمي.

كان هذا آخر لقاء جمعنا به عمار الهاشمي! فبعد أسبوع تماماً اغتيل في تفجير استهدفه شخصياً. وكان ثالث الأخوة الذين فقدهم الزعيم السني طارق الهاشمي الذي عين لاحقاً نائباً لرئيس الجمهورية. وهكذا، ساد الشك بين أطراف الشعب العراقي والطبقة الحاكمة. وصارت السياسة ملعباً للثأر من ظلم التاريخ. والسلطة أداة لاستعادة الحقوق المهذورة منذ آلاف السنين.

في هذه الأجواء من الخوف المتبادل والتشكيك والثأر وفتان الأمن واستشرء العنف؛ ذهب العراقيون في نهاية عام 2005 إلى الانتخابات لتفويض 275 نائباً بتمثيلهم في البرلمان لمدة أربع سنوات، ليتم بناء على نتائجها تشكيل أول حكومة دستورية في العراق.

## نحو صناديق الاقتراع

تجمعنا حول سرمد لنرى الصورة التي التقطها بتلفونه الجوال لمركبة وضع سائقها لافتة إعلانية على الجزء الخلفي منها؛ يظهر فيها إياد علاوي وجملة كتبها باليد تقول: «لو سمحتم لا تضعوا موادكم المتفجرة بالقرب مني».

- صورة جميلة ورسالة تحمل تأويلات كثيرة؛ قلت.

وضحكنا للحس الكوميدي الذي تحويه المقارنة بين تبجح علاوي ومواقفه الطنانة، والمتفجرات التي يرتجف لها الناس رعباً.

- الحملة الانتخابية لم تبدأ بعد. هذا أول الغيث، الدعاية الانتخابية

ستحول بغداد إلى غابة من اللافتات؛ قال سرمد.

- وهل تؤثر هذه اللافتات في خيارات العراقيين ومن سينتخبون؟

- ليس كثيراً؛ أجب عصام. السياسة والدين متشابكان هنا بحيث

يعرف كل منا لمن سيعطي صوته.

- ولمن ستصوت أنت؟

- للائتلاف الشيعي طبعاً

سرمد وعلي أوماً برأسيهما إيجاباً، وأدركت ما ستؤول إليه نتائج



هذه الانتخابات بعد شهر تقريباً. ولم أجرؤ على سؤال شروق لعدم إخراجها في حضور الزملاء باعتبار أن خياراتها السياسية كانت تختلف تماماً عن خياراتهم.

وتسارعت الوتيرة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، فامتألت حيطان الشوارع وشاشات التلفزيون بالدعايات الانتخابية والنقاشات والتحليل السياسي مع خبراء في السياسة العراقية. فالعنف المستشري على الطرقات منع الناخبين من التجمع حول المرشحين في الساحات العامة وفي مقرات الأحزاب أو في المقاهي للحديث والنقاش. فقبل حظر التجوال بساعات كان الناس يسرعون إلى بيوتهم تاركين خلفهم شوارع بغداد ولافتاتها الانتخابية تتشاءب مللاً.

في هذا الوقت، كانت الجمعية الوطنية صوتت على قانون انتخابي جديد يعتمد النسبية في محافظات العراق الثماني عشرة. وشيئاً فشيئاً غطت اللافتات الانتخابية المنطقة الخضراء أيضاً: الائتلاف الشيعي المؤلف من نحو 18 حزباً شيعياً في طليعته المجلس الشيعي الأعلى للثورة الإسلامية كان يحمل رقم 555؛ والتحالف الكردي رقم 730؛ أما 618 فقد نسب إلى تكتل التوافق السنّي؛ و731 إلى تكتل علاوي المؤلف من أحزاب علمانية صغيرة.

الائتلاف الشيعي حصل على أكبر مساحة إعلامية في العراق. ترأس اللائحة عبد العزيز الحكيم؛ وكان يتمتع ببركة آية الله علي السيستاني الذي يعتبر أكبر مرجعية دينية لشيعة العراق والعالم العربي.

ولم يكن السيستاني يعلن صراحةً عن المرشحين المفضلين لديه لكن رسائله الموجهة إلى الناخبين الشيعة قبيل الانتخابات عن ضرورة التزام الوحدة ورض الصفوف فُسرت من قبل كثيرين على أنها دعوة للناخبين للتصويت للاتلاف الشيعي.

وفي تكتيك ربع الساعة الأخير اضطر أحمد الشلبي إلى ترك 555 لصالح مقتدى الصدر الذي كان يملك قاعدة شعبية واسعة يحسد عليها في مدينة الصدر في بغداد؛ في حين أن أحمد الشلبي افتقد إلى دائرة انتخابية يعتمد عليها بعدما أفل نجمه وتداعت شعبيته. ورغم المنافسة القديمة بين الحكيم والصدر والاختلافات الواسعة في الأجندة السياسية للحزبين اختار الصدر أن يلتحق باللائحة 555 لأسباب تكتيكية.

والخمسات الثلاث 555 روجت لعراق موحد، فدرالي وديمقراطي ولدستور يكون فيه الإسلام دين الدولة الرسمي. رئيس اللائحة المتغطرس عبد العزيز الحكيم اقترح في أكثر من مناسبة أن يرسل قوات بدر لتأمين صناديق الاقتراع وحماية سلامة الناخبين. وكنا نداول هذه المقترحات كنكات عراقية مضحكة؛ وذلك أن التجارب السابقة لقوات بدر لم تكن مطمئنة حيث لجأت إلى العنف والتهديد لحمل الناخبين على الإدلاء بأصواتهم لصالح الائتلاف الشيعي في انتخابات كانون الثاني/يناير الماضي.

تكتل علاوي نال هو الآخر نصيبه من المساحة الإعلامية.

فملصقاته عرضت صفية السهيل على الطرف الأول وعلاوي على الطرف الثاني، وما بينهما شعار «قيادة قوية...أمة آمنة». وكان علاوي يبدو في هذه الملصقات كنجم سياسي إذ كان يتمتع بجاذبية ندر وجودها بين طبقة السياسيين العراقيين المعاصرين.

كان علاوي يشغل منصب رئيس الوزراء في حكومة انتقالية سابقة، ويحوز على دعم الأميركيين ودعم القادة العرب الذين ظهرت تبرعاتهم السخية له واضحة جلية في الإعلانات الانتخابية على القنوات العربية.

وتركزت حملته على أهمية الوحدة الوطنية؛ ودحض كل أشكال التمييز الإثني والديني والسياسي. ولما كان علاوي من الذين انتقدوا قرار بول بريمر باجتثاث البعث فقد كانت لائحته تتضمن مرشحين بعثيين الأمر الذي لم يعجب جمهور الناخبين.

عمل إياد علاوي لتكريس نفسه كأحد رموز الوطنية والعلمانية، وكقائد قوي قادر على انتشال العراق من حرب أهلية متوقعة. كان محبوباً من الطبقة الوسطى في بغداد وبعض عائلات البصرة الذين رأوا فيه أملاً بمستقبل علماني للعراق بعيداً عن المذهبية والتطرف بكل أشكاله.

الحملة الانتخابية الأصبغ كانت من نصيب الفريق السني. فمند تشكيل جبهة التوافق العراقي وهي تكتل من الأحزاب السنية الكبرى، تعرض المرشحون السنة، الواحد تلو الآخر للاغتيال. ففي مراسم دفن

الشيخ إياد عزي الذي قتل على يد مجهولين أثناء حملته الانتخابية كتب المحزونون لافتات: «أعداء السنّة هم أعداء الله».

الأيام القليلة التي سبقت الانتخابات كانت الأكثر خطراً على المرشحين السنّة. وكشف الحزب الإسلامي أن عشرة مرشحين على الأقل قد اغتيلوا منذ قيام جبهة التوافق العراقي؛ وأن رئيس الحزب طارق الهاشمي قد تلقى رسائل تهديد بالعشرات.

وفي الرمادي، عاصمة الأنبار، تم الاعتداء على أحد المحازبين في الحزب الإسلامي بعدما قام بتمزيق الملصقات التي وضعها شبان القاعدة على جدران المسجد وسط المدينة. وجرى الاقتصاص من المحازب الإسلامي بجرّه على الأرض مربوطاً بصندوق سيارة أمام أعين السكان. وفي اليوم التالي وجد عضو الحزب الإسلامي مقتولاً. أهل العراق، وهي أحد مكونات جبهة التوافق السنية، لعبت أيضاً دوراً في نشر برنامجها الانتخابي في المساجد. وطلب رئيسها عدنان الدليمي من الأئمة والشيوخ إقناع المصلين بالتصويت للجبهة.

- تصويت المؤمنين سيساعدنا على مواجهة أساليب التوقيف التي يستعملها الشيعة ضد إخواننا؛ والقضاء على اجتثاث البعث من الحكومة؛ قال الدليمي.

أما أخطر المهمات فقام بها الشبان اليافعون الذين كانوا يقصدون المناطق المختلطة ويرفون الملصقات الخاصة بالمرشحين السنّة. وهذه المهمات كانت تودي بحياتهم أحياناً.

-إني أقوم بهذا لأنه حان الوقت للتخلص من الاستبداد الشيعي. نحن لا نستسيع المذهبية التي يروج لها المجلس الأعلى للثورة في بلدنا، قال شاب سني تطوع للعمل في الحملة الانتخابية. في الأيام الأخيرة التي سبقت الانتخابات وصلت بطاقات الاقتراع من سويسرا. وعندما أنهى الزملاء عملية توزيعها على الناخبين تنفسوا الصعداء ودعوا بعضهم الآخر للاحتفال بشرب البيرة. وأصدرت الأمم المتحدة بياناً صحفياً أعرب فيه السفير قاضي عن دعمه الكامل لعملية انتخابية خالية من الشوائب؛ تستجيب لأمني كل أطراف المجتمع العراقي. وحث السفير قاضي كل الأطراف على الامتناع عن اللجوء إلى التهديد والضغط، واستعمال أساليب تبعد الناخبين عن صناديق الاقتراع.

وفي يوم الانتخابات نشرت Wall Street Journal مقالاً بقلم السفير الأميركي زلماي خليل زاد تمنى فيه أن تفرز الانتخابات برلماناً أكثر تمثيلاً من سابقه؛ برلماناً يقوم بمراجعة حقيقية للدستور الجديد بحيث يمكن تحويله إلى وثيقة اتفاق وطني.

لم تختلف نتائج الانتخابات كثيراً عن سابقتها: فالتكتل الكردي حصل على 53 مقعداً في البرلمان. والاتلاف الشيعي المكوّن من المجلس الأعلى للثورة، والدعوة وتيار الصدر نال 128 مقعداً. أما لائحة إياد علاوي فتراجعت إلى 25 مقعداً مما أضعف من فاعليتها حتى كطرف في المعارضة.

الإمام السني أحمد عبد الغفور شارك في برنامج تلفزيوني كشف فيه أن الأحزاب السنيّة هي الأخرى طلبت من أئمة المساجد حت المصلين على التصويت لها لتفادي التهميش. والجمهور السني كان يملك هذه المرة أكثر من خيار: إما جبهة التوافق العراقي المؤلفة من أهل العراق برئاسة عدنان الدليمي والحزب الإسلامي برئاسة طارق الهاشمي ومجلس الحوار الوطني برئاسة خلف العليان، وإما جبهة الحوار الوطني برئاسة صالح المطلق. ونالت الأولى 44 مقعداً والثانية 11 مقعداً.

وكان المتمردون قد أعلنوا في الأيام القليلة التي سبقت الانتخابات قرارهم بعدم التعرض لصناديق الاقتراع، الأمر الذي شجع الناخبين على المشاركة القوية في التصويت. فالعرب السنّة كانوا يأملون بأن تمنحهم النتائج نفوذاً لفرض أجندتهم السياسية في عملية مراجعة الدستور المرتقبة. ووعدوا المتمردين بأن تعكس نسبة التمثيل في البرلمان الجديد حجمهم السكاني «أي حوالي 50 بالمئة» كما كانوا يدّعون. لكن النتائج لم تأت كما اشتهى الزعماء السنّة.

- ماذا سأقول الآن للمتمردين؟ كيف سأفي بوعدني لهم؟ وقف الدليمي في باحة مركز المؤتمرات يصرخ بأعلى صوته يائساً أمام الجموع.

أما التركمان السنّة فصوّتوا لجبهة العراق التركمانية التي حصلت على مقعد واحد في البرلمان؛ فيما صوّت الشيعة منهم للاتلاف

الشيوعي الذي ضم عدداً من المرشحين التركمان على لوائحه. وعكست الانتخابات للأسف الهويات الطائفية والإثنية للاعبين السياسيين. وغابت مفاهيم كالديمقراطية والمصالح الوطنية عن الرطانة الانتخابية واستبدلت بمفاهيم كالنفوذ والثروة والهوية بين المكونات الثلاثة الكبرى: السنة والشيعة والکرد.

الفائز الكبير في الانتخابات؛ رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية عبد العزيز الحكيم أعلن بعد تأكيد نتائج الانتخابات من قبل الهيئة العليا للانتخابات أن لا تغييرات كبيرة متوقعة في الدستور. - سنقف بوجه كائن من كان. سمنع من يحاول تعديل الدستور؛ وسنشكل فيدرالية في الجنوب كما أراد ناخبونا وتمنوا.

لائحة علاوي افتتحت البازار باتهام الائتلاف الشيوعي بالغش وتحدث أعضاؤها في الإعلام عن قيام الائتلاف بشراء الأصوات واللجوء إلى التهديد والعنف ضد الناخبين. والأحزاب السنية لحقت بالركب وطالبت بمراقبين دوليين لمراقبة نتائج الانتخابات والانتهاكات بالغش، وإلا فإن السنة سيقاطعون جلسات البرلمان.

وفيما وصفت شخصيات محايدة النتائج بالكارثية؛ فقد انصرف السفير قاضي إلى كيل الإطراء والمديح للطريقة التي تمت فيها الانتخابات.

السفير الأميركي خليل زاد كتب مقالاً آخر في الصحافة الأميركية لخص فيه المشكلة الانتخابية: «يبدو أن العراقيين اختاروا أن يصوتوا تبعاً لانتماءاتهم الإثنية والطائفية. ولكن لو أردنا للعراق أن يعيش

فيجب أن ندعم قيام حكومة وحدة وطنية تنكب على مراجعة دستورية ترضي كل الأطراف ليصبح الدستور اتفاقاً وطنياً كما كان يراد له أن يكون».

ونتيجة للسرعة القياسية التي فرضتها الولايات المتحدة على صياغة الدستور وتنظيم الاستفتاء ومن ثم الانتخابات التشريعية، جاءت نتائج هذه العمليات مناقضة تماماً للمرتجى.

وهكذا تم استبدال طغيان صدام حسين بحكم ديني تيوقراطي بقيادة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية. وقد يتذكر العراقيون طويلاً أنه قُيِّض لهم عام 2005 أن يذهبوا للمرة الأولى إلى الانتخابات. لكن كتب التاريخ ستذكر أيضاً أن هذا العام وضع الأسس لوطن ممزق الأشلاء.

تظاهرات كبرى ضد نتائج الانتخابات عمّت البلاد.

تكثفت هذه التظاهرات بعد صلاة الجمعة بمشاركة أعداد كبيرة من المصلين. وصرخ المتظاهرون بأعلى أصواتهم رافضين التلاعب والغش اللذين جاءا بالشيعة إلى الحكم. وعاد العنف يلف شوارع العاصمة والمدن الأخرى بعد توقف مؤقت بسبب الانتخابات. فعادت إلى الواجهة سيارات متفجرة ضد أهداف أميركية؛ واغتيالات وعمليات قتل طاولت طلاباً سنة؛ واتهامات بضلوع الائتلاف الشيعي في هذه الجرائم. وعمت الفوضى مجدداً الشوارع في طول البلاد وعرضها.



وبناء على نصيحة من الأمم المتحدة قامت الهيئة العليا المستقلة للانتخابات بدعوة مراقبين دوليين للتدقيق في اتهامات الغش. وقررت البعثة الدولية للانتخابات العراقية والتي تتخذ من كندا مقراً لها أن تستجيب لهذه الدعوة.

وعمل الخبراء لعشرين يوماً وحرروا تقريراً جاء فيه: إن الهيئة العليا المستقلة للانتخابات العراقية قد قامت بما يتوجب عليها كإلغاء أصوات في 227 مركزاً انتخابياً من أصل 30 ألفاً تم التشكيك بنزاهتها. كما قامت الهيئة أيضاً بفصل موظفين متورطين بمخالفات، لكن الهيئة لا تملك الطاقة البشرية أو التقنية الكافية للتعامل مع كل الشكاوى التي وصلتها لا سيما وأنها بلغت الآلاف. وخلص التقرير إلى أن المراقبين المحليين المنتشرين في المحافظات والبالغ عددهم 120 ألفاً كانوا يحتاجون إلى دعم خبراء دوليين.

في خضم كل هذه البلبلة دعتنا صفية وبختيار أمين إلى حفل عشاء في منزلهما الكائن في ضاحية من ضواحي المنطقة الخضراء. وقادنا السائق على طرقات ملتوية تكدست على جوانبها أكياس الرمل والباطون وفتها أسلاك شائكة. كان الطريق صعب المسالك في بعض أجزائه وكأن طبقة الإسفلت فوقه قد تلاشت من شدة الحر، أو تحت وطأة المصفحات العسكرية التي كانت تجوب هذه الطرقات بحرية.

وفي السيارة المضادة للرصاصة التي كنت أستقلها، بصحبة السفير قاضي وكيش بانجار، شعرت وكأنني في طريقي إلى حفل راقص في قاعدة عسكرية.

الأضواء المشعة من بيت صفية وحديقتهما أضفت جواً من التفاؤل.

وكانت صفية سعيدة وتطفح حبوراً. ووقفت مع زوجها بختيار يرحبان بنا. ولم يكن صعباً التنبؤ بالسبب.

- مبروك الفوز بالمقعد البرلماني، قلت لها. برافو! لقد حققت ما وعدت نفسك به.

- لقد حققت ما أردت. الآن بدأ الجد.

وكانت صفية قد دعت إلى حفلها الظريف سفراء وديبلوماسيين في السفارات الأجنبية، وزملاء لها في لائحة علاوي وأعضاء في منظمات دولية عاملة في بغداد.

وملأ الضيوف غرف الصالون العديدة؛ وفي إحداها جلس الوزير السابق مهدي الحافظ ووزير الداخلية السابق فالح النقيب بصحبة إياد علاوي الذي بدا مهموماً وعلامات خيبة الأمل بادية على وجهه.

- مبروك نتيجة الانتخابات، قلت له وأنا أصفحه.

وارتد بظهره إلى الوراء متفاجئاً، أو ربما أيضاً منزعجاً وتمتم بصوت غير مسموع شيئاً ما يشبه الشكر. وشعرت للتو أنني اقترفت خطأ بروتوكولياً.

- هل أنت لبنانية؟

- من مواليد لبنان لكنني لا أعيش في البلد منذ وقت طويل.

- ماذا يحدث هناك الآن؟ الأمور ليست على ما يرام.

- بعد اغتيال رفيق الحريري ساءت الحال كثيراً. فالاغتيالات

السياسية المتعاقبة تسبب عدم الاستقرار في البلاد.

هز برأسه علامة الموافقة.

وفوجئت بالشبه الخارجي بين علاوي والحريري.

فالرجلان يتمتعان بجاذبية كبيرة رغم سماتهما الخشنة بعض

الشيء ويملكان المال والنفوذ وشبكة علاقات يحسدهما عليها

قادة أوروبيون كثيرون. عاش الإثنان سنوات طويلة خارج بلديهما،

وقدرهما المشترك أن يكونا محبوبين جداً من أتباعهما ومكروهين

جداً من أخصامهما. فالرمادي لم يكن خياراً في علاقاتهما مع العالم

والآخرين.

وكان الرجلان صديقين أيضاً.

فعلاوي المتردد دوماً إلى لبنان لزيارة أقاربه لجهة أمه كانت

تربطه علاقات جيدة مع غالبية رجالات السياسة في لبنان؛ والحريري

كان أقواهم وأثراهم على الإطلاق. كان يرسل لعلاوي طائرته الخاصة

ليقله إلى حيث كان موجوداً: جنيف أو باريس أو بيروت حيث يتبادلان

الحديث عن السيناريوات المحتملة لأوضاع المنطقة.

وكان الحريري قد بدأ يدرك مفاعيل الاحتلال السوري على

لبنان وعلى طموحاته الشخصية؛ وانصرف يبحث عن وسائل لطرده السوريين من لبنان. ولم لا يكون العراق الذي عانى ويعاني الولايات من دعم سوريا للإرهابيين المتسللين عبر أراضيه حليفاً متعاطفاً مع لبنان في هذا الملف؟

وانتقل السفراء المدعوون إلى حيث جلس إياد علاوي ورفاقه.

السفير قاضي تبادل أطراف الحديث مع الوزراء السابقين في

تقويم لنتائج الانتخابات على المشهد السياسي العراقي في الأيام

والأسابيع المقبلة. وانضم السفير الدانماركي إلى الموجودين وراح

يتكلم بصوت مرتفع؛ ومن دون تركيز؛ كأنه قد بالغ قليلاً في معايرة

الخمرة. ثم دخل السفير الأميركي خليل زاد محدثاً جلبة؛ وهبّ

الجميع إلى مصافحته وكأنه آخر قياصرة الرومان.

صفية دعت الحاضرين إلى المائدة المفتوحة في الصالة المجاورة

التي امتلأت بأصناف الطعام اللبناني والعراقي والبقلاوة اللذيذة

بالفستق والعسل. وقدم رجل باللباس التقليدي القهوة المرة بفناجين

صغيرة، ودار على المدعوين أكثر من مرة إلى أن اكتفى الجميع.

علاوي وخليل زاد وقاضي جلسوا جنباً إلى جنب بشكل دائري

وبدوا منشغلين بحديث عميق.

كنت على مسافة ذراع من الرجال الثلاثة وأتابع الحديث الدائر

بينهم. خليل زاد بدا واثقاً وقال:

- قلت للسنة عندما وصلت إلى بغداد إن مقاطعة الانتخابات لا تفيد بشيء. لكن لست متأكداً إذا كانت النصيحة قد جاءت متأخرة. كان يجب عليهم القفز إلى أول قطار وعدم تفويت الفرص.

- ماذا سنفعل الآن بهذه النتائج؟ في أي اتجاه سنذهب نحن والبلد؟ سأل علاوي.

وانخفضت الأصوات بشكل ملحوظ وراح بعض المدعوين يمدون أعناقهم إلى الأمام في محاولة لالتقاط بعض نبذات الحديث.

- سوف تحاول بقوة الانضمام إلى الحكومة، أجاب خليل زاد، وأقوم أنا بإقناع السنة أيضاً. من المهم أن نشكل حكومة وحدة وطنية وممثلة لكل الأطياف في المجتمع لا سيما وأنا مقبلون على عملية مراجعة للدستور.

وتباطأت وتيرة الحديث؛ وانخفضت أصوات الرجال الثلاثة وصاروا يتكلمون همساً. رأيت القائم بأعمال السفارة الكندية يتقدم في اتجاه مقعدي وينحني إلى الأمام. نظرت إليه متسائلة.

- أحاول أن أسترق السمع إلى ما يقولون؛ همس في أذني.

- أنا أيضاً؛ أجب همساً وابتسامة واسعة ترسم على شفتي.

## محاكمة صدام

يوم 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 2005 بكى العراقيون كما لم يفعلوا من قبل. بعضهم بكى فرحاً والبعض الآخر حزناً.

الديكتاتور صدام حسين، الذي يرتجف العراقيون لمجرد سماع اسمه، وقف للمرة الأولى أمام القضاء لمحاكمته بتهمة قتل 148 شيعياً في قرية الدجيل في الثمانينيات من القرن الماضي. أجهزة التلفزيون كانت كلها في حالة تشغيل؛ وكل القنوات العراقية علقت برامجها لتبث سير المحاكمات.

لم تخل الأجواء في بغداد من تشنج. وتوقعنا أن تعلن الحكومة حظراً للتجوال لتجنب حوادث عنف قد يتسبب بها الصداميون؛ لكن المسؤولين اعتبروا أن محاكمة صدام لا تختلف عن محاكمة أي مجرم عادي آخر.

وكان قد تم تأجيل المحاكمة من 19 تشرين الأول/أكتوبر بعدما أبدى الشهود تحفظات على الإدلاء بشهاداتهم أمام كاميرات التلفزيون. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر، جلس الشهود وراء ستائر، كما

أن الكاميرات سلطت عدستها على رئيس القضاة. أما القضاة الأربعة الآخرون فقد تمّ التعتيم على هوياتهم لحمايتهم من الاغتيال. وأخيراً دخل صدام قاعة المحكمة!  
كان الأخير في مجموعة من سبعة أشخاص اتهموا أيضاً في قضية الدجيل.

ونزل على المكان صمت رهيب. الحقد زحف صوبه من كل زاوية في القاعة. ثم صرخ أحد الحاضرين: «أيها الوغد». وانهالت عليه الشتائم والسباب: «اللعة على أمك». وعندما سُمح له بالكلام اشتكى من الحراس الأميركيين وطلب من القاضي أن يأمرهم بمعاملته معاملة حسنة:  
- هؤلاء الحراس محتلون لبلادي. لا حاجة لأن تكون لطيفاً معهم؛ قال صدام لرئيس القضاة في الجلسة.

وهكذا مرت سنة كاملة من الدراما والمشهدية في قاعة المحكمة. براكين من الغضب وخطب سياسية ومقاطعة وإضراب عن الطعام ومرافعات عن إبادات جماعية. ولعب صدام دور البطولة ونجح في التعتيم على شهادات الشهود عن الموت والتعذيب اللذين اقترفهما بحق مواطنيه؛ محوّلاً المحاكمة إلى سيرك.

أيام المحاكمات كانت قليلة الإنتاج والفاعلية في المكتب. فالزملاء العراقيون من مختلف الأقسام كانوا يتجمعون حول جهاز التلفزيون في مكثبي ويلعنون الأميركيين مرة ومرة صدام...

ويسخرون ويضحكون. فالديكتاتور الذي حكمهم على مدى عقود بدأ فجأة هشاً، ضعيفاً كأبي مخلوق آخر. وبعضهم كان يعتبر صدام مجرماً وبعضهم رمزاً لكبرياء العراق.

- كان يقوم بزيارة العائلات الفقيرة عندما يمر بالمناطق النائية. يدخل مطابخهم ويأكل من طعامهم ثم يرسل لهم ما يحتاجونه من مواد غذائية؛ قالت رنا التي تعمل في قسم حقوق الإنسان.

- كان رجلاً صالحاً؛ هتفت شروق. اللعنة على الولايات المتحدة!

- كان ذلك في البداية عندما كان لا يزال شاباً ويحتاج إلى حب وولاء العراقيين. لقد تغير كثيراً مع تقدمه في السن؛ أضاف علي.

- أحبيناه في السبعينيات وتحملناه في الثمانينيات عندما جرّنا إلى حروب ليس لنا فيها؛ وكرهناه في التسعينيات عندما فرغت جيوبنا. هذه هي الحال بيننا وبين صدام؛ قال سرمد ملخصاً ثلاثة عقود من الزمن من حكم صدام حسين.

مقاضاة صدام و 11 شخصاً من معاونيه كانت قد تمت تجزئتها إلى عدة قضايا. والأولى في سلسلة طويلة كانت قضية الدجيل. ويرجح أن المدعي العام رغب في افتتاح المحاكمة بقضية سهلة؛ تتوافر فيها أدلة عملانية تحدد مسؤولية صدام حسين المباشرة.

والدجيل بلدة شيعية تقع إلى الشمال من بغداد؛ أُطلق منها النار على موكب الرئيس العراقي عند مروره بالبلدة عام 1982.



في ذلك الوقت كان العراق في حرب مع إيران؛ فرجح صدام أن الاعتداء عليه مؤامرة إيرانية. وبناء على أوامره تم يومها اعتقال 1500 شخص وجرى تهديم القرية على رؤوس أبنائها. ولاحقاً شنت 148 رجلاً وصبياً دون محاكمة.

ومع ذلك، فقد تخلل البداية بعض الذبذبات. وكلاء الدفاع طلبوا مهلة لم يوافق عليها القاضي وتدمروا من استلامهم ملف القضية المؤلف من 1200 صفحة مليئة بالأدلة والمعلومات قبل 45 يوماً فقط من بدء المحاكمة؛ وأنه لم يتسن لهم التحضير لمطالعاتهم جيداً.

ثم اغتيل اثنان من وكلاء الدفاع قبل بدء المحاكمات؛ وجرى محاولتا قتل آخرين وهجمات انتحارية فاشلة ضد الآخرين في الفريق أثناء سير المحاكمات وأعطوا فرصة أسبوع واحد لاستبدال الزملاء المغدور بهم. وبغياب ضمانات أخرى تؤمن سلامة المحامين، فقد استسلم هؤلاء لقدرهم.

ورفض فريق الدفاع الاعتراف بشرعية المحكمة مذكراً أن معاهدة جنيف تمنع قوات الاحتلال من إقامة نظام قضائي في بلدان أخرى.

واستغل صدام اللهجة المهذبة للقضاة وتحدى سلطتهم في القاعة؛ وقاطع الشهود الذين رووا قصصاً مقززة عن ممارساته الوحشية؛ وحرّض العراقيين ضد المحتلين؛ وادعى أن المحكمة غير شرعية. وألقى خطاباً سياسية طويلة مدح فيها شجاعة العراقيين وكبرياءهم؛ ولعن جورج بوش والمحتلين الأميركيين.

- الموت للخونة! عاش شعب العراق! عاش العراق! كان صدام يردد بين الفينة والأخرى.

القضية الأخرى كانت تتعلق بالقضاة الذين تدخلت الحكومة في تسميتهم وإقالتهم بعشوائية.

فبعد ثلاثة أشهر من بدء المحاكمات قرر القاضي رزغار أمين أن يستقيل احتجاجاً على الانتقادات التي تناولته من قبل برلمانيين ووزراء قالوا تلميحاً إنه ليس كفواً للرئاسة محاكمات بهذا الحجم؛ والدليل أنه لم يتمكن من إسكات صدام. زملاؤه القضاة تحدثوا عن مفاوضات ستجري مع أمين لإقناعه بالبقاء في منصبه؛ وفي المساء تجمعوا حول طاولته في الرشيد لتناول العشاء معاً. ثم تناولوا الشاي وتحدثوا طويلاً قبل أن يصعدوا إلى غرفهم. القاضي أمين قرر الاستقالة.

- هو مصمم على ترك منصبه ويعتبر أن الانتقاد تجاه شخصه إنما هو هجوم على استقلالية المحكمة؛ قال لي زميله القاضي محمد العريبي صباح اليوم التالي.

- ومن سيحل محله؟

- سنرى... الأميركيون يسيطرون على العملية برمتها. سيقترحون اسماً عاجلاً أم آجلاً.

وأعلن خلال النهار اسم القاضي سعيد الهماشي خلفاً لأمين. رجل في منتصف العمر من بغداد ويسكن في الرشيد مع زوجته وثلاثة أولاد. كان يتناول وجباته في المطعم مع عائلته؛ ولم يكن يختلط مع

زملائه القضاة إلا نادراً. كان بشوشاً ومهذباً ومتديناً. لم تكن زوجته وابنتاه اليافعتان ليظهرن في صلاة الطعام إلا والحجاب قد غطى رؤوسهن والفساتين الطويلة تلمس الأرض ذهاباً وإياباً. وكانت العائلة تتبعه فيختار طاولة بعيدة عن الجموع ليجلس عليها الابن الأصغر والفتاتان، ثم يذهب إلى البوفيه الممدود في الطرف الآخر من الصالة ليملاً صحون العائلة بالطعام.

عشية تسميته رئيساً كان وجهه يطفح سعادة وحبوراً؛ وبدا متحمساً للعمل في القضية. توجهت إلى طاولة القاضي الهماشي؛ صافحت عائلته؛ وتمنيت له حظاً سعيداً.

في اليوم التالي؛ سُمعت احتجاجات من هيئة اجتثاث البعث تكشف أن الهماشي بعثي قديم ولا يجوز أن يرأس محاكمة صدام. فجرى خلال النهار نفسه نقل صلاحيات القاضي الهماشي إلى محكمة أخرى.

عندما دخل القاضي الهماشي المطعم مساءً كان صامتاً ومتجهماً. قصد البوفيه وراح يملأ الصحون بالطعام.  
- آسفة لما حصل؛ قلت له.

- لا بأس! هذه محاكمة خطيرة ويلفها جدل كثير. سأعمل في الظل في قضايا أخرى أكثر هدوءاً.

- ولكن ماذا تظن في القرار؟

- لا يجوز نقل القضية أو استبدالهم بهذه الطريقة كما لو كانوا

كراسي في الحديقة. قبلاً كان القاضي أمين والآن أنا. وهذا غير مقبول! أكيد أن هناك تدخلاً سياسياً في هذه الدعوى القضائية.

وترددت في أن أسأله عن ماضيه في حزب البعث. وبدا من خلال التزامه الصمت على قرار الهيئة أن علاقته بالبعث ليست مختلفة رغم عنصر المفاجأة الذي تضمنته! ربما لأنني كنت أتخيل البعثيين أقل لطفاً وأكثر قسوة من القاضي الهماشي؛ أو ربما أيضاً لكون تهمة البعث العراقي لم يكن رائجاً إلصاقها بشيوعي بغدادى.

زملاؤه القضاة في الرشيد لم يحركوا ساكناً؛ ولم يزعجهم قرار نقل زميل لهم من محكمة إلى أخرى خلال ساعات قليلة.  
- قرار النقل أفضل من قرار الطرد؛ هل أنا غلطان؟ تساءل القاضي العربي مستغرباً البلبلة المصطنعة حول قضية الهماشي.

لكن السفارة الأميركية احتجت لدى حكومة ابراهيم الجعفري على هستيريا الاتهامات يميناً ويساراً فيما خص علاقة الناس بحزب البعث. ولم يخف الأميركيون انزعاجهم من تدخل السياسيين العراقيين في مجريات محاكمة صدام. كان مؤلماً أن نسمع قادة يتناولون في أحاديثهم العامة كفاءة القضاة وشرعيتهم؛ ويصدرون أحكاماً جاهزة بحق الموقوفين. من بين هؤلاء رئيس الجمهورية جلال طالباني:

- صدام يستحق الإعدام. يستحق أن يشنق عشرين مرة في اليوم للجرائم التي اقترفها بحق شعبه؛ قال خلال سير المحاكمة.  
قانون محكمة صدام كان مزيجاً من القانون الدولي المعروف

والقانون العراقي الذي كان سائداً قبل وصول صدام حسين إلى الحكم. والقانون الجزائري العراقي المعمول به منذ عام 1971 قديم بالمقارنة مع القوانين الحديثة. ومن أهم عيوبه أنه لا يشترط أدلة دامغة للتورط بالجرم؛ فسهل إدانة المتهمين من دون جهد يذكر من المحكمة.

كردي آخر هو رؤوف رشيد عبدالرحمن خلف القاضي الهماشي. رجل في الستين ولكنه يبدو أكبر سناً؛ ربما لإصابة قديمة في الرجل أدت إلى العرج. كان لطيف المعشر خلال جلسات العشاء في الرشيد لكنه أظهر صلابة وقوة لافتة في قاعة المحكمة. خلال جلسة الاستماع الأولى قام بطرد اثنين من المدعى عليهم ووكيل دفاعهم. فريق الدفاع ترك القاعة احتجاجاً وبدأ مقاطعة الجلسات. وشرح القاضي عبد الرحمن بلهجة حازمة في الجلسة التالية أنه لن يسمح بمهرجانات سياسية ومشاهد درامية في قاعة المحكمة؛ وعيّن بدلاء للمقاطعين وأمر المدعى عليهم بحضور الجلسات. وعندما تمردوا، أرسل جنود أميركيون لإحضارهم. صدام حسين أعلن أنه موجود في القاعة من غير إرادته. ثم أكد خلال جلسة الاستماع أنه أمر بتوقيف 1500 شخص من أبناء الدجيل عندما تعرض موكبه لإطلاق النار وأن 148 شخصاً شنقوا بعدما تبين ضلوعهم في الاعتداء.

- هل هذه جريمة؟ أين عناصر الجريمة؟ صرخ صدام. خططوا

لاغتيالي وكان قانونياً وعادلاً أن أحكم عليهم بالموت.

برزان - أخو صدام غير الشقيق - لعب دور المهرج: سخر من

القاضي، وجاء إلى قاعة المحكمة بالبيجاما واسترسل في الحديث لساعات. وعندما كان القاضي يسأله إذا ما كان قد انتهى من الكلام كان برزان يجيب:

- لم أبدأ بعد.

وزير الدفاع الأميركي السابق، رامسي كلارك، كان عضواً في فريق دفاع صدام المؤلف من محامين عراقيين وأجانب. وفي رسالة كان ينوي قراءتها في جلسات المحاكمة عرض كلارك الأسباب المتعلقة بعدم شرعية القاضي عبد الرحمن ونزاهته؛ إلا أنه لم يسمح له بتلاوتها إذ رفع القاضي صوته ودخل الرجلان في جدال خرج على أثره فريق الدفاع من القاعة.

واجتمع القضاة العراقيون حول عبد الرحمن يناقشون خطوة كلارك خلال العشاء، فملأت صحنى وانضمت إليهم. رحبوا بي واستمروا في الحديث من دون تحفظات كما لو أن وجودي أصبح جزءاً من المشهد اليومي في الرشيد.

- كلارك ألمح إلى وجوب نقلي من رئاسة المحكمة. استأجر مخبراً ربما ليبحث في تفاصيل حياتي الماضية. ووجد أن صدام حكم علي بالموت؛ وأني أسست جمعية مناهضة للبعث، يعني إنني متحيز بنظر كلارك، قال عبد الرحمن.

- وهل حكم عليك بالموت من قبل صدام؟ سأل القاضي

منصور.

- حكم علي من قبل نظام عبد السلام عارف عام 1963 الذي قام بتوقيف ومحاكمة صدام وبعثيين آخرين. غادرت السجن قبل تسليم صدام الحكم وعملت كمحام في بغداد لسنوات من دون مشكلات.

- والجمعية المناهضة للبعث التي يدعي أنك ترأستها؟

- كانت جمعية تعنى بحقوق الإنسان. أسستها عام 1992 في كردستان، وكانت يومها تتمتع بالحكم الذاتي.

- الأستاذ كلارك يحاول تقويض شرعية المحكمة؛ قال القاضي منصور.

- لكن ينبغي ربما تضمين هذه الشروحات في التقرير الأخير الذي يحمل الحكم القضائي؛ ختم عبدالرحمن.

وفيما استمرت محاكمات قضية الدجيل كان يتم التحضير لملفات أخرى وجرائم اقترفها صدام. القاضي العربي، أصغر القضاة سناً وربما أقلهم خبرة كان يعمل على واحدة منها. شيعي من جنوب العراق، وله ولدان وزوجة يعيشون خارج المنطقة الخضراء. سألته مرة إن لم يكن قلقاً على سلامتهم.

- بلى... كثيراً.

- لماذا لا ينتقلون إلى هنا ليعيشوا معك في الفندق؟

- لا أظن أن هذه فكرة جيدة. لا أتحمّل أن أعيش في غرفة واحدة مع زوجتي. هي كبيرة ومربعة كبراد، ومشاكسة وتملك موهبة إزعاجي والتسبب في تعاستي.

- لهذا السبب وجد الطلاق بين الناس.

- ومن يهتم بالأطفال؟ في العراق تعود رعاية الأطفال إلى النساء.  
نحن الرجال لم نتمرن على ذلك ولا نؤمن بالمساواة على الطريقة الأوروبية.

وكشح العربي بيده الطابع الخاص لحدیثنا وتابع قائلاً إنه يعمل على قضية الأنفال التي تعود تفاصيل أحداثها إلى عام 1988 حين قتل أكثر من 50 ألف كردي في الهجوم الذي شنه صدام على مدينة حلبجة مستعملاً السلاح الكيميائي؛ وهو عبارة عن مزيج من غاز السارين والخرذل.

وسافر القاضي العربي إلى الجنوب وإلى الأنفال باحثاً ودارساً كل المعطيات المتعلقة بالقضية؛ ولم أره إلا بعد شهور، على شاشة التلفزيون مترئساً المحاكمة، صارخاً، ناهياً بوجه صدام.  
تلك الليلة اقترب من طاولتي بكوب عرمرمي تفيض فيه البوظة الأميركية التي أحبها.

- تفضلي. شلون الحال؟

- شكراً. كيف كان شعورك وأنت تصرخ في وجه من نشر الرعب في قلبك وقلب أحبائك لعقود؟

- هذه واحدة من أهم لحظات حياتي. لا أملك أن أتمنى ما هو أغلى وأهم من أن أراه محكوماً بالإعدام. فإذا نجا في قضية الدجيل



فإنه سيحاكم في قضية الأنفال لا محالة. صدام متورط في عدة جرائم من العيار الثقيل بحيث إنه من المحال أن ينجو من الإعدام.

عقوبة الإعدام أُلغيت في العراق بعد الغزو الأميركي للبلاد عام 2003؛ لكن حكومة إياد علاوي الانتقالية أعادت العمل بالعقوبة بعد الهجمات ضد القاعدة في الأنبار كتدبير ضروري يربع المتمردين والإرهابيين ويلقي الهلع في نفوسهم. وكانت الأمم المتحدة قد احتجت ضد عقوبة الإعدام في بيانات صحفية، من خلال وسائل الإعلام العراقية، وفي اجتماعات خاصة مع الرئيس جلال طالباني وعدد كبير من أركان الدولة العراقية. لكن من دون نتيجة!

والحقيقة، إن عملنا ضد عقوبة الإعدام لم يكن يرتبط بمحاكمة صدام، بل بالعقوبة عموماً التي كانت قد وضعت موضع التنفيذ في أكثر من 100 حكم خلال عام 2005. وكان الرئيس طالباني وعد بآلا يصدّق على أي حكم بالإعدام يصدر بحق أي مواطن. لكن أحد نائبيه كان مستعداً دائماً لذلك، فاستمرت أحكام الموت تنفذ بكثافة.

واللافت أن العراقيين كانوا يساندون عقوبة الإعدام. فالمبدأ أن عقوبة الموت موروثة جاهلي لا يتناسب مع عصرنا ومع حق كل إنسان في الحياة؛ وهو حق مكتسب بالولادة، ويشكل الحجر الأساس في هرمية الحقوق التي يتمتع بها كل إنسان عند الولادة، لم يكن يلقي آذاناً صاغية. فالمجرم الذي تسبب بالموت للآخرين يجب أن يلقي الموت على طريقة العين بالعين والبادي بأظلم! حتى القضاة - وهم

أرفع رموز العدل والعدالة في العراق - كانوا يشاطرون الآخرين هذا الرأي.

أكبر القضاة سناً وخبرة في فندق الرشيد كان الكاكا منصور بابان. والكاكا بالكردية تشبه العم بالعربية؛ أي أنها تضاف إلى أسماء المسنين والمتقنين تعبيراً عن الاحترام. وكاكا منصور كان نحيلاً، ممشوق القامة وعينه الزرقاوان تشبهان سماء السليمانية النقية وبشرته الفاهية كالثلج على قمم جبالها.

كان في السبعين من العمر لكنه لم يكفّ عن العمل في سلك القضاء. فالحياة من دون عمل مملة جداً، خصوصاً بعدما فقد زوجته وانشغل ابنه وابنته في تفاصيل العمل والأولاد في السليمانية حيث يعيشون.

وكاكا منصور يزورهم مرة في الشهر ثم يعود إلى غرفته في الرشيد. فالحياة ممتعة هنا، أسرّ إليّ مرة. وأمتع ما فيها النقاشات مع الزملاء والحياة الاجتماعية مع العراقيين والأجانب في الفندق.

- النساء الكرديات يتمتعن بحقوقهن كلها. فلا يفرض عليهن الحجاب أو غيره لإخفاء الشعر كما النساء في بغداد. لا نعرف ماذا حصل لنا في هذا البلد. جاءنا المتدينون فاخفت النساء داخل الشراشف السود. الإسلام دين ظالم والنساء هن أكثر المظلومين، قال بينما كنا نتناول العشاء.

- كل الأديان تظلم النساء بشكل أو بآخر.

- هل أنت مسيحية أم مسلمة؟

- أنا من جماعة اللا أدري. يعني أنا أبحث عن الله في يومياتي.

- أنا أيضاً... أنا أيضاً؛ ردد الكاكا ضارباً الكف بالكف وصوت

ضحكته ملاً الصالة.

يسترسل الكاكا في الحديث عن كردستان كما لو كانت جنة الشرق الأوسط: جبال شاهقة وسهول خضراء وشلالات هادرة تعطي الحياة طعماً آخر. وبالمقارنة مع بغداد القاحلة تتمتع كردستان بأربعة فصول جميلة.

- كانت دائماً مقصداً للإيرانيين هرباً من قيظ الصيف ومن الرعب

السياسي في بلادهم؛ قال بشغف وعيناه تلمعان.

ويتحدر الكاكا من عشيرة بابان الشهيرة في السليمانية والتي

حكمت المنطقة كلها خلال العصور الوسطى.

- يعني أنا في الأصل أمير من العصور الوسطى، قال الكاكا وأطلق

ضحكة رنانة.

وعندما أخذنا الحديث إلى صدام حسين تجمدت عضلات وجه

القاضي منصور وساد جو من الجد.

- أغلى أمنية عندي هي أن أشهد أن صدام قد نال عقابه، ومن

حسن حظي أن هذا اليوم بات قريباً. إسألني كل القضاة هنا فسيقولون

لك الكلام نفسه.

- وماذا سيكون حكم المحكمة برأيك؟

- الإعدام طبعاً.

- ألا يكفي السجن المؤبد؟

- لا... لا... هو يستحق حكماً أسوأ من الموت لو كان هناك

شيء مماثل.

- لكن الإعدام ألغي في كثير من البلدان.

- العراق مليء بالحمقى؛ ونحن نحتاج إلى الإعدام للتخلص

منهم.

واختفى كاكا منصور فجأة من الرشيد. سألت القاضي العربي

عنه فأخبرني أنه أسرع بالسفر إلى كردستان لأن ابنته مريضة.

- هل الأمر جدي؟

- أجل؛ يقال إنها مصابة بالسرطان.

ولم ألتق بعد ذلك قط بأميري من العصور الوسطى. ومن دون

الكاكا صار الرشيد مملأً قليلاً.

وظهر صدام فجأة في قاعة المحكمة بعد فترة مرضية تلقى خلالها

علاجاً لأوجاع سببها 17 يوماً من الإضراب عن الطعام. وأعلن أنه لو

حكم عليه بالموت فيتمنى أن يموت بالرصاص كأبي مجرم عادي.

وكتب رامسي كلارك رسالة سرية إلى أمين عام الأمم المتحدة

كوفي أنان حث فيها الأسرة الدولية على التحرك ضد المحكمة.

وعرض كلارك الحجج التي تبين أن المحكمة لا تحترم المعايير الدولية.

«هذه المحكمة العراقية المتخصصة شكّلها الأميركيون وتعمل على تنفيذ سياسة الولايات المتحدة.

لقد قامت خلال الحرب الشرسة على العراق عام 2003 وتستمر في عملها منذ ذلك الوقت. قانون المحكمة كتبه الأميركيون، والمحكمة غير شرعية لأنها أداة للسياسة الأميركية وتعمل تحت الاحتلال الأمريكي. والمحاكمات غير عادلة والموظفون تلقوا التدريب والحماية من قبل الأميركيين. والحكم النهائي سيعبر عن عدالة المنتصر، أي الولايات المتحدة وأزلامها.

ضغوطات خارجية تمارس عليها من قبل الأميركيين وحلفائهم من السياسيين العراقيين. أربعة وكلاء دفاع خطفوا. ثلاثة قضاة تم نقلهم خلال سير المحاكمات لأن طريقة عملهم لم تعجب السياسيين. المحكمة غير عادلة وتفتقد إلى كل المقومات لتطبيق المعايير الدولية. القضاة في هذه المحكمة ليسوا مستقلين. لقد اعترفوا بصراحة أنهم أعداء صدام حسين وضحايا سياساته القديمة. رئيس القضاة في قضية الدجيل، وهو من مواليد حلبجة، اعترف أن العديد من أفراد عائلته وأصدقائه ماتوا خنقاً في الهجوم على المدينة بالأسلحة الكيميائية عام 1988.

فريق الدفاع لم يحظ بفرصة ليبحث عن وثائق أو يدقق فيها. المدعون العامون عرضوا قضيتهم بعد تحضير دام سبعة أشهر، فيما الدفاع نال مهلة خمسة أسابيع فقط ليقدم شهوده.

تسليم صدام إلى الحكومة العراقية الحالية قد يؤدي إلى انشاقات في البلاد. وكل الزعماء الشيعة والأكراد بمن فيهم الرئيس جلال طالباني عبّروا عن تأييدهم للإعدام. ولو صدر حكم بالموت فإن وصمة العار ستلطح جبين العدالة. وعلى الأمم المتحدة أن تفصل في شرعية هذه المحكمة العراقية الخاصة قبل تسليم المساجين إلى الحكومة العراقية التي لن تستطيع حمايتهم حتى لو حاولت. وإذا وجدت الأمم المتحدة أن هذه المحكمة أو إجراءاتها غير شرعية؛ أو أنها تنتهك المعايير الدولية للعدالة، فينبغي وقتها اعتبار أي حكم قضائي يصدر عنها باطلاً.

أثمن كفاحكم الشجاع من أجل السلام والعدالة في هذه الظروف، وأرجوكم أن تنشروا بين أعضاء مجلس الأمن والمنظمات التابعة للأمم المتحدة خبر الكارثة التي تلوح في الأفق؛ وضرورة اتخاذ موقف موحد من قضية تسليم المساجين إلى الحكومة العراقية؛ قبل الفصل فيما إذا كانت المحكمة العراقية الخاصة تحترم في إجراءاتها القانونية المعايير الدولية للعدالة».

كوفي أنان لم يحرك ساكناً.

وصدرت عقوبة الإعدام في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 2006. تبّلع صدام الخبر بازدراثة المعهود للمحكمة. عندما طلب إليه القاضي أن يقف رفض؛ وقام الحراس برفعه من تحت إبطيه. حين قرأ القاضي الحكم هتف صدام:

- الموت للخونة! عاش العراق!! الله يلعنكم! الله يلعن هذه المحكمة.

أحد وكلاء الدفاع أعطى صدام حسين النسخة العربية من كتاب بول بريمر «سنة في العراق»؛ فابتسم صدام ووعد بأن يسيل الدم أنهاراً من تحت أقدام الأميركيين.

وبعدما رُفضت الطعون التي قدمها صدام ورفيقاه من قبل محكمة الاستئناف في بغداد في 26 كانون الأول/ ديسمبر، أعلن وزير العدل هاشم الشبلي أن العفو غير وارد في هذه القضية.

في 30 كانون الأول/ ديسمبر 2006 صدّق رئيس الوزراء نوري المالكي على حكم الإعدام ورفض حضور عملية التنفيذ معتبراً أنه لا لزوم لمراجعة أو تأخير في تنفيذ الحكم.

- إن احترامنا لحقوق الإنسان يفرض علينا أن ننفذ حكم الإعدام به، قال المالكي.

وفي اليوم نفسه، في أول أيام عيد الأضحى، تم تنفيذ الحكم. اقتيد الثلاثة: صدام حسين؛ وأخوه الرئيس السابق لجهاز المخابرات العراقية برزان ابراهيم؛ وعضو البندر، رئيس المحكمة

الثورية التي حكمت بالموت على شيعة الدجيل؛ إلى مقر المخابرات في الكاظمة.

في المقدمة كان صدام. اقترب من جبل المشنقة حاملاً القرآن. وبحسب رواية مستشار رئيس الوزراء لشؤون الأمن موفق الربيعي؛ طلب أن يرخي أحدهم الجبل الذي يقيد قدميه. وهتف صدام:

- الله أكبر! العراق سينتصر! فلسطين عربية!

وفي المقاطع التي صورت بكاميرات الهواتف النقالة وعرضت على التلفزيونات في العالم؛ رأى المشاهدون الجلادين المثلثين يهتفون باسم الصدر بينما كان صدام يتلو صلاته الأخيرة. عندما أزيحت الفتحة وشد الخناق حول رقبة الديكتاتور تفوهوا بالسباب والشتائم القذرة.

إعدام صدام أهدي لمقتدى!

وعمّت العالم العربي خيبة أمل من طريقة التعاطي مع القضية وأجمع المعلقون السياسيون على أن « الحكومة العراقية تسعى للثأر وليس للعدالة ». الرئيس جورج بوش وجه انتقاداً لاذعاً إلى الحكومة العراقية معتبراً أن تنفيذ الإعدام افتقد إلى الكرامة والاحترام، وأن الحكومة تحتاج إلى كثير من الجهد لتصبح راشدة.

وعبر المواطنون بكثير من الصدق عن مشاعرهم عند تلقيهم خبر الإعدام. فخرجوا إلى الشوارع رغم حظر التجوال؛ يطلقون النار في



الهواء ابتهاجاً، ويحملون صور أقارب لهم قتلوا على يد صدام. أما في الأحياء السنية فساد سكون الموت.

ووري صدام الثرى وانتهى عصر من تاريخ العراق. والديكتاتور الذي كرهه شعبه وخافه جيرانه وطوّبه الوطنيون العرب بطلاً وشهيداً غادر هذا العالم بعد 35 عاماً في السلطة. حياة مليئة بالعز والنفوذ انتهت بالذل والمهانة. حكم صدام وأعدم كمجرم وليس كديكتاتور. كيف أصبح هذا الرجل جلاداً؟ ولماذا ينسى أصحاب النفوذ والسلطة أنهم هم أيضاً من التراب وإلى التراب سيعودون؟

## كردستان... جزء من العراق؟

لم يغمض لي جفن طوال الليل. ورحت أتقلب في سريري من طرف إلى طرف أنتظر الضوء أن ينبلع. أفكار كثيرة تدور في رأسي. فالرحلة إلى أربيل أصبحت ممكنة بعد طول انتظار؛ والحماسة تدب في مفاصلي لأحمل حقيبة الظهر وأنطلق.

ركبنا المروحية صباح هذا اليوم التشريني وكنا ثلاثة: جايمس وخالد من قسم التخطيط والهندسة وأنا. جنديان أميركيان جلسا جنب الشباييك وسلاحهما الأوتوماتيكي موجه للأسفل. والمروحية حلقت على علو منخفض جداً بحيث كان يمكن رؤية أدنى التفاصيل تحتنا على الأرض.

بغداد من فوق لم تكن جميلة! مدينة حرب وركام. فخلف القصور الفخمة والمباني الكبيرة في المنطقة الخضراء اختبأت منازل من طبقة واحدة مصدعة ورثة. وامتألت جوانب الطرقات بسيارات الخردة. الأطفال لوّحوا لنا بأيديهم وفي عيونهم سرور ورغبة في الانضمام إلينا في رحلة على هذه السجادة السحرية!

جايمس وخالد كانا يشرفان على بناء مجمع جديد في أربيل يكون جزءاً من خطة لتوسيع نشاطات الأمم المتحدة في الإقليم الكردي. أما أنا فكنت أنوي توظيف زملاء جدد تمهيداً لإطلاق صفحتنا الإلكترونية على الإنترنت وإصدار عدد من المطبوعات باللغة الكردية.

حلقتنا مسافات طويلة فوق الصحراء. وتركت نظري مسترسلاً فوق هذه الأمواج من الرمال الصفراء التي ما كانت لتنفصل في وسطها لولا نهر الفرات الزاحف شمالاً كالشعبان؛ وأشجار النخيل المثقلة بالتمر ترتاح على ضفافه. فالتمر متنوع عراقي بامتياز ومن أهم صادرات البلد بعد النفط. ويفخر زملائي في المكتب أن العراق ينتج أطيب أنواع التمر في العالم. وعندما تمتمت بخجل مرة أنني أحب النوع الذي ينمو في كاليفورنيا اتفق جميعهم أنني على خطأ؛ وفي اليوم التالي جاءني سرمد بكيلوغرامين من التمر العراقي لأتذوق أطيب العراق. وأمام هذا الإصرار لم يكن أمامي إلا أن أوافق!

رائحة النفط ترتفع وتملاً خياشيمي. خالد يدور شفتيه وأقرأ: كركوك. أنظر إلى أسفل وأتقزز لبشاعة المشهد. شقوق في الأرض تتفجّر منها سواق نحيلة من النفط. مستحيل أن يزرع الإنسان نبتة خضراء في هذه البقعة. ولكن من يحتاج إلى الخضرة عندما يطفو الذهب الأسود على سطح الأرض؟

ففي أحشاء كركوك تسيل أغلى ثروات العراق. هنا تطفح ثاني أكبر خزانات العالم بالنفط؛ وربما لهذا السبب غدت كركوك قدس

العراق، جميعهم أعلنوها عاصمتهم، واقتروا من أجل ذلك أشنع الجرائم ضد الإنسانية.

بعد الاستقلال مباشرة، وبالتزامن مع اكتشاف البريطانيين للنفط في العقد الثاني من القرن الماضي؛ بدأت التركيبة السكانية لكركوك بالتغير. في الستينيات لوحظ ارتفاع كثيف في عدد السكان الأكراد وبناتوا يشكلون الثلث تقريباً فيما التركمان انخفض عددهم إلى النصف في الفترة نفسها، استناداً إلى المؤرخ العراقي الكبير حنا بطاطو.

انتقال الأكراد بمجموعات كبيرة إلى كركوك أخلّ بالتوازن السكاني وتسبب بتوترات إثنية استمرت لعقود من الزمن.

وانفجر العنف عام 1959 خلال انشغال التركمان في التحضير لاحتفالات ثورة 14 تموز/ يوليو التي قادها عبد الكريم قاسم قبل عام ضد الملكية في العراق. القادمون الجدد من الأكراد هاجموا موكب التركمان وذبحوا بوحشية آلاف الناس ورموا بهم في مقابر جماعية. واستمرت المذبحة إلى حين وصول الجيش النظامي إلى المدينة. إلى هذه الحادثة ينسب حمام الدم الكركوكي الذي تستفيض كتب التاريخ في تفاصيله.

واستمرت الاضطرابات في كركوك على مدى سنوات . الأكراد أصروا على الحكم الذاتي وقاموا بالتمرد مراراً ضد حكومة بغداد. وعندما استلم صدام زمام الحكم شن حملات القمع ضدهم للسيطرة على الشمال العراقي وبدأ حملة تعريب لمدينة

كركوك. وتضمّن ذلك تشجيع أعداد كبيرة من الشيعة العرب في الجنوب للانتقال إلى السكن في ضواحي كركوك الغنية بالنفط. وتعرضت أكثر من 600 قرية كردية للحرق والهدم وتم ترحيل آلاف الأكراد إلى مناطق أخرى مثل السليمانية أو أربيل. وخلال الحرب العراقية الإيرانية ساند الأكراد إيران؛ الأمر الذي دفع صدام إلى مهاجمة حلبجة بالأسلحة الكيميائية. وقبل الاستفتاء الشعبي عام 1997 شجع صدام التركمان واليزيديين الذين كانوا يعيشون في جبال سنجار على طول الحدود العراقية - السورية على أن يسجلوا أنفسهم كمواطنين عرب. كما منع التركمان أن يبيعوا عقاراتهم لغير العرب.

بعد سقوط صدام، قام الأكراد باستعمال الأساليب إياها لكردنة محافظة كركوك ولا سيما المدينة كركوك حيث أثمرت عملية التعريب عن نتائج ملموسة على الأرض. وراح الأكراد يشجعون السكان التركمان واليزيديين والعرب على تسجيل أنفسهم كأكراد. واستعملت أساليب كثيرة كالتهديد والقتل والرعب لحمل المتمسكين بهوياتهم الإثنية على مغادرة المدينة.

وحطت ميليشيا الصدر فجأة في كركوك لحماية السكان الشيعة والدفاع عن حقهم في أن يسكنوا أينما يشاؤون.

وطُلب إلى المستوطنين الأكراد الذين نصبوا الخيم لعدم توافر المنازل العود إلى الديار التي أتوا منها، بعدما أعلنت جمعية كركوكية

تعنى بحقوق الإنسان أن صدام طرد 12 ألف كردي في التسعينيات؛ بينما يقف اليوم على أبواب المدينة 350 ألفاً. كلهم يدعون أنهم من كركوك.

في موازاة ذلك، قام الزعماء الأكراد وممثلوهم في الجمعية الوطنية بتضمين الدستور المادة 140 التي تنص على تطبيع الوضع في كركوك عن طريق تقديم منازل ووظائف للسكان العرب والتركمان لتحفيزهم على الانتقال إلى مناطق أخرى. ويبدو أن هذه العملية مفصلية كونها تحدد نتيجة الاستفتاء الشعبي الذي تدعو الأحزاب الكردية إلى تنظيمه حول مصير كركوك. لكن الاستفتاء تم تأجيله مرة بعد مرة، والأكراد اتهموا حكومة بغداد مرة بعد مرة بعرقلة تطبيق المادة 140 من الدستور؛ بينما استنكر العرب والتركمان في كركوك استعمال الأكراد للتهديد والعنف ضد السكان المحليين لإحداث تغيير في الخريطة السكانية في المدينة. وأعلنوا صراحة، وفي أكثر من مناسبة، إنهم ضد ضم كركوك إلى كردستان.

ويدعي الأكراد في معركتهم من أجل كركوك وحقوقهم التاريخية في المنطقة أنها كانت جزءاً من مملكة شيرازور التي ضمت السلمانية وأربيل وكركوك وديالا. وإن المملكة الكردية حكمت المنطقة بين القرن 11 والقرن 16 قبل أن يضمها العثمانيون إلى السلطنة العثمانية. وفي سعيها إلى توسيع منطقة كردستان طالبت الأحزاب الكردية بضم سنجار وشيخان ومخمور وخانقين. وقدمت خلال عملية صياغة

الدستور خرائط لحدود كردستان؛ وكانت تضم تلغفر أيضاً ذات الغالبية التركمانية. وغني عن القول إن المدن المذكورة تزخر بأبار النفط العراقي.

بالمقابل يدعي التركمان بأن كركوك كانت تركمانية لمئات السنين. والكروكيون منهم يؤكدون أنهم كانوا ضحايا التعريب. فتعرضوا للتمييز العنصري في سوق العمل، وخسروا أراضيهم وعقاراتهم مما كان يمكن تفاديه لو قبلوا بتسجيل أنفسهم كعرب . كما يتهمون الأكراد بالتمرد ضد كل حكومات بغداد منذ بداية القرن العشرين لأنهم كانوا يخططون لكردنة كركوك منذ سقوط الملكية. ويتذمرون من تدفق الأكراد المستمر إلى كركوك بعد سقوط صدام، ويتهمون الأميركيين بمساندة الأكراد للسيطرة على أراض تركمانية للانتقام من تركيا التي رفضت السماح للولايات المتحدة باستعمال أراضيها لمهاجمة العراق. ولا ينفك التركمان يرددون في السر وفي العلن: إن الحل الوحيد لكركوك يكمن في إعطاء المدينة والمحافظة وضعاً خاصاً لا يمتّ إلى كردستان بصلة.

أما الكركوكيون العرب فينتمون إلى ثلاث عشائر: حديد وجبور والعبيد. وهؤلاء يعيشون في المنطقة منذ مئات السنين ويتقاسمون فيما بينهم المراعي والمواشي. وقد أعربوا عن عدم رضاهم لتدفق مئات الآلاف من الأكراد إلى مدينتهم بعد سقوط صدام، معتبرين ذلك جزءاً من مخطط كردي يرمي إلى ضم كركوك المدينة والمحافظة. فكر كركوك

بالنسبة إلى العرب مدينة مختلطة؛ ويجب أن تبقى تحت سيطرة الحكومة المركزية أو أن تعطى وضماً خاصاً. أما القادمون الجدد منهم فيشكلون من كونهم ضحايا لحملات التعريب والكردنة معاً.

جاء بهم إلى كركوك في التسعينيات بعقود عمل وتسهيلات أخرى مغرية. وبعد ربع قرن، يطلب منهم الأكراد أن يعودوا من حيث أتوا. ولكن إلى أين؟ وأولادهم الذين ولدوا في كركوك لا يعرفون بيتاً غير كركوك؟ أحد ممثلي تيار الصدر في الجمعية الوطنية انتقد في إحدى جلسات المجلس الحملة التي تستهدف إخراج الشيعة العرب من كركوك:

- كركوك ليست كردية؛ وليست تركمانية. كركوك مدينة عراقية.

وأي عراقي يمكنه أن يسكن أينما شاء سواء في كركوك أو كربلاء أو حتى في السليمانية لو رغب بذلك.

وفي كركوك أيضاً أقلية مسيحية مكوّنة من آشوريين وكلدان وسريان يعتبرون أن جذورهم تعود إلى كركوك والأمبراطورية الآشورية التي حكمت المنطقة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وقد بنيت المدينة على ضفاف نهر هاسا؛ وكانت تدعى حرافا. وتظهر البقايا الأثرية انتماء المسيحيين إلى المنطقة. من هذا المنطلق، فهم يعتبرون أنفسهم كركوكيين أصيلين فيما الآخرون، كل الآخريين دخلاء. ويشتكى المسيحيون من أن الأكراد والعرب يستولون على أراضيهم، ويستغلون عددهم الضئيل الذي لا يتعدى 12000 شخص



ليمروا مخططاتهم، وهم على يقين أن المسيحيين فقدوا دورهم ونفوذهم في اللعبة السياسية حول كركوك.

ومنذ فوزهم الكاسح في الانتخابات عمد الأكراد إلى السيطرة على عملية صياغة دستور العراق الجديد لتضمينه بنوداً تحمي مصالحهم بشكل أساسي. وتركزت طموحاتهم خلال المفاوضات الدستورية على تأمين كل المعطيات التي تساعد كردستان على الانفصال السلمي عن العراق في المستقبل. كتوسيع حدود كردستان إلى أقصى حد ممكن وتعزيز قوتهم وسلطات الإقليم تجاه الحكومة المركزية، وتأمين الموارد التي تحتاجها المنطقة للحياة.

ومنذ البداية اعتمدوا سياسة تقول: لو كنت تريد مئة دولار فاطلب مئتين. وهكذا طالبوا خلال عملية صياغة الدستور بحق إدارة آبار النفط الواقعة في منطقتهم بما في ذلك حقوق التصدير، والحصول على 25 بالمئة من موازنة العراق السنوية، وحقهم في مراقبة السياسة الضرائبية، وحافظوا على مطاطية الحدود بحيث يمكن إلحاق مدن أخرى مسكونة بالأكراد بكردستان، والاحتفاظ بالقوات الكردية - البيشمركة، وبحق رفض وجود الجيش النظامي في منطقة كردستان.

بعض هذه المطالب لاقت قبولاً كحق إدارة آبار النفط والغاز في المنطقة، والاحتفاظ بالبيشمركة، لكن الحكومة المركزية رفضت التنازل في مسألة السياسات المالية والضرائبية؛ وحددت حصة

کردستان بـ17 بالمئة من الموازنة العامة السنوية. وبقيت مسألة وجود الجيش الوطني في كردستان ومسألة الحدود معلقتين.

أما فيما خص كركوك، فقد واجهت الجهود الكردية معارضة عنيدة من التركمان والعرب والمجموعات الأخرى. فبينما عمل الأكراد على تسريع عملية التطبيع بهدف ترحيل الشيعة وآخرين من غير الأكراد، أصر التركمان والعرب على حق سكان كركوك بالبقاء فيها. والغالبية هم من الشيعة الفقراء الذين أتوا إلى كركوك طلباً للعمل في قطاع النفط؛ وللحصول على حياة أفضل. كون ذلك حدث بالتزامن مع حملة صدام لتعريب المدينة فلا يعني أنهم اقترفوا جرماً يحاسبون عليه.

ويتفق التركمان والعرب على أن أكثر من 40 ألف عائلة كردية تدّعي افتراء أنها من كركوك وتطالب باستعادة منازلها. ومتفقون أيضاً أن الوافدين الأكراد الجدد الذين يعيشون في خيم ومستوعبات في محيط المدينة يستنزفون مواردها من وظائف وبنى تحتية وخدمات مدنية، ويساهمون في زيادة التوتر بين المكونات الاجتماعية لكركوك. حميد مجيد موسى، رئيس لجنة التطبيع في كركوك، أشار في أكثر من مناسبة إلى أنه يجب خلق فرص عمل كمفتاح لحل المشكلة العالقة في كركوك.

- ينبغي على الحكومة في بغداد أن تهتم بنهضة القرى والمناطق النائية كي يتسنى للوافدين الجدد إلى كركوك العودة إلى مناطقهم.

وموسى رجل سياسي بارع، غادر العراق في السبعينيات ثم عاد في الثمانينيات إلى كردستان ليكافح ضد نظام صدام حسين. في التسعينيات انتخب رئيساً للحزب الشيوعي، ورشح نفسه للانتخابات على لائحة علاوي ونال حزبه مقعدين في الجمعية الوطنية.

- الأكراد يجاهدون لدفع عملية التطبيع والاستفتاء إلى الأمام لكن الواقع مختلف. العملية مجمدة لعدم توافر الموارد والإرادة السياسية. الأمور تتعلق بالحكومة في بغداد التي يبدو أنها لم تقرر بعد كيف سيكون الوضع في كركوك، في وقت تغلي فيه المدينة من شدة استشراء العنف والجريمة والخطر الداهم من اندلاع حرب أهلية.

وعبر الوزير الكردي محمد إحسان في اجتماع لنا في بغداد عن مخاوفه من اندلاع حرب في كركوك.

- لا يمكن لأحد أن يدعي أنه يستطيع التأثير في مجرى الأمور في كركوك. لا طالباني ولا بارزاني. ويجب تأجيل الاستفتاء وإلا اندلعت حرب أهلية في المدينة.

- بين الأكراد والمجموعات الأخرى؟ تساءلت.

- حتى بين الأكراد أنفسهم، قال. فليس سراً أن العلاقات بين حزبي طالباني وبارزاني كانت دائماً يشوبها التوتر. وفي كركوك يتصارع الجميع مع الجميع للسيطرة على المدينة.

حتى القلائل من العرب الذين يرضون بحكم ذاتي في كردستان يرفضون التخلي عن كركوك. وحين أقدم مقتدى الصدر للدفاع عن حق

الشيعة في البقاء في كركوك بإرسال عناصر من ميليشيا جيش المهدي إلى المدينة، وقع الصدام مع الميليشيات الموجودة على الأرض فزاد العنف بشكل دراماتيكي في المحافظة.

غير أن رسالة مقتدى كانت واضحة : لن يترك العرب الأكراد يحصلون على كركوك. والتهديد العلني بأن كل عائلة شيعية تُرحل من كركوك يقابلها عائلة كردية تُرحل من بغداد عبّر عن هذا التحدي العربي لضم كركوك إلى كردستان.

ووضعت أنقرة حوالي 200 ألف جندي تركي في حالة تأهب دائم على طول الحدود التركية مع العراق بدعوة مراقبة حزب العمال الكردستاني الناشط في كردستان، والذي صُنّف في خانة الإرهاب في العديد من الدول.

وحذر الزعماء الأكراد أنقرة من التدخل في كركوك فردّت تركيا أنها غير معنية بما يحصل في الشمال العراقي. ولكن عندما سأل ممثل الأمم المتحدة السفير التركي في نيويورك عما إذا كان هناك حاجة إلى خبرات المنظمة الدولية لحل الأزمة في كركوك، جاء الجواب مختصراً وواضحاً:

- لا تتدخلوا في كركوك!

في كانون الأول/ديسمبر 2007 هاجمت القوات التركية مواقع حزب العمال في كردستان، لكن الزعماء الأكراد رأوا في هذه

الهجمات وكأنها موجهة ضدهم. لا سيما وأن تركيا ما كانت لتتجرأ على توجيه الضربات لولا موافقة الولايات المتحدة.

هل يفهم من ذلك أن شهر العسل بين الأكراد والأميركيين قد انتهى؟ وهل تبليغ الأكراد الرسالة المجلجلة: إن ضم كركوك ليس بالسهولة التي يتوقعونها لأنها تمس بمصالح إقليمية ودولية؟

في غضون ذلك؛ لم تخرج تهديدات مسعود بارزاني، رئيس إقليم كردستان، بالحرب عن إطار العجز الذي يشعر به الأكراد إزاء حكومة بغداد التي تتعمد الإبطاء في تنفيذ المادة 140 من الدستور والمتعلقة بكركوك. وعندما أوشكت المهلة المقررة لإجراء استفتاء كركوك على الإنتهاء في كانون الأول/ ديسمبر 2007، تقدمت الأمم المتحدة باقتراح تأجيل الاستفتاء ستة أشهر إضافية كخطوة أولى. وتم التصديق على الاقتراح بأغلبية مطلقة.

وأخيراً حطت بنا المروحية الأميركية في أربيل وتنفسنا الصعداء. فبعد ثلاث ساعات ونصف من التحليق كان التعب بادياً علينا والطرش يطن أزيزاً في الأذان. فخلعت السترة الواقية والخوذة وسعدت للهواء العليل يداعب وجهي.

- آه ما أجمل الحرية؛ هتفت.

وتابعنا الخطى صوب السيارة التي كانت تنتظرنا. هنا يتحرك

الناس بحرية في المدينة؛ من دون خوف من سيارات مفخخة تنتظرهم عند كل مفترق لتقبض على أرواحهم.

توجهنا إلى المخيم التابع للأمم المتحدة لإيداع حقائبنا والستر الواقية؛ وقادنا السائق إلى المركز الجديد الذي كان لا يزال قيد الإنشاء. وتوقفنا أمام حاجز أقامه الكوريون الجنوبيون؛ ورفعنا بطاقتنا الحمراء التي تؤكد بالإسم والصورة أننا موظفون في الأمم المتحدة. إلا أن الحراس لم يسمحوا لنا بمتابعة السير.

- ما الأمر؟ سألت زميلي يونا من قسم الأمن.

- لا أدري. لم نواجه مشكلات معهم من قبل.

وشرحنا للكوريين أن الصور على بطاقات الهوية هي صورنا وأنها

نعمل مع الأمم المتحدة في بغداد. ولكن عبثاً!

الجنود جمعوا بالكورية التي نجهلها تماماً ونحن بالإنكليزية

التي لم يفهموا منها حرفاً.

- ماذا نفعل الآن؟

- لقد اتصلوا بقائد السرية وهو يتحدث الإنكليزية.

لدى وصول قائد السرية شرح أنه كان ينبغي إبلاغه بقدمنا

من بغداد مسبقاً ليعمم ذلك على مساعديه. وقام بالتدقيق مرة أخرى

ببطاقات هوياتنا وأمر رفاقه أن يفتحوا بوابة الخروج.

ذكرتني أربيل كيف تكون الحياة في مدينة عادية.

سلسلة جبال شاهقة تلف المدينة من كل حذب وصوب؛

وضوء الشمس فوق قممها يومض بألف لون فوق البيوت الصغيرة من الطين. والكرمة المتشعبة على الحيطان الممتدة فوق تعريشات رفعت أمام باحات البيوت وفوق السطوح. ودجاجات نحيلة تسرح خارجاً وتقوي، ورجال مسنون يتجولون تحت الشمس مستندين إلى عصا ويرتدون لباساً كردياً تقليدياً: شروال أسود، وسترة من الصوف المحبوك، وعمامة. الأولاد يلعبون، فيما الأمهات في فساتين طويلة مزركشة ومناديل تغطي الرؤوس منشغلات بأعمال منزلية.

كان كل شيء يذكر بالقرية المثالية لولا أنه خلف الأزقة الضيقة تنبسط الأوتوسترادات العريضة المنفتحة على اللانهاية. في ورشة البناء كان العمل يسير على قدم وساق.

تجولنا بين المستوعبات التي أصبحت جاهزة للاستعمال: سرير منفرد وطاولة وخزانة ملابس صغيرة. ولا وجود لبراد صغير أو لجهاز تلفزيون.

- المشكلة الوحيدة أن المقر بعيد عن المدينة، قلت لجايمس.  
- صحيح، وهذا أفضل لنا من الناحية الأمنية. يجب أن نكون محصنين. الأمم المتحدة كانت دائماً هدفاً للإرهاب.

منذ سقوط السلطنة العثمانية بعيد الحرب العالمية الأولى والأكراد لا يهدأ لهم بال! كفاحهم من أجل الاستقلال عن العراق

لم يعرف الكلل ولا الملل. بعد اكتشاف النفط في العشرينيات من القرن الماضي، وبعدهما أصبح للإنكليز موطئ قدم في العراق، صم الاستعمار البريطاني آذانه عن مطالب الأكراد المجدية بالاستقلال، إذ كانوا يفضلون عراقاً موحداً تحت سلطة العائلة الملكية.

وقضى الأكراد قرناً من الزمن في تعايش غير سعيد وأرغموا على شراكة مع كيان عراقي مولود من رحم المكائد الاستعمارية. وانتظروا اللحظة التي سينجحون فيها للتخلص من أغلال دولة مركزية متسلطة، وربما شديدة القمع أحياناً. وهم على يقين أنه عندما تكون بغداد ضعيفة، فإن بوسعهم اتخاذ خطوات تجعل من حلمهم في إقامة الدولة أقرب إلى التحقق، وعندما تكون قوية فإنها لا تتوانى عن استعمال كل الموارد لإعادتهم إلى حجمهم وموقعهم.

فرصة تاريخية ثانية سنحت للأكراد عندما فرضت الأمم المتحدة حظر الطيران على العراق بعد الحرب العراقية - الكويتية.

استغل الأكراد فرصة العزلة التي وقعت فيها بغداد، وتجمعوا حول حلم مشترك وأعلنوا منطقة الحكم الذاتي المكونة من أربيل والسليمانية ودهوك. وأقاموا المؤسسات كالبرلمان والحكومة والرئاسة، واتفقوا على الرموز كالعلم والنشيد الوطنيين.

وكانت بداية موفقة لحكم ذاتي فعال: ثقة بالنفس وازدهار اقتصادي واستثمارات وعقود كبيرة مع شركات نفطية عالمية استشاطت لها بغداد غضباً. لكن الإقليم عاد ليهتز باشتباكات دموية



طويلة بين حزب جلال طالباني وحزب مسعود بارزاني. فمئذ أن غادر طالباني الحزب الديمقراطي الكردستاني وأنشأ حزب الاتحاد الوطني الكردستاني والصراعات بين الحزبين لم تنته. كل من طالباني وبارزاني انسحب إلى مقره الحزبي، الأول في السليمانية والثاني في أربيل. وما زال الرجلان إلى اليوم يحتفظان كل بمكان إقامته في أعشاش النسر في أعالي الجبال في قولات شوالان وساري راش.

في مكاتبا في أربيل التقيت بعبدالله ومحمد اللذين يعملان كخبيري حقوق إنسان. كانا يتشاركان غرفة مكتب ضيقة، يزدان على الاتصالات ويناقشان كل المواضيع المطروحة.  
- قريباً سيكون لنا علم أيضاً، قال محمد.

- انتظرنا طويلاً للحصول على ذلك؛ كونه يعزز ثقتنا بأنفسنا، قال عبدالله.

- لا تريدون أن تكونوا عراقيين بعد الآن؟

- نحن جزء من العراق لكننا أكراد قبل كل شيء. هذه حقيقة لا يجوز تجاهلها. نحن أقلية في بحر واسع من محيط عربي لا يحبنا ولا يدعمنا. نتمنى إقامة دولة مستقلة لكن هذا حلم بعيد المنال.

- لماذا بعيد المنال؟ لقد حققتم إنجازات كبيرة حتى الآن.

- لا نظن أن البلدان المجاورة ستسمح لنا بذلك، قال محمد.

ويستند الأكراد إلى التاريخ في روايتهم عن المظالم المترامية على شعبهم. فتبعثر الأكراد في أربع دول هي سوريا والعراق وتركيا

وإيران لم يكن سوى نتيجة النشاط الاستعماري بترسيم حدود مصطنعة بين دول المنطقة. وقد تختلف هذه البلدان الأربعة حول ملفات شتى، لكنها تتفق على أمر واحد وهو ضرورة منع الأكراد من إقامة دولة مستقلة بهم. فالظروف التي نشأت بعد الحرب العراقية - الكويتية والتي أدت إلى إعلان الأكراد الحكم الذاتي، مقتطعين لأنفسهم هامشاً كبيراً من الحرية والاستقلالية، لا تريد هذه البلدان لها أن تتكرر.

وعلى الرغم من أن أنقرة كانت دائماً تدعم وحدة العراق كحاجز ضد النفوذ الإيراني ولكبح جماح رغبة الأكراد الأتراك في الانفصال، فقد أقامت حكومة رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، علاقات اقتصادية وثيقة مع حكومة إقليم كردستان، من خلال فتح حدودها وتشجيع الاستثمارات التركية في الإقليم وإعادة ترميم البنى التحتية كبناء مطار دولي وشبكة طرقات، وقطاع خدمات مكون من فنادق ومستشفيات وغيرها. واعتمد الأكراد على تركيا لاستيراد المواد الغذائية وحاجات أساسية أخرى مما ساعد آلاف العمال الأتراك في الحصول على فرص عمل في كردستان، وخلق بحبوحة اقتصادية للأتراك والأكراد على حد سواء. وهكذا جمعت المصالح الاقتصادية ما فرقته السياسة.

ففي السياسة الاستراتيجية يسعى الأتراك إلى منع أي محاولة كردية نحو الاستقلال، ويدعمون التركمان الذين يشكلون مع العرب سداً منيعاً في وجه الطموحات الكردية في مسألة كركوك.

وتقوم سوريا من خلال حدودها الطويلة مع العراق بتسهيل تسلل الإرهابيين وعناصر القاعدة لنشر العنف والفوضى في الشمال العراقي. أما إيران فدأبت على رفع مستوى جهوزيتها الاستخباراتية في كردستان، وليس سرأ أن أجهزتها الاستخباراتية كانت قد اتخذت من مدينة السليمانية مقراً لنشاطها في الشمال .

ويعتقد القادة في بلدان الجوار العراقي أن استقلال كردستان قد يتسبب في تفتيت العراق لا سيما وأن الشيعة يخططون لتنفيذ فيدرالية شيعية في الجنوب. فوحدة العراق مسألة أساسية لبلدان الجوار؛ وتفتيته حلم مزعج له ارتداداته على المنطقة بأسرها وداخل المجموعات الكردية في البلدان الأربعة.

وعلمت من ناريمان، الموظفة الإدارية الذكية في مكتبنا في أربيل، أنها جهزت الوثائق المعتمدة في اختبارات التوظيف في الأمم المتحدة. وكانت تتسم باللطف والبشاشة، وتبذل جهداً ملحوظاً في مساعدتي على إتمام المهمة التي أتيت من أجلها إلى أربيل. لكن شيئاً ما كان يزعجها ويعكر عليها مزاجها. لم تقل كثيراً في البداية لكنني لاحظت أن زميلها محمد وعبدالله كانا يتعاملان معها بخفة، وكأنها تعمل سكرتيرة لحسابهما.

- يتدخلون في عملي، لكنني لن أسمح لهما بذلك، قالت بحزم.

هؤلاء الرجال يحتاجون إلى مئة عام كي يفهموا أن النساء أكثر ذكاء من الرجال.

ضحكنا، هي وأنا، وشعرت فوراً بتعاطف مع هذه الشابة المثقفة والمناضلة.

- انتبهي لمحمد. سيحاول أن يحشر نفسه في عملية اختيار الموظفين، قالت محذرة.

ودهشت عندما سألتني محمد لو كان بإمكانه أن يشارك في عملية اختيار الموظفين لأن أحداً لا يتمنى لنفسه ذلك ما لم يكن مضطراً.

- لو سمحت هل يمكن أن تتكرمي قليلاً في هذه الحال على نظير؟ هو مترجم ناجح جداً وجدير بالثقة ويسعدنا أن ينضم إلى فريقنا هنا.

- محمد، أنت تعرف أن ما تفعله الآن غير مقبول!

وانهمكت في لقاء طالبي العمل التسعة ولم أشعر بالوقت يمر حتى دخلت ناريمان تبثني بوصول سيارة الأمم المتحدة التي ستقلني إلى معسكرنا لتناول العشاء.

كان الهواء عليلاً في طريق العودة. قلت ليوناس إنني كنت أفضل الذهاب مشياً على الأقدام والتمتع بالجو الجميل.

- مستحيل، قال. لو حصل لك أو لأي أحد منكم مكروه فسنتقع جميعاً في مشكلة.

جلسنا بعد العشاء في الباحة الخارجية نتبادل أطراف الحديث. كنا مجموعة من اثني عشر شخصاً؛ بعضهم يتناول البيرة وآخرون القهوة.

السماء صافية والنجوم تشع أنواراً وسحراً.

لم يكن مدير المكتب ألفرد، وهو موظف قديم في الأمم المتحدة ويملك خبرة واسعة من بلدان عديدة في العالم، سعيداً في عمله في أربيل ويبحث عن فرصة للانتقال إلى بغداد..

- يريدون دوماً المزيد من المشاريع والدعم لمنطقتهم، الأكراد متعبون.

- إنها مسألة وقت لا أكثر. عندما ينتهي البناء الجديد وتنتقل وكالات الأمم المتحدة إلى أربيل سيصبح كل شيء ممكناً قال جايمس.

- صحيح. أردف ألفرد يمكن للأمم المتحدة توسيع أنشطتها في كردستان لكن القيادة الكردية ترفع دائماً من سقف مطالبها بحيث يصعب علينا تليتها. والمواطنون في كردستان ما انفكوا يشتكون تارة من انقطاع الكهرباء وطوراً من ارتفاع أسعار البنزين وانخفاض مستوى المعيشة. وينظمون التظاهرة تلو الأخرى للاحتجاج ضد الفساد داخل حكومة الإقليم. فيقفون بسياراتهم أمام محطات البنزين لعدة أيام ينتظرون حصتهم من الوقود. ولا يترددون بالصراخ حنقاً متمنين لو جاء صدام ليومين ليربي هؤلاء القادة الأكراد الغارقين في الفساد حتى آذانهم. وعند حضور الشرطة إلى المكان يلتفون تعاضداً حول موقف موحد ويدعون أنهم جميعاً غاضبون، وغير راضين عن عمل الحكومة الكردستانية وعن الزعماء الأكراد الذين لا يهتمون لأمر الشعب.

أربيل كانت تعج بالحياة والفساد.

فصحيح أن المستثمرين الأتراك نفذوا مشاريع تنمية شتى، لكن الكثير بقي في الأدراج لأن قبول أي مشروع كان يفترض تخصيص 40 بالمئة من الأسهم لعائلة بارزاني. أما المواطنون في أربيل فلم يشعروا أنهم معنيون بهذه المشاريع.

في السليمانية كان الأمر مختلفاً، إذ ساهمت الطبقة المتوسطة في دفع عجلة الحياة الاقتصادية، وازدهر التبادل التجاري مع إيران. إلا أن عائلة طالباني لم تغب هي الأخرى عن تسجيل حضورها في العقود مع الشركات الكبرى كآسيا سيل وأوراسكوم وغيرها.

- الأكراد لا يثقون ببعضهم. فرغم المظهر الخارجي الذي يوحي بالتفاهم فإن جماعة بارزاني وطالباني في منافسة دائمة. العجيب أنهم يثقون بالأميركيين أكثر مما يثقون ببعضهم، قال يوناس. وليس مستبعداً أن تندلع حرب بينهما في أية لحظة.

عند منتصف الليل انفضت السهرة؛ وعاد الزملاء إلى مستوعباتهم وهم يتشاءمون مللاً من قصص الفساد والجشع.

في اليوم التالي، عدت إلى المكتب وكان محمد وعبدالله يشربان الشاي معاً.

- قريباً ستنتقلون إلى مكاتب واسعة وجديدة. هل زرتم المكان قبلاً؟

- نعم، سيكون بإمكان كل منا الحصول على مكتب خاص لكن المقر بعيد عن المدينة؛ قال محمد.

- هنا تعج الشوارع بالناس؛ نتكلم معهم ونستمع إلى آرائهم في المواضيع المطروحة. لكن في المقر الجديد لا يوجد أحد سوى موظفي الأمم المتحدة؛ قال عبدالله.

- ولكن لو أريد للأمم المتحدة أن توسع نشاطها في المنطقة فيجب بناء مقر يتسع للموظفين الجدد.

ودخلت ناريمان لتبلغنا أن طالبي العمل الباقين قد وصلوا.

- أستطيع أن أساعد بالتدقيق في الترجمة لو أردت، قال محمد.

دعيني أرى الأوراق.

- أريد أن أعهد بذلك إلى زميلي قدير في بغداد كي نتجنب التحيز

ويكون اختيارنا مهنيًا إلى أبعد حدود، أجبته.

مر الوقت سريعاً هذه المرة أيضاً. وهاتفني جايمس ليقول إن

المروحية ستقلع إلى بغداد خلال ساعة. فهبيت من مكاني ألملم

أوراقي المبعثرة وأشكر الجميع على حسن الضيافة والمساعدة.

- يجب أن أسرع في العودة وإلا تركني الأميركيان في أربيل

لوحدي.

- الأميركيان؟ لا تثقي بهم قط، قال محمد.

- صحيح؟ كنت أعتقد أنهم أصدقاؤكم.

- ساعدونا كثيراً حتى الآن، لكن لا نعرف متى يتخلون عنا؛ قال

عبدالله. التجارب الماضية علمتنا أن لا أصدقاء دائمين في السياسة.

- استعانوا بنا عندما أرادوا تأديب صدام وتخلوا عنا سابقاً عندما احتجنا إليهم، قال محمد.

- ليكن الله بعونكم، قلت مصافحة وفي قلبي غصة لهذه الزيارة القصيرة.

بينما كنا نخلق بمحاذاة الجبال الشاهقة في كردستان رحلت أفكر بناس هذه الجبال الذين قضوا حياتهم في وكور النور وأصبحوا اليوم شخصيات نافذة في بغداد. فما من حكومة تستطيع أن تنال الثقة من غير دعمهم.

كيف تمكّن هؤلاء المتمردون؛ زعماء الميليشيات والقرويون السذج أن يصبحوا سياسيين متمرسين في الديبلوماسية وفي المفاوضات الدستورية؟ كيف استطاعوا المناورة وفرض حكم ذاتي في الشمال أمام أعين السنّة والشيعّة ورغم أنوفهم؟ لقد زرعوا البذور الأولى لاستقلالهم ولإعلان دولتهم حيث يتدفق الماء والنفط أنهاراً، وحيث الوديان الخصبة تزدان خضرة وثمرأ؟

كيف استطاعوا بعد عقود من الاتهامات بالخيانة والتخريب من جانب حكومات بغداد أن يبلغوا هذه المراتب الرفيعة في الدولة العراقية؟ فالرئاسة من نصيبهم وكذلك منصب نائب رئيس الوزراء ونائب رئيس السلطة التشريعية ووزارة الخارجية وعدد غير محدد من الوظائف في الحكومة والجيش والمخابرات.

ورغم رمزية المنصب، فإن انتخاب جلال طالباني رئيساً للعراق



لم يمر دون أن ترتفع له حواجب شريحة كبرى من العرب. فالواضح أن الأكراد اختاروا الاحتفاظ بقدم في بغداد وقدم في كردستان. وهم يقفون أمام خيارات تحتاج إلى حزم أمرهم: إما أن يشاركوا في صنع القرار الوطني العراقي أو أن ينسحبوا إلى وكورهم في أعالي جبال كردستان؟ أم تراهم اختاروا الاحتمالات المفتوحة على كل جديد، فشاركوا الآخرين كعكتهم واحتفظوا بالأخرى لأنفسهم دون مشاركة أحد؟

كل الدلائل تشير إلى أن السياسيين الأكراد يستمتعون بهذه اللعبة المزدوجة، وبمواقفهم السياسية في العاصمة والإقليم. فالرئيس جلال طالباني لعب بلا شك أدواراً توفيقية لتقريب وجهات النظر بين مختلف المجموعات المتناحرة. وعندما زرته برفقة فون شولنبرغ في قصر السلام الرئاسي في بغداد، بدا الرجل السبعيني مسروراً من التطورات الإيجابية الأخيرة.

كان يسكن قصرًا قيصرياً: أبراج عالية وقبة هائلة وجدران مغطاة بالرخام منمّقة بنقوش دقيقة، والمساحة كناية عن رقصة متناسقة بين الهياكل، وتوازن مبدع بين الزمان والمكان. قصر لم أر أجمل منه، بناه صدام حسين زمن العز العراقي.

وكان الرئيس طالباني يتكلم الكردية مع مستشاريه؛ أحدهم كمران كراداغي الذي كان يعمل سابقاً صحافياً في صحيفة الحياة

اللندنية . ثم نادى الرئيس مصوري القصر فالتقطوا لنا الصور التذكارية قبل أن تنتقل إلى الحديث في المسائل الجدية.

- أتمنى أن يبقى الأمر بيننا، قال طالباني. نعم قمت باتصالات مع المقاومة السنية ومع مسؤولين مرموقين داخل المقاومة. هؤلاء يعتبرون إيران عدوهم الأول الآن وليس الأميركيان، ويتداولون فيما بينهم تعديلاً في المواقف والاستراتيجيات لمواجهة إيران. وأبدى طالباني تحفظاً تجاه تقويم المقاومة السنية مؤكداً أنه لا يشاركها نظرتها للأوضاع.

- إيران دولة صديقة للعراق وليست عدواً، قال. لقد تبرعت بأكثر من مليار دولار لإعادة إعمار العراق حتى الآن.

لم تكن نتوقع من الرئيس طالباني أن يعرب عن موقف مغاير من إيران التي قضى فيها بعض سنوات منفاه والتي غزت أجهزتها الاستخبارية مسقط رأسه السليمانية. لكننا كالعادة لم نعلق بشيء.

وأضاف الرئيس العراقي: إن كردستان تقدم صورة إيجابية ومثلاً يحتذى في بغداد.

- حل الميليشيات مسألة تستغرق وقتاً في العراق. في كردستان تعاملنا مع هذه المسألة عبر تقديم خيارات عديدة للمسلحين: معاشات مغرية للتقاعد وبرامج تساعد على الانضواء في المجتمع؛ ووظائف أمنية قرب الحدود الخارجية. يمكننا أن نطبق الشيء نفسه في بغداد. فمعظم الشبان يلتحقون بالميليشيات لأنهم يفتقدون إلى عمل.

وفهمنا أنه يلمح إلى جيش المهدي، الذراع العسكرية لتيار الصدر الذي ينتمي محازبوه إلى أفقر عائلات العراق. وأعرب عن خشيتي من أن يكون مقتدى قد فقد السيطرة على قواته، وألا يكون بالقوة التي يدعيها، مستدركاً أهمية عدم تجاهل الصدرين أو نفيهم خارج العملية السياسية.

وطلب إليّ الرئيس طالباني أن أفتح علبة قديمة وضعت على الطاولة. ففعلت.

- تفضلي! قال.

ونظرت داخل العلبة وكانت ممثلة بالحلوى الإيرانية. فاعتذرت عن تناول السكاكر وشكرته.

- حلاوتك كافية؛ قال مداعباً.

ابتسمت وتابعت أدون فحوى الحديث الجاري بيننا. وخطر ببالي أن الحياة ابتسمت أخيراً في وجه طالباني وكافأته على كفاحه الطويل ضد صدام حسين. فبعد سنوات المنفى الطويل - تارة في إيران وطوراً في سوريا - ها هو يُتوج أباً للعراقيين. ويبدو أنه سعيد جداً بهذه الأبوة.

## عنف أعمى

اشتقت إلى علاء الدين ووجهه الصبوح يتسلل ببشاشته إلى قلبي  
فيرقص إقبالاً على الحياة. فهو اعتاد أن يمر بمكتبي صبيحة كل يوم  
ليلقي عليّ التحية ويتمنى لي يوماً جميلاً. وكان لا بد للأيام أن تصير  
جميلة عندما كانت تبدأ بهذا اللطف المفرط السخاء.

هذا الصباح؛ لم يكن علاء الدين في بغداد. أخبرني أمس أنه  
سيغادر إلى البصرة في مهمة عمل، وأنه لن يتأخر. خمسة أيام فقط.  
وها أنا أشتاق إليه في أول صباح على غيابه وأعدّ الصباحات المتبقية  
لعودته.

قبل الغداء، جلست أدق في نص مكتوب عندما نظر سرمد إليّ  
مرتعباً:

- لقد فجرنا مسجد العسكري.
- اعتدنا على هذه التفجيرات اليومية، ما الجديد في تفجير اليوم؟
- ألا تعرفين؟ هذا مزار معروف للشيعه، هذه العملية خطيرة.
- وأين يقع هذا الجامع؟

- في سامراء بين بعقوبة وصلاح الدين.  
أخذت نفساً عميقاً، وقمت أفتح التلفاز وأبحث على الإنترنت  
عن تفاصيل الهجوم.

المسجد الذهبي، كما يسمى أيضاً؛ هو من المعالم الدينية المهمة  
للشيعة. فهو ضريح الإمامين علي الهادي وابنه الحسن العسكري.  
يبلغ اتساع قبة الذهبية نحو 20 متراً ومحيطها نحو 68 متراً ويغطيها  
سبعون ألف قطعة ذهبية؛ مما يجعلها واحدة من أكبر القباب في العالم  
الإسلامي.

لكن أهمية هذا المسجد هو في كون المهدي، الإمام الثاني عشر،  
قد اختفى في قبو هذا الضريح. ويعتقد الشيعة أنه سيعود إلى العالم  
ليقتص من المجرمين والمخطئين.

- ملايين الشيعة في العالم يأتون إلى سامراء ليصلوا في المسجد  
الذهبي؛ أشار سرمد.

هرولت إلى مكتب السفير قاضي لأضعه في صورة التطور  
الجديد وأشير إلى أن الحادث لا يمكن أن يمر بسلام. وكالعادة بادرت  
الأمم المتحدة في تصريح صحفي إلى استنكار الهجوم، متمنية على  
العراقيين عدم اللجوء إلى العنف. ووعدت بالمساعدة في إعادة ترميم  
المزار.

وتحدثت الرواية الرسمية عن مسلحين مجهولين اقتحموا مركز

شرطة حماية الضريح وقيدوا عناصره الخمسة الموجودين فيه ثم زرعوا عبوتين ناسفتين تحت القبة وقاموا بتفجيرها. أجزاء من القبة انهارت بعد تفجير العبوتين بفارق ثلاث دقائق بينهما.

وانهمرت الاتهامات من كل حذب وصوب. الشيعة اتهموا السنة والقاعدة؛ والسنة اتهموا الشيعة؛ وآية الله السيد علي خامنئي في إيران اتهم الأميركيين والصهاينة بزرع الفتنة بين السنة والشيعة. وجاء في بيان إيراني رسمي: «يرجى من إخواننا السنة والشيعة في العراق التحلي بأعلى درجات الوعي في مواجهة المؤامرة التي تهدد وحدتنا الإسلامية».

طلب إليّ سرمد أن أنظر إلى شاشة التلفزيون. ولما رفعت نظري رأيت صورة الصحافية أطوار بهجت تملأ الشاشة، لثوان لم أفهم ما يجري، ثم صرخت عالياً واندفعت إلى الخارج في بكاء هستيري. وتحلق حولي زملائي يواسوني وينصحونني بإجازة تريح أعصابي التعب. جلست على المقعد الحجري أفكر بالموت وأبكي بيأس.

كانت أطوار صحافية تلفزيونية معروفة. التقيت بها في مناسبات عديدة في مقرنا، وكانت دائماً تظهر مهنية ونزاهة أكثر مما هو مألوف في العراق وترتدي ملابس بألوان دافئة ومنديلاً جديداً للرأس.

- إسماك غير مألوف، قلت لها مرة، لا ينسى بسهولة.

- الناس في العراق خلاقون جداً عندما يقتضي الأمر إيجاد أسماء

غريبة لأولادهم، قالت مقهقهة.

كانت تعمل لقناة العربية التي سبق أن فقدت ثمانية من مراسليها في بغداد جرّاء انفجار طاول مكاتبها أو في حوادث إطلاق نار مع قوات الاحتلال. ولأن أطوار من سامراء فكان طبيعياً أن تتوجه إلى مسقط رأسها لتغطية الهجوم. شقيقتها الوحيدة طلبت إليها عدم المخاطرة والبقاء في بغداد:

- الطرقات غير آمنة، قالت شقيقة أطوار. والمدينة على بعد ثلاث ساعات من هنا، لا تذهبي. أنا لا أستطيع أن أستغني عن أختي الوحيدة.  
- أنا الأولى بالذهاب، أجابت أطوار. لا يعقل وأنا بنت سامراء أن أدع آخرين يذهبون مكاني.

قامت أطوار بتغطية مباشرة مطوّلة للحدث من سامراء. وعند انتهائها اقترب منها مسلحون مدججون بالسلاح وقاموا بختفها مع الطاقم التلفزيوني. وفي وقت متأخر من المساء نفسه وجدت جثتها مرمية مع جثث زملائها في ضواحي المدينة.

أطوار بهجت غادرت هذا العالم قبل أن تبلغ الثلاثين. القنوات العراقية أشادت بها شهيدة الواجب ورمزاً لوحدة العراق. والدها كان سنياً ووالدتها شيعية. وإلى مراسم دفنها حضر سياسيون وصحافيون وأصدقاء من السنة والشيعية حملوا تابوتها معاً على الأكتاف.

في كرنفال الجنون الذي لفّ العراق بعد الهجمة البربرية على مقام العسكري أصيبت الصحافية الأميركية كمبرلي دوزيه. وكانت كباقي الصحافيين الدوليين تقيم في فندق «فلسطين» الذي تحول إلى

قلعة يصعب على الإرهابيين اختراقه. لكن كيف يحمي الصحفيون أنفسهم من الخطر المتنقل؟ فغالبية حوادث الخطف والقتل كانت تقع على الطرقات حينما يكون الصحفيون في طريقهم إلى مقابلة أو لتغطية حدث ما.

- نعرف طرقات بغداد جيداً ونعرف كيف نتفادى الخطر منها. فعندما يعيش الواحد منا في العاصمة مع الناس ويشعر بمصائبهم يرفض التوقع في السجن الذي اسمه المنطقة الخضراء؛ قالت كمبرلي وأنا أقلها بسيارتي إلى مركز المؤتمرات الدولي حيث البرلمان العراقي. وقبل أن تغادر السيارة، صافحتها شاكرة لها تعاونها مع الأمم المتحدة.

- أرجوك أن تحذري الغدر على الطرقات. الحذر واجب، قلت.  
- لا يستحق المرء إلا ما يجتهد للحصول عليه بصعوبة، قالت بانكليزيتها المحببة.

كمبرلي كانت تتنقل داخل ملالة عسكرية عندما انفجرت سيارة مفخخة في وسط العاصمة.

الفريق التلفزيوني المرافق لها والمكوّن من مصور وتقني صوت لاقيا حتفهما على الفور فيما أصيبت كمبرلي بجروح بليغة في الساقين والجمجمة. ونقلت إلى المستشفى الأميركي في ألمانيا ولم ير الأطباء وقتها بدأ من بتر رجلها إنقاذاً لحياتها. لكنها أصرت على الاحتفاظ بهما مهما كان الثمن. بنتيجته خضعت كمبرلي لخمس وعشرين عملية



جراحية وعلاج فيزيائي مستمر حتى اليوم واستحقت بشجاعة أن تحتفظ برجليها.

الحزن الشديد على أصدقاء وزملاء يقعون، الواحد تلو الآخر، ضحية العنف الأعمى، سبب لي أزمة وجدانية. كنت أشعر أحياناً بالغضب، وطوراً بالعجز والخوف والذنب. لم أكن أملك القدرة على إيقاف ماكينة الموت التي تحصد يومياً مئة شخص من المدنيين الأبرياء. وهذه البيانات الصحفية الجوفاء التي تستنكر العنف وتحث المتقاتلين على احترام الحياة الإنسانية باتت أشبه بكلمات تافهة لا ترنّ لآذان صماء.

وفي خضم هذه الهجمة التي استهدفت الصحفيين، أصدرت الأمم المتحدة بياناً آخر توجّهت به إلى كل المعننين بالعنف والقتل في العراق: قوات الاحتلال والميليشيات وقوات الأمن العراقية؛ وناشدتهم احترام الصحفيين الذين يغامرون بحياتهم في سبيل الواجب. أكثر من ثمانين صحافياً سقطوا منذ الغزو. والعراق تحول إلى أخطر بقعة في العالم على حياة المدنيين.

وفاض كم هائل من التعليقات الصحفية عن انفجار المسجد الذهبي. فقارنه البعض بتفجيرات 11 أيلول في نيويورك، والبعض الآخر بالهجوم العاتي على مرفأ بيرل هاربور في الحرب العالمية الثانية من حيث ارتدادات هذه الاعتداءات على مجريات الأحداث في الظروف التاريخية التي وقعت فيها. شيء واحد مؤكد لا لبس فيه وهو

أن الاعتداء على المسجد الذهبي تسبب بموجات عارمة من العنف المذهبي في بغداد، فارتفع منسوبه أضعافاً مضاعفة.

ففي وضح النهار كان يقوم شبان في لباس الشرطة باكتساح المناطق السنية بسيارات تابعة لوزارة الداخلية واختطاف فتيان يافعين يرمون بهم بعد قتلهم والتنكيل بهم على الطرقات، وأثار التعذيب الهمجي أفضح من أن يقوى إنسان عاقل على تحمل رؤيتها: اليدان مربوطان إلى الوراء والعينان قد قلعتا من جوفيهما. وغالباً ما كان يُفصل الرأس عن الجسد؛ فيصعب تحديد أي رأس ينتمي إلى أي جسد. ولم تتوان الصحف العراقية عن نشر هذه الصور الشنيعة على صفحاتها الأولى لتساهم بعناوينها الكبيرة والتفاصيل الدموية التي توردها بزيادة الاحتقان المذهبي.

وكان يتم نقل بعض الجثث إلى البراد التابع إلى وزارة الصحة؛ وعندما يحضر أهل الضحية لاستلام بقايا الجثمان كانت عناصر من ميليشيا الصدر المسيطرة على الوزارة والبراد يقبضون عليهم ويسوقونهم إلى مستودع الجثث حيث يقتلون إلى جانب أبنائهم. وشيئاً فشيئاً امتلأ براد الوزارة بالجثث التي لا يجرؤ أحد على المطالبة بها. استمر كرنفال الجنون يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر طوال عام 2006. فتقارير الأمم المتحدة تحدثت عن وقوع مئة قتيل في اليوم - ضحايا العنف المتنقل في مدن العراق. وتكدست الجثث في براميل

القمامة أو رميت إلى جانب قنوات الصرف الصحي. وبقي معظمها مرمياً على مفترقات الطرق؛ دون علم الأهل. مشوّهة ومقطّعة الأوصال ومتفحّمة وغير صالحة للتعرف إليها. وبدا كأن مستودع الجثث في الوزارة قد فاض بمحتوياته على شوارع بغداد.

وذاث يوم، بدأ متطوعون حملة جمع الجثث والأطراف المقطّعة من الشوارع لدفنها باحترام. وقاد الحملة رجل مسن يدعى شيخ سوداني من مدينة الصدر التي يقطنها أفقر الفقراء. ورأى الشيخ في هذه الأوصال أجساداً بشرية، لا يهم بشيء إن كانت سنية أو شيعية، مسيحية أم مسلمة. المهم أن تعطى مكاناً تستريح فيه استراحتها الأخيرة. وجرى ترقيم الأوصال وتصويرها، وحفظت المعلومات في أرشيف وزارة الصحة. ثم جرى نقلها في حافلات مبرّدة إلى مدافن الشيعة الواسعة في النجف حيث تم غسل الأجساد ولفها بأكفان على الطريقة الإسلامية وتسجيتها جنباً إلى جنب في قبر حفره المتطوعون بأيديهم، وها هو الموت يوحد كل الناس في ملكوته! وها هي بغداد التي مزقتها الحرب تقدم أبهى مثال على ذلك.

عند وصول سرمد وشروق إلى المكتب ذات صباح؛ قاما بتقديم بلاغ عن غياب علي عن العمل لبضعة أيام. وعلمت أن والد علي وزوجته قد قتلا على يد مجهولين. وكان الزوجان يقيمان في حي بغدادي مختلط لسنوات خلّت ويشعران بالأمان بين جيرانهم.

- ولكن ماذا حدث؟ سألت باستغراب.

- يبدو ان أحد الجيرة بلّغ عنهم للميليشيا السنية؛ هذا ما لمَح إليه علي عندما هاتفني، قالت شروق.

وكان علي قد تلقى اتصالاً بعد منتصف الليل من جار والده السني لينقل إليه خبر الاغتيال ويحثه على تحضير مراسم الدفن. و صباح اليوم التالي، حمل علي جثتي أبيه وزوجته وتوجه بصحبة أمه إلى النجف لإجراء مراسم الدفن والتعازي.

عند عودته إلى العمل كان وجهه أشد سواداً وسوداوية من قبل. لأسابيع وأشهر متتالية غرق علي في حزن شديد وانكب على أوراقه يكتب ويدخن ويصمت.

دوامة من الفواجع ألّمت بزملائنا العراقيين.

كانت تمطر كوارث فوق رؤوسنا؛ والعنف يطاول بمخالبه الحادة زميلاً جديداً كل يوم. عمر من القسم التقني رأى المسلحين يهدرون دم ابنه البكر أمام عينيه. وفدوى، عاملة التنظيفات، كانت تبكي ابتها المقتولة والسائق حسين تسلم جثة أخيه المخطوف لعدم قدرته على دفع الفدية. وأخيراً كريستين، سكرتيرة فون شولنبرغ الذكية بكت كالثكلى عند خطف ابنة شقيقتها.

كانت تتكلم اللهجة العراقية بطلاقة، ولولا عيناها العسلتان لما أمكن تمييزها عن العراقيات. لكن كريستين اليونانية الأصول انتقلت مع والديها إلى العراق في الستينيات بسبب فرصة عمل مغرية حصل

عليها الوالد. وغمرت البجوحة العائلة اليونانية فقررت أن تستقر في بغداد حتى بعد وفاة معيها.

وكانت شقيقة كريستين الوحيدة المتبقية على قيد الحياة قد اقترنت برجل لبناني منذ سنوات وانتقلت للعيش في بيروت.

- شقيقتي الكبرى توفيت بالسرطان. كانت متزوجة من عراقي ولها منه ابنتان؛ لكنه اختار الزواج بعد وفاتها فأخذت على عاتقي الاهتمام بالطفلتين. هما كل حياتي. أنا أعيش اليوم من أجلهما.

- ولماذا أنت باقية في الحرب الدائرة هنا؟ لماذا لا تنتقلين مع الفتاتين إلى اليونان أو إلى بيروت؟

- أرعدت خوفاً لمجرد التفكير أن شيئاً قد يحدث لهما. يجب أن أفكر جدياً بالانتقال من بغداد. لا أملك هنا إلا وظيفتي.

لم يمر أسبوعان على حديثنا حتى حدث ما كانت كريستين تخشاه.

التزمت منزلها ورفضت تلقي الاتصالات، أو قبول المساعدة من أحد. عندما اتصلت بها لأسألها عن حالها قالت إنها بحاجة إلى خدمة صغيرة فقط لا غير.

- قولي ما تريدين. نحن مستعدون للمساعدة.

- أريد الخروج من بغداد. وهذا الأمر يجب أن يبقى سراً.

وروت أن مسلحين خطفوا ابنة شقيقتها البالغة 13 عاماً في طريقها من المدرسة إلى البيت واتصلوا بها بعد يومين لتقديم لائحة شروط.

- لإخلاء سبيل الفتاة؟

- طبعاً. يطلبون 30 ألف دولار أميركي كفدية إضافة إلى ضرورة إخلاء المنزل والانتقال من بغداد. ولا يريد المختطفون تدخل الشرطة بتاتاً.

- ولكن هل تملكين هذا المبلغ؟

- سأضطر إلى بيع كل ما نملك لجمع الفدية. ولكن بعد هذا أريد مغادرة بغداد.

وخلال عشرة أيام كانت كريستين قد أفرغت المنزل ودفعت الفدية واسترجعت ابنة شقيقتها سالمة. ثم قامت بوضع الفتاتين وجدتهما على متن طائرة إلى بيروت. عندما عادت العمل معنا كان فون شولنبرغ قد وجد لها وظيفة في مكاتب البعثة في عمان.

وهكذا؛ غادرت كريستين أخيراً بغداد!

هاتفني سرمد ذات صباح وقال إنه لا يستطيع مغادرة منزله بسبب معارك عنيفة اندلعت مساء في شارع حيفا حيث يسكن؛ وقد سدت الشوارع بدبابات الجيش.

- حسناً، إبق في البيت بانتظار تحسن الوضع.

قراءة منتصف النهار دخل سرمد المكتب.

- أخذت الدراجة الهوائية لأكوّع بين الدبابات؛ قال.

والدراجة الهوائية نادرة الوجود في شوارع بغداد ويقتصر استعمالها على التسلية واللهو. ولعل الحرارة المرتفعة خلال فترات طويلة من

السنة يجعل الدراجة وسيلة غير عملية للتنقل اليومي كما في أوروبا. واقتضت من سرمد دراجته ورحت أدور بها في باحة موقف السيارات، وأنظار الزملاء شاخصة صوبي، وابتسامات عريضة تمتد على شفاههم. لربما كانوا يشعرون بحاجتي إلى الانطلاق بحرية؛ وأنا الحبيسة في هذا السجن الكبير. أو لعلهم استغربوا هذه التصرفات الطفولية وراء مظاهر النضج الزائفة. عدت إلى المكتب بمزاج أفضل واقترح سرمد أن أحتفظ بالدراجة.

- شكراً على العرض، قلت. ولكنني أريدك أن تعود إلى بيتك وتبحث عن مكان آمن لعائلتك.

- سأنتقل إلى بيت آخر؟

- ليس هناك من حل. سيستمرون في القتال حتى يفنوا بعضهم بعضاً. كل فريق يريد السيطرة على بغداد. ألم تسمع بالقول العربي المأثور: إحم رأسك عندما تتغير الدول؟

وركب سرمد دراجته عائداً إلى منزله. حزم حقائبه وأخذ زوجته وابنته إلى منزل والدته. واتصل بي بعد ثلاثة أيام ليخبرني أنه استطاع تأمين شقة صغيرة في أربيل بإيجار مرتفع جداً.

- الأسعار هنا بسعر الشقق في طوكيو ونيويورك، قال متبرماً.

وساءت الأوضاع الأمنية في شارع حيفا يوماً بعد يوم تخللها تطهير عرقي ومذهبي.

وعندما دخلت القوات العراقية إلى الحي لوقف القتال لجأ

الأهالي إلى رفع السلاح بوجهها باعتبار أن القوات الحكومية شيعية. وواجه الجيش ردة فعل السكان بشن غارات على المنازل؛ وتوزع القناصة على السطوح وأطلقوا النار على السكان فقتلوا ثلاثة أمام المسجد السني وآخرين في الشوارع المحيطة. ورمى السكان سلاحهم، ورفعوا أذرعهم عالياً استسلاماً، ثم فتحوا أبواب منازلهم ليغرقوا في حمام دم آخر.

ووضعت تقريراً مفصلاً لحالات العنف الذي أصاب أسرة الأمم المتحدة في بغداد لرفعه إلى المسؤولين النافذين في نيويورك بغرض اتخاذ اجراءات الحماية الضرورية. وأسهب بشرح الأخطار الجمة التي يتعرض الموظفون لها يومياً في طريقهم من وإلى مقر الأمم المتحدة. كانوا يأتون من كل أطراف بغداد: من مدينة الصدر والدورة والأعظمية والشعب والكرادة. ويستقلون أكثر من سيارة تاكسي واحدة لأنه يحدث أن السائقين يخافون القيادة في هذا الحي أو ذاك. والتحفت الزميلات جميعهن بالعباءة السوداء خلال تنقلهن في الشوارع، تجنباً لأي تلاسن مع عناصر الميليشيات على الحواجز المتنقلة.

وجاءت اقتراحات المسؤولين في نيويورك تمنح الموظفين العراقيين خيار الانتقال إلى مقر الأمم المتحدة في المنطقة الخضراء ضماناً لحمايتهم. وصفقنا جميعاً لهذه المقترحات، نحن الذين تعذبنا لعذابهم؛ وقلقنا لسلامتهم وشعرنا بالذنب للأخطار التي تحدق بهم.



وعاد علاء الدين من البصرة وفي قلبه توهج.  
دق باب غرفتي في ساعة متأخرة من الليل وأخذني بين ذراعيه  
- اشتقت إليك؛ همس في أذني.  
كان لا يزال يرتدى السترة الواقية. خلع حقيبة الظهر التي علّق  
بطرفها خوذته الزرقاء. شعره تناثر على جبينه وفي عينيه وميض.  
- لم أقو على الذهاب إلى غرفتي. كان لا بد أن أراك أولاً.  
ومارسنا الحب بوله العشاق المتلهفين بهديان الرغبة الأخيرة قبل  
التلاشي. وعندما طلع الفجر، غرقنا في النوم بين ذراعي بعضنا البعض  
كملائكة الحب في حضرة الموت.

## الأقليات... أول ضحايا العنف

- حبيبي؛ لا تشغل بالك. اعتمد عليّ؛ قلت لعلاء الدين وطبعت  
قبلة على وجنته لأهدئ من روعه.

ونصحتني علاء الدين بعدم المغامرة والذهاب إلى العاصمة  
لللقاء بطريرك الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية عمانوئيل الثالث ديللي  
الذي رقيّ فيما بعد إلى رتبة كاردينال. ورأى أن العنف في بغداد  
يضرب من دون تمييز ولذا يتوجب علينا توخي الحذر. ولكن، كنت  
أريد بكل تأكيد زيارة بغداد مهما كانت المخاطر. فكيف لي أن أجنب  
أمام المغامرة وقد انتظرتها منذ وقت طويل؟

لم نكن نغادر المنطقة الخضراء إلا نادراً. ولم نكن نعرف بغداد  
إلا خطوطاً ونقاطاً على الخرائط. فالمسؤولون في نيويورك كانوا  
يراقبون تحركاتنا بعين النسر، ولا يسمحون لنا بالمغامرة بسلامتنا  
الشخصية مهما كانت الضرورات.

ولكن، في غمرة العنف المذهبي الذي اشتد في العاصمة العراقية  
بعد الهجوم على مقام العسكري في سامراء، كان ضرورياً التنبه إلى

أوضاع الأقليات في العراق. كانوا يعيشون المأساة بصمت، ولم يكن لديهم ميليشيا تحميهم أو تدافع عن حقوقهم.

كنا ثلاثة : فون شولنبرغ وكيش بنجار وأنا. لكن الموكب المرافق لنا كان يتألف من سبع سيارات مصفحة ودبابتين: واحدة في مقدمة الموكب والثانية في المؤخرة. من فتحة الدبابة الأمامية أخرج جندي أميركي نصف رأسه ليراقب الجهات الأربع، وإصبعه على زناد السلاح الأوتوماتيكي.

وتوقف السير فجأة ما إن وقع نظر السائقين على الموكب. انتظروا في طابور على بعد مئات الأمتار، وأشعلوا إشارات الإنذار. فبعد سنتين من الاحتلال كان الناس على ثقة أن القوات الأميركية لن تتردد في إطلاق النار عشوائياً إذا لم يمثل السائقون للتعليمات، وأن الدبابات ستسحق سياراتهم وكل ما يعترض طريقها.

وتوقف المارة هم أيضاً ليتمتعوا بمشاهدة الشخصيات المهمة داخل السيارات الفخمة. وانسحبت النساء المحجبات إلى طرف الرصيف، وكأن الحياة توقفت كلياً إلى حين مرور الموكب.

- هل ترين لماذا أكره الخروج إلى بغداد؟ شيء مخجل فعلاً! قال فون شولنبرغ.

في استقبالنا وقف رهط من الأساقفة في لباس أسود طويل وصلبان كبيرة تزين صدورهم.

وتقدم البطريك خطوة صغيرة باتجاهنا وصافح كلاً بمفرده معرباً

عن تقديره لهذه الزيارة. وقال معاتباً: إن الأمين العام للمنظمة كوفي أنان خلال زيارته الأخيرة إلى بغداد لم يقيم بزيارة المسيحيين، ربما لضيق الوقت. وحاول فون شولنبرغ تبرير هفوة رئيسه وانتقل بالحديث سريعاً إلى الوضع الحالي. اغتياالات بالجملة لرهبان مسيحيين وأساقفة وسياسيين.

- نعيش حالة رعب، قال البطريك. الهجمات المركزة على كنائسنا تهدف إلى حملنا على الهرب. رهبان ومطارنة في نينوى وبغداد يجري تعذيبهم والتنكيل بهم حتى الموت. يطلقون النار عليهم أولاً، ثم يتركونهم يموتون موتاً بطيئاً، وعند انفصال الروح عن الجسد يعرضون أجسادهم أياماً للعموم قبل السماح بنقلها إلى مئواها الأخير. هذا هو النموذج المتبع لدى الأصوليين لقتل المسيحيين عندنا. مدارسنا تتعرض لحملة تدمير ممنهجة، وراهباتنا تغتصبن والمؤمنون يُخطفون وتُقطع رؤوسهم. في نينوى تعرض المسيحيون للتهديد بسبب لباسهم وتصرفاتهم، ومخازن الكحول في نينوى والبصرة وبغداد أغلقت أبوابها بعد موجة تهديد وتفجير طاولتها. والنساء المسيحيات في الجامعات وأماكن العمل يتعرضن للتهديد والإهانة على يد الزعران. الوضع صعب وخطير للغاية. أكثر من 60 بالمئة من المسيحيين في منطقة الدورة تركوا منازلهم هرباً، وتوجهوا إلى السليمانية أو إلى عمان وبيروت.

وقد خلف البطريك عمانويل الثالث دبليي عام 2003 البطريك

روفائيل بيداويد الذي عاش حياة إكليريكية مثالية قضاها في التقرب من الكنيسة الأشورية المشرقية. ولم يحصل قبلاً أن حاول أحد رآب الصدع بين الكنيستين إثر انفصال الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية عن الكنيسة المشرقية عام 1552.

وحدث في القرن السادس عشر أن أصيب رهط من المطارنة باليأس والإحباط بعدما وجدوا أن مقام البطريرك ينتقل بالوراثة بين أفراد العائلة الواحدة. فاختاروا حينها يحانون سالوقا الثامن عشر للمثول أمام البابا وتقديم ولائهم للكرسي الرسولي. ومذآك صار للكنيسة الأشورية بطريركان: واحد يحتل منصبه بالوراثة وآخر بمباركة بابا روما.

والانشقاق داخل الكنيسة الأشورية كان واقعاً لا محالة. بطريرك سالوقا وأتباعه اتحدوا بالكرسي الرسولي وأسسوا كنيسة جديدة للأشوريين اختارت روما تسميتها الكنيسة الكلدانية لتمييزها عن الكنيسة الأشورية القديمة وأعطى البطريرك لقب « بطريرك بابل والكلدان».

والبطريرك ديللي، وريث الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية؛ كان يتحدث إلينا تارة بالفرنسية وطوراً بالعربية.

وكانت حاشيته من رجال دين كاثوليك يضيفون إلى الحديث عندما يتوقف البطريرك الثماني لبرهة ليجمع أفكاره.

- لم يجلب الاحتلال معه إلا الخراب لنا. ففي نظر الميليشيات

نحن مسيحيون كالأيركيين وهذا سبب كاف لنستحق الموت؛ قال الأب ميخائيل. خلال حكم صدام كان المسيحيون يشكلون مليوناً ونصف مليون إنسان. اليوم، لا يتعدى عدد المسيحيين في البلد أكثر من نصف مليون. نحن كنا في هذه الأرض منذ ألفي سنة. ونحن الورثة الشرعيون للحضارات القديمة من السومرية إلى الآشورية فالبابلية. هؤلاء الذين حكموا بالعدل حسب قوانين حمورابي التي تشكل الأساس لمفهومنا الحديث للعدالة.

عاشنا الفتح الإسلامي في القرن السابع وتدمير بغداد على يد المغول في القرن الثالث عشر. وواجهنا احتلال الصفويين لبلاد ما بين النهرين؛ واستعمار العثمانيين. وكان استبداد نظام البعث ظالماً لكننا كنا في أمان. في الحقيقة كنا في حال أفضل خلال حكم صدام.

- نحن متأصلون بجذورنا في هذه الأرض الكريمة منذ الأزل؛ لكن، لا وجود لنا في الجمعية الوطنية باستثناء يوناديم كأننا، المسيحي الوحيد الذي يمثلنا في برلمان يتألف من 275 عضواً؛ ولا أحد لنا في الحكومة. هل تتخيلون مقدار الظلم اللاحق بنا؟ تساءل البطريك منفعلاً.

- كيف حصل ذلك؟ ولماذا؟ سأل فون شولنبرغ.

- المجموعات الكبرى وضعت يدها على السلطة ولا تريد تقاسمها مع أحد. نحن غير راضين عن سياسة التهميش بحقنا. لو أصبح العراق بلداً إسلامياً فسيهاجر كل المسيحيين إلى أوروبا. إنها

مسؤوليتكم الأخلاقية أن تدعمونا لنبقى في أرضنا، في بلاد ما بين النهرين، قال البطريك مختتماً.

منذ السبعينيات نشط يوناديم كاتًا في مناهضة حزب البعث. أسس في السبعينيات من القرن الماضي الحركة الديمقراطية الأشورية التي نالت اعتراف الولايات المتحدة ودعمها. واختاره بول بريمر، المسؤول الأعلى للاحتلال، ممثلًا للمسيحيين في مجلس الحكم الانتقالي، وتم انتخابه لاحقاً عضواً في الجمعية الوطنية. لكن أبواب الحكومة بقيت مغلقة في وجهه؛ الأمر الذي أثار استياء يوناديم.

- ليس هناك من مسيحي واحد في مجلس الوزراء، معقول؟ نحن أجداد هذه الأرض. حتى صدام عيّن وزيراً مسيحياً طارق عزيز. صحيح لم يكن القرار في يده، ولكنه كان ممثلاً للعراق في العالم. اليوم وضع الشيعة والأكراد أيديهم على السلطة ولا يريدون إشراك أحد فيها. هذا مشين.

لم يكن يوناديم يتأخر عن زيارتنا كلما طلبنا لقاءه؛ ولم يهمل علاقاته الممتازة مع المسؤولين في المنظمة الدولية. مما أشاع أجواء ثقة بيننا. لكن يوناديم كان مثيراً للجدل. بعض الأشوريين اتهموه بعدم الاكتراث لهمومهم والعمل لتعزيز مكانته ومستقبله السياسيين. والحقيقة، إن حقوق الأشوريين التاريخية لم تغب عن خطابه وتوجهاته في المحافل العراقية والدولية. فبعد شهرين فقط من

انتخابات كانون الأول/ ديسمبر 2005 اشتكى يوناديم من عدم قدرة البرلمان على حل مشاكل العراق.

- البرلمان الجديد لا يستطيع شيئاً؛ قال. غالبية الأعضاء يركزون على مصالحهم الحزبية والمطلوب الاهتمام بمصالح العراق. الرئيس طالباني وصفهم بالبط السابح في الماء، عندما تبدأ البطة الكبرى بالسباحة في اتجاه معين تتبعها الأخريات بشكل أعمى. وهذا وصف صحيح. ففي انتخابات ديمقراطية صحيحة ينبغي إعطاء الأثوريين خمسة عشر مقعداً برلمانياً على الأقل. فلنتظر الانتخابات المقبلة ونرى!

- لكن يحكى الآن عن إمكانية إعطاء الأثوريين فرصة إقامة منطقة إدارية خاصة بهم في محيط سهول نينوى؟

- هذه خطوة جيدة، نحن نحتاج إلى نوع من محمية لشعبنا. لكن يجب تضمين ذلك في الدستور. لا أظن أن الظروف الحالية مؤاتية لتحقيق هذا الحلم خصوصاً أن الأكراد في الشمال لن يسمحوا بذلك. هم يريدون السيطرة على كل الشمال ولا يرغبون بمحمية مسيحية ولا من يحزنون! قال وهو يسرع إلى جلسة برلمانية طارئة.

ولم يكفّ الأثوريون يوماً عن المطالبة بمنطقة حكم ذاتي في الشمال العراقي. وبعد الغزو الأميركي وجد أشو مجيد هدايي، المسؤول عن تجمع السريان المستقلين، أن الفرصة مؤاتية لتحقيق هذا الحلم. فكتب رسالة إلى الجمعية الوطنية في تشرين الأول/ أكتوبر



من عام 2006 طلب فيها إعطاء الأثوريين والكلدان والسريان إدارة محمية في محيط سهول نينوى. ولكن هدايي اغتيل بعد شهر تقريباً من تاريخ الرسالة، ولا تزال ظروف اغتياله غامضة رغم أن مناصريه وجهوا اتهاماً سياسياً للحزبين الكرديين بالضلوع في العملية.

ذات صباح من صباحات شباط وصل عصام متأخراً إلى المكتب، وكانت تبدو عليه علامات الإرهاق والأسى. وعندما أصررنا على معرفة السبب؛ أخبرنا أنه عاش ليلة دراماتيكية حفرت أحداثها آثاراً لا تمحى في ذاكرته: ففي منتصف الليل جابت شاحنات مؤلفة الطرقات بينما اقتحمت عناصر مسلحة البنايات؛ دقوا على كل الأبواب؛ كسروها واقتحموها. وجهوا سلاحهم صوب رؤوس السكان ونبحوا في وجوههم:

- هل أنت فلسطيني؟ هل أنت فلسطيني؟ ماذا تفعل بعد في

بغداد؟

وأصيب السكان بالصمم والبكم، وعجزوا عن الحركة. فدفعهم المسلحون أرضاً وركلوهم بأقدامهم، فتدحرجوا فوق السلاالم ورموا بهم كالنفايات في مؤخرة الشاحنات وهم يثنون وجعاً ويرتجفون خوفاً. وأضاف عصام ونحن عيون مسّمة عليه وآذان تلتقط أصداء العويل الذي ملأ المبنى الذي يسكنه:

- استمرت الغارة لساعات. صراخ الأطفال ملأ سماء بغداد؛ وصلوات المسنين بلغت ضمائر المتفرجين الذين لم يجرؤوا على التلفظ بحرف. عدت إلى فراشي بعد رحيل الشاحنات المحملة بالفلسطينيين ولكن لم يغمض لي جفن طوال الليل. كنت أبكي ما آلت إليه بغداد.

لم يكن هذا الهجوم هو الأول ضد الفلسطينيين لكنه بلا شك الأكثر دراماتيكية. فبعد سقوط صدام تعرضت الأقليات الفلسطينية في بغداد للتهديد. عائلات تم طردها من بيوتها بعدما طفح كيل أصحابها من نظام الإيجارات المخفضة الذي خصص به الفلسطينيون خلال حكم صدام.

- بعض العراقيين ينظر إلى الفلسطينيين كالضيف الثقيل الظل الذي فرض نفسه بسلاح صدام على أهل البيت، شرح عصام. وأصحاب البيوت يرغبون باستعادة عقاراتهم إما للاستعمال الشخصي أو لإعادة تأجيرها بأسعار أفضل.

وكان عصام يسكن في حي البلديات حيث يعيش أربعة آلاف عائلة فلسطينية. وكانت شوارع الحي امتلأت بملصقات تحث الفلسطينيين على الرحيل خلال عشرة أيام؛ فيما مسلحون من مدينة الصدر ما انفكوا يهاجمون المنطقة بعد منتصف الليل لبث الذعر في قلوب السكان وإجبارهم على الرحيل.

أكثر من 600 فلسطيني قتلوا منذ الغزو الأميركي للعراق، روايات

مؤثقة تحدثت عن تعرضهم للتعذيب بالتيار الكهربائي. واشتدت الحملة ضدهم أضعافاً بعد الهجوم على المسجد الذهبي واعتراف ستة فلسطينيين بالضلوع في عملية التفجير.

ناطق باسم جيش المهدي أوضح لوسائل الإعلام العراقية أن الفلسطينيين مسؤولون عن المصاب الذي ألمّ بهم.

- نحن مقتنعون أن الفلسطينيين على تواصل مع القاعدة. وهم مسؤولون عن مقتل عدد من الشيعة. وقد حان الوقت للتكفير عن جرائمهم. هم اقتاتوا من دمنا خلال حكم صدام. كنا جائعين حين كانوا متخمين. الآن يجب أن يتركوا العراق، وإلا فسيكلفهم ذلك غالباً.

وكان الفلسطينيون قد أتوا إلى العراق على دفعات وبلغ عددهم الثلاثين ألفاً. ورحب بهم صدام حسين، لا سيما أولئك الذين هربوا من الكويت بعد الحرب، فمنحهم ضمانات طبية وتعليماً مجانياً وسكناً مدعوماً. وحصلوا على الوظائف وعلى جوازات سفر سهّلت لهم تنقلاتهم. وتمتع الفلسطينيون بالحقوق نفسها التي منحت للمواطنين العراقيين وبالبحبوحة المادية، وكثيرون منهم انضموا إلى حزب البعث.

وزادت شعبية صدام حسين بين الفلسطينيين حينما وعد بدفع 20 ألف دولار لكل عائلة فلسطينية يسقط لها شهيد في المواجهة مع العدوان الاسرائيلي. وكان العراق قد دفع مليار دولار أميركي ثمن أدوية وطعام للفلسطينيين خلال الانتفاضة الثانية في وقت كانت فيه

شرائح كبرى من الشعب العراقي تعيش تحت مستوى الفقر، الأمر الذي أثار حفيظة الطبقات الكادحة في البلاد.

عند سقوط نظام صدام وجد الفلسطينيون أنفسهم في وضع دقيق. فوضعهم القانوني كان يلفه الغموض والتقديمات الكثيرة التي أغدقها عليهم صدام قد أخذت تتبخر شيئاً فشيئاً. في الواقع؛ بدأوا يشعرون بعداوة مفاجئة يبادلهم بها العراقيون الذين باتوا على قناعة أنهم متورطون بتدبير الانفجارات في بغداد.

وجاء الاعتداء على المسجد الذهبي في سامراء والاتهامات غير الدقيقة بتورط عناصر أجنبية لتضع الفلسطينيين مجدداً في عين العاصفة. تقارير الأمم المتحدة تحدثت عن تعرض مئات الفلسطينيين الأبرياء للخطف والتعذيب والقتل على يد ميليشيات مسلحة. آخرون تدمروا من سوء معاملة الدوائر المختصة لهم عند تقديم طلبات تجديد إقامتهم مرة كل شهرين، علماً أنهم لم يكونوا يحتاجون للإقامة سابقاً. وفهموا أنه لم يعد مرحّب بهم في البلاد.

وامتلات الشاحنات بالفلسطينيين المبعدين عن بغداد. بعضها سلك الطريق المؤدية إلى سوريا، والبعض الآخر باتجاه الأردن. سوريا رفضت السماح لهم بالدخول؛ فانتظروا في منطقة حدودية لا تنتمي لأي من البلدين. الأردن رفض هو الآخر استقبال اللاجئين الجدد فعادوا أدراجهم إلى العراق. والكارثة البشرية كانت على الأبواب.

دخلت الأمم المتحدة في مفاوضات مع سوريا والأردن. وبعد أشهر من الأخذ والرد قبلت سوريا استقبال الفلسطينيين كلاجئين. شجعت عصام على الانتقال من البلديات حيث لا تزال العائلات الفلسطينية ترفض مغادرة بيوتها.

- قد تعود الميليشيات إلى الحي لطرده ما تبقى من الفلسطينيين.

حاول أن تجد حياً آمناً، قلت.

- أنا تعبت من بغداد. لا توجد زاوية هادئة في أي مكان من هذه

المدينة.

وخلال أسابيع قليلة وجد عصام وظيفة في كردستان فانتقل إلى

الشمال.

لم أكن أعرف الكثير عن اليزيديين عندما التقيت بالدكتور تامر زيدان في فندق الرشيد. كان قليل الكلام، يجلس وحيداً في أغلب الأوقات. ثم أوضح لي مرة أنه يعمل مستشاراً لدى رئاسة الوزراء في ملف الأقليات لفترة لا تتعدى بضعة أشهر. كان يعمل طبيباً في ألمانيا حيث يعيش بمعية زوجته وابنته. وعندما سألته عن مسقط رأسه العراقي، أجاب باقتضاب: إنه يزدي من شمال العراق. ثم أضاف بعد برهة:

- لم تجيبي كما يجيب الناس العاديون؟

- وماذا يقول الناس العاديون؟

- ينتفضون عادة ويقولون: آه يعني أنت من عبدة الشيطان؟

- ماذا؟ يا إلهي!

وضحكنا طويلاً لردة فعلي العفوية كما توقعها تامر والتي تكشف خوفاً غريباً من الشيطان - مصدر كل الشرور في العالم. كنت أعرف أن اليزيديين أقلية عراقية ولكن لم أكن على اطلاع بهذه الوصمة الشيطانية.

- رواية الخلق اليزيدية لا تختلف عن القصة المسيحية واليهودية والإسلامية؛ قال تامر. الله خلق الملائكة، ثم خلق الأرض وبعد ذلك جدنا آدم. وكان الملائكة يلعبون دور الوسيط بين آدم والله. أحد الملائكة تمرد يوماً على الله. تروي الديانات السماوية الثلاث أن الله طرد الملاك المتمرد من الجنة؛ فُسمي بالشيطان. في الرواية اليزيدية يسأل الله الملاك المتمرد لماذا لم يطعه؛ والملاك أجاب: إنه لم يكن ليستطيع أن ينحني لآدم، فقط لله! وسرّ الله بهذه الإجابة فنصبّ الملاك المتمرد رئيساً للملائكة، وسمي أزازيل أو ملاك الطاووس. هذه الفروقات الدرامية في الرواية اليزيدية أدت إلى وصم أتباع هذه الديانة بعبدة الشيطان من قبل الديانات السماوية الأخرى. والمفارقة، أنه لا ذكر للشيطان في الديانة اليزيدية، ولا أثر للجنة أو لجهنم.

ديانتنا تستعين بمبادئ من الزرادشتية؛ وتؤمن بالتقمص كالهندوسية، وبالعمادة كالمسيحية، وعندما نصلي ندير وجهنا صوب

الشمس كالزرادشتيين؛ ونستلهم تعاليم الصوفية ولكننا لا نتألف مع الإسلام. ولا تسمح اليزيدية بالزيجات المختلطة. ولا يجوز الزواج في نيسان أو ارتداء اللون الأزرق لأنه لون مقدس. وتقوم هذه الديانة على ثلاثة مبادئ: كلمات حسنة ونوايا حسنة وأعمال حسنة.

- أنتم اليزيديون أسوأ المفكرين الأحرار بنظر القاعدة. أليس كذلك؟ قلت مستوحاة. فأنتم لستم فقط غير مسلمين، ولستم فقط عبدة الشيطان بنظرهم، بل أيضاً قوم لا يعيرون الديانات السماوية الإجلال الكافي.

ضحك تامر وأوماً موافقاً.

ورغم الممنوعات والمفاهيم غير التقليدية التي تكتظ بها اليزيدية، إلا أنها ديانة وجدت منذ أربعة آلاف سنة في العراق. أتباعها يعيشون في سنجار، إلى الجنوب الغربي من الموصل، على الحدود بين العراق وسوريا وفي القرى المجاورة لنينوى. في القرن السابع عشر كان اليزيديون يزيدون على المليون شخص. اليوم انخفض عددهم إلى النصف مليون. كثيرون هاجروا هرباً من حملات التهديد والضغط التي تعرضوا لها عبر التاريخ، وآخرها على يد القاعدة والميليشيات الشيعية.

خلال حكم صدام عانى اليزيديون الظلم والإهمال، وكانوا يعيشون في ظروف بدائية إذ قطعت عنهم المياه والكهرباء، وحرموا التعليم المجاني والخدمات الطبية؛ وذلك لرفضهم الانخراط في

حملات التعريب التي فرضها صدام حسين والخضوع لمطالبه بتسجيل أنفسهم كعرب.

- الآن تبدلت الأدوار، حيث يمارس الأكراد ضغوطاً على اليزيديين لتسجيل أنفسهم كأكراد، قوات البشمركة تسيطر على قراهم، والحكومة الكردية تقوم بتجميد الأموال المخصصة لمناطق اليزيديين وتحولها إلى المناطق الكردية. فبلدة الجزيرة مثلاً المكونة من خمسة وعشرين ألف نسمة، لا يوجد فيها سوى مدرستين ابتدائيتين وستة أساتذة يعملون ثلاث نوبات في اليوم ليتسنى لألف طالب تلقي التعليم. كما وأنه ليس في المدينة ثانوية واحدة؛ فهل تخيلين أي مستقبل ينتظر الشبان في هذه المناطق؟ سأل تامر.

وفي انتخابات كانون الأول/ديسمبر 2005 شعر اليزيديون بالتهميش السياسي؛ فبعض القرى لم تصلها بطاقات انتخابية؛ وأخرى وصلتها البطاقات ولكن لم تتوافر فيها مراكز اقتراع. وبعض المراكز فتحت فترة ثلاث ساعات فقط في اليوم. هذه التجاوزات أُبلغت إلى الهيئة العليا للانتخابات؛ ولكن دون جدوى.

ولا يملك اليزيديون أي تمثيل يذكر لا في البرلمان ولا في الحكومة. ومنذ سقوط حكومة صدام حسين في بغداد بدأت عملية كردنة شمال العراق ولا تزال مستمرة.

- اليزيديون يريدون الاحتفاظ بهويتهم المستقلة. هم ليسوا عرباً وليسوا كرداً. ليسوا مسلمين ولا عبدة الشيطان. هم يرون العالم على



طريقتهم؛ ويريدون الحفاظ على ثقافتهم وأسلوب حياتهم. هل هذا كثير على أقلية عاشت في هذه الأرض لآلاف السنين؟ سألت تامر. وذات يوم أخبرني تامر أنه استقال من مكتب رئيس الوزراء وقرر العودة إلى أوروبا. فالمهمة الاستشارية التي جاء من أجلها إلى بغداد فقدت معناها في ظل الإهمال والجهل المسيطرين على المؤسسات. والظروف ليست ناضجة لفرض إصلاحات لا سيما وأن البيئة السياسية السائدة لا تشجع على حماية الأقليات؛ والمسؤولون فيها لا يفهمون أن ذلك من مسؤولية الحكومة.

وهبت عاصفة رملية على بغداد.

ارتفعت الرمال عن الأرض دوائر دوائر ولطمت وجهي بقوة السوط؛ فالتصقت حبيباتها على شعري وشفتي. وغطت الرياح المشبعة بالغبار الكثيف السماء، فأغلقت النوافذ والأبواب ووضعت كمامة حول أنفي وفمي. كنت أخشى على نفسي من أزمة ربو جديدة. وفي خضم العاصفة اتصلت صونغول شابوك، المرأة الوحيدة التي احتلت مقعداً في مجلس الحكم الانتقالي. ووقع اختيار بول بريمر عليها لتمثيل التركمان الذين كان يعتبرهم مجموعة هامشية وطائرة على المجتمع العراقي. وصونغول لم تكن تملك خبرة سياسية أو قاعدة انتخابية، ورغم ذلك تم اختيارها لتمثيل التركمان في المجلس الانتقالي.

وصلت باكراً إلى المقر برفقة سائقها. سيدة أنيقة وعصرية،

خسرت في الانتخابات الأخيرة لكنها لا تزال ناشطة من خلال الجبهة الوطنية التركمانية.

- من لائحتنا لم ينجح إلا رئيس الجبهة؛ قالت. أما التركمان الثمانية الآخرون في البرلمان فقد حصلوا على مقاعدهم عبر لوائح الأحزاب الأخرى.

- مذهل! قلت. أنتم الأقلية الوحيدة في العراق التي تملك تسعة ممثلين في البرلمان.

- أقلية؟ نحن لسنا أقلية في هذا البلد ولا نريد أن نوضع في هذه الخانة.

- ولكن كم عدد التركمان هنا؟

- لا أحد يعرف... ليس هناك إحصاء سكاني موثوق به.

جاء التركمان إلى العراق على دفعات. خلال الحكم العباسي انتسبوا إلى جيش الإمبراطورية ودافعوا عنها بشجاعة مشهود لها في كتب التاريخ؛ واستمروا بالتدفق خلال حكم السلجوقيين ومن ثم العثمانيين من مناطق محيطة بأذربيجان وتكلموا التركية بلكنة أهل آسيا الوسطى. واستقر التركمان في كركوك ونيوى والمناطق المحيطة.

عندما تفتت السلطنة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى طلبت تركيا أن تعطى نيوى إلى الأكثرية التي تسكن المنطقة وهي من أصل تركماني. واحتج كمال أتاتورك، أبو الأتراك، بقوة عندما وضعت نيوى تحت سلطة الاستعمار البريطاني للعراق.

عاش التركمان بسلام في منطقة تمتد من تلعفر إلى مندلي المحاطة بالسكان العرب في الجنوب والأكراد في الشمال. لم يتمردوا قط على حكومات بغداد ولم يطالبوا بإقامة دولة مستقلة لهم. اهتموا بالتعليم ونجحوا في التجارة وعملوا على إنجاح صيغة العيش المشترك. ينتمي نصفهم إلى المذهب الشيعي والنصف الآخر إلى السنة؛ لكنهم في غالبيتهم علمانيو النزعة في تفسير العلاقة بين الدين والدولة.

- نحن نعتبر أنفسنا عراقيين، وبعكس القوميات الأخرى نريد ونعمل لعراق موحد. أسوأ شيء قد يحدث هو تقسيم العراق بين شمال وجنوب؛ قالت صونغول.

- والعلاقة الخاصة التي تربطكم بتركيا؟

- تربطنا بالأترك لغة وعرق مشتركان. لكن تركيا تساند أيضاً عراقاً موحداً. ومحاولات الأكراد للانفصال تخيفنا وتقلق تركيا.

ما يغيظ التركمان ويؤلمهم أن العراق لم يعترف بهم قط كمجموعة أساسية في التكوين السكاني للبلد. ولم تتضمن الدساتير العراقية عام 1925 أو في النسخة المعدلة عام 1943 أية إشارة إلى التركمان. المادة الإيجابية الوحيدة أكدت أن كل المواطنين متساوون أمام القانون بغض النظر عن العرق واللغة والدين. وفي الدساتير اللاحقة أشير إلى العرب والأكراد فقط كمجموعات أساسية في البلد فيما اعتبر التركمان من الأقليات. وفي ظل حكم البعث حصل التركمان على حقوقهم الثقافية وحق التعليم والنشر بلغتهم. وتقرب منهم صدام عندما احتاج دعمهم

لإخماد حركات التمرد الكردي وأهمهم عند استتباب الأمن في الشمال العراقي.

وقصدت الكافيتيريا التابعة للبرلمان لألتقي برلمانيين تركمان اعتادوا ارتيادها لتناول القهوة أو الغداء معاً. كانوا يتحدثون التركية ويناقشون مسائل مشتركة مترفعين عن انتماءاتهم الحزبية الضيقة التي كانت تتمدد على طول المشهد السياسي العراقي من الائتلاف الشيعي إلى التكتلات العلمانية.

- ننتمي إلى أحزاب مختلفة، ونصوت كل حسب قناعاته؛ ولكننا جميعاً تركمان، قال نائب عن المجلس الشيعي الأعلى للثورة الإسلامية.

- ولكن كيف حصل ذلك؟ أنتم تسعة نواب في البرلمان ولكم وزير في الحكومة. وهذه أعلى نسبة تحصل عليها أقلية في هذا البلد.

- لو ترشحنا جميعاً عن لائحة الجبهة التركمانية لما حصدنا هذا العدد من المقاعد، قال نائب آخر من المجلس الأعلى للثورة.

- ولكن تسعة ليس كثيراً، قال نائب ثالث. كم حصد الأكراد من المقاعد؟

- 53 قلت.

- إذاً، هناك فرق شاسع بيننا وبينهم في عدد المقاعد. ولكن نحن نعمل لعراق موحد وهم يجهدون بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ضد الحكومة وضد القوميات الأخرى للاحتفاظ بالحكم

الذاتي والانفصال لاحقاً عن العراق، قال نائب عن تيار الصدر. نحن نريد العيش بسلام مع العراقيين لكننا كنا دائماً عرضة لسياسات الإرهاب. في البداية مع صدام وحملة التعريب، والآن مع الأكراد. ولأن الأميركيين غاضبون من تركيا لرفضها السماح لهم باستعمال أراضيها في مهاجمة العراق فإن الولايات المتحدة تعاقبنا بدعم الأكراد ضدنا.

لقد وقع التركمان ضحية مرتين. مرة عند تعريب كركوك ومرة عند كردنتها. وتركيا أعلنت صراحة أنها تراقب التطورات العراقية وأنها لن تتوانى عن تقديم الدعم الكامل للتركمان. لكن المشكلة تكمن في تبعر التركمان وتشتتهم السياسي. فالشيعة منهم التفوا حول الأحزاب الشيعية؛ والسنة حول الجبهة الوطنية التركمانية التي حصدت مقعداً واحداً فقط في البرلمان. وكل المحاولات السابقة واللاحقة لجمع التركمان تحت مظلة سياسية واحدة وتشكيل سياسة تركمانية مشتركة محكومة بالفشل.

وفي ورشة التحضير لمؤتمر الأمم المتحدة عن الأقليات العراقية، أُسندت إليّ مهمة وضع تقرير عن أوضاعهم وتقديم توصيات في كيفية معالجة التهميش اللاحق بهم.

وفي هذا الإطار قمت بالتعرف إلى أصغر هذه الأقليات العراقية وأقدمها: وهي الصابئة أو المندائيون الذين يؤمنون بيوحنا المعمدان

مسيحاً لهم، وبرسالته الإلهية لتحرير الإنسانية. مارسوا طقوسهم وعاداتهم لآلاف السنين لكنهم لم يتقوقعوا، بل سكنوا في الأحياء المختلطة لبغداد؛ وعملوا من أجل تأمين التعليم لأولادهم والنجاة لعائلاتهم. مؤخراً أصبحوا عرضة لعمليات خطف وقتل.

وكشف لي الشيخ ستار جبار، مسؤول التجمع المندائي في بغداد، أنه من أصل 75 ألف مندائي لم يبق في العراق أكثر من 15 ألفاً. فبعد الغزو هاجر معظمهم إلى أوروبا وأستراليا وسوريا.

في الافتتاح تلا السفير أشرف قاضي كلمة أكد فيها التزام الأمم المتحدة دعم الأقليات والدفاع عن حقوقهم. وبحضور سفراء وديبلوماسيين أوروبيين ومسؤولين عراقيين قدم الخبراء تقارير عرضت للعنف والتطهير العرقي والديني اللذين يهددان بإبادة الأقليات في العراق.

وأجمع الحاضرون أن حجر الأساس في ازدهار الدول هو اعتماد سياسة وطنية ترى في الأقليات مصدراً للثروة والتنوع. فالمجتمعات المتعددة لا تنهض إلا باعتماد سياسة منفتحة ومتسامحة. وأقل ما يمكن للحكومات أن تفعله هو توفير الأمن وإعطاء الأقليات مساحة تمثيلية في مؤسساتها وضمّان حقوقهم المدنية والدستورية، خصوصاً عندما يكون العنف الذي يستهدفهم عنيداً، وفظاً ومميتاً ويهدف إلى إبادتهم وإبادة ثقافتهم عن بكرة أبيهم.

## سياسيون يحتفلون

- ستنفجر حرب أهلية حقيقية في العراق إذا لم تتوقف الحكومة العراقية عن وضع العصي في الدواليب في مسألة كركوك؛ توعد رئيس إقليم كردستان مسعود بارزاني للمرة الخمسين.

التهديد والوعيد كانا أسلوباً اعتمده بارزاني في توجهاته مع الحكومة المركزية في بغداد التي اتهمها بمعية لاعبين إقليميين بالتسويق في مسألة كركوك والاستفتاء المتفق عليه في الدستور والذي سيحدد مصير كركوك كجزء من كردستان أم لا.

عندما سمع الزملاء وعيده هذا في بدايات عام 2006 وكانت الحرب الدائرة في الشوارع تحصد مئة قتيل يومياً، رفعوا حواجبهم تعجباً:

- ما الذي يعنيه بركم بحرب حقيقية؟

هذا الرئيس الصاخب والمتوعد كان ضيف شرف الحفل الذي نظمه السفير قاضي لمناسبة وجود الرئيس بارزاني في زيارة قصيرة في بغداد. ودعت قيادات سياسية للمشاركة في تكريم ضيف الشرف الذي دخل فيللا السفير أشرف قاضي مرتدياً، على غير عادة، بذلة

وربطة عنق بدلاً من الزي الكردي التقليدي. وجلس في صدر القاعة صامتاً. على شفثيه ارتسمت ابتسامة تحمل أسراراً ونظراته تجول في المكان وتسجّل أدنى التفاصيل بدقة متناهية. والمفارقة أن الرجل الذي اعتدنا على سماع تهديداته وعويله بين الفينة والأخرى جلس بيننا هادئاً، خجولاً، لا ينبس ببنت شفة.

ومسعود هو الإبن الرابع للملا مصطفى بارزاني، الشخصية الوطنية الموقرة في التاريخ الكردي الذي قيّد له أن يخلفه في قيادة الحزب الديمقراطي عام 1979. وما لبث أن اشتهر بميله إلى الانتهازية السياسية واستعداده لقبول المساعدة من أي جهة أتت: من الروس والأميركيين والإيرانيين غالباً والأتراك وصدّام والإسرائيليين.

من بين المدعوين إلى الحفل برز مثال الألوسي، أحد أهم السياسيين العراقيين الذين عُرفوا بنزاهتهم ونظافة كفهم. سنيّ مستقل وعلماني قضى حياته في المنفى الألماني وكان يتكلم الألمانية بطلاقة. استُهدف من قبل المتمردين الأصوليين بعد زيارته المشؤومة إلى فلسطين المحتلة عام 2004 ونجا من محاولتي اغتياله؛ لكنه فقد في إحداهما ولديه. كان محترماً من غالبية أفراد الشعب العراقي على اختلاف انتماءاتهم الطائفية لصراحته ورفضه للمذهبية والفساد الإداري. كان يقف وسط القاعة بصحبة رئيس الحزب الشيوعي مجيد موسى وزميلتي خالدة وبدوا في انسجام كلي وهم يشربون النبيذ ويناقشون التجارب العلمانية في التاريخ العراقي، فانضمت إليهم.



- الحزب الشيوعي العراقي كان الأقوى بين الأحزاب الشيوعية في المنطقة، أليس كذلك؟ سألت.

- طبعاً خلال عهد الملكية امتلأت السجون العراقية بالشيوعيين؛ وكانوا في غالبيتهم من المثقفين والمفكرين الذين لعبوا دوراً مهماً في إدخال نظام تعدد الأحزاب إلى العراق في الخمسينيات. وازدهرت الحياة السياسية وغصت الشوارع بالشيوعيين والناصرين والعرب الوطنيين والبعثيين. الكل تعارك مع الكل، والانقلابات العسكرية تعاقبت، لكن كل ذلك جرى بروح علمانية، بعيداً عن الدين والطائفية بعكس اليوم حيث تسيطر قوى رجعية على الشارع السياسي؛ قال الألووسي.

- ولماذا تعاركتم ضد البعث وهو حزب علماني مثلكم؟

- عند وصول البعث إلى الحكم بعد الانقلاب في الستينيات كانت العلمانية مذهبه لكن البعث فقد هويته الأيديولوجية مع مرور الزمن وأصبحت الدولة نادياً خاصاً للتكريتيين. كان صدام قاتلاً منصفاً إذ لم يكن من فرق عنده بين السنة والشيعة. كان يطلب ولاءً مطلقاً تجاهه شخصياً وتجاه حزبه. بعد الثورة الإيرانية بلغ قلق صدام من تصاعد الراديكالية الشيعية ذروته خصوصاً عندما بدأت إيران تسلح وتمول أحزاباً إسلامية كال دعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية اللذين وقفنا إلى جانب إيران خلال الحرب العراقية - الإيرانية؛ قال موسى.

- هل يعني أن سقوط البلاد في عنف مذهبي اليوم جاء نتيجة لخطأ اقترفه صدام في الماضي؟

- نوعاً ما. صدام استبدل القوى العلمانية كالشيوعيين، والوطنيين والديمقراطيين برجال الدين ورؤساء العشائر الذين أمنوا لحكمه سيطرة كاملة على كل قطاعات المجتمع. ثم حدث أن عاد عراقيو المنفى، وأحزاب كال دعوة والمجلس الأعلى للثورة، ونشروا سياسة طائفية بين الناس. ولم يكن يوجد على الأرض قوى تستطيع مواجهة تطور الأمور بهذا الاتجاه، لأن صدام شتت العلمانيين ونكل بهم. فلم يكن يخطر ببال أحد أن سقوط نظام صدام يمكن أن يتسبب بتسونامي سياسية بهذا الحجم؛ أضف الألوسي.

وكان الضيوف بانتظار سفير الولايات المتحدة زلماي خليل زاد للجلوس إلى المائدة. وعندما وصل رحّب به الحاضرون كما لو كان ضيف الشرف في هذا الحفل وليس بارزاني. وكان السفير الأميركي جهوراً، ممتلئاً بنفسه. يتكلم بصوت عال ويتصرف كما لو كان نجماً هوليوودياً، علماً أنه مفكر من الطراز الرفيع، وقد نشر كتباً عدة في السياسة والعلاقات الدولية. وجلس خليل زاد في وسط الطاولة المستطيلة، في مواجهة مضيفه السفير قاضي وحواليهما أخذ المدعوون الآخرون مقاعدهم.

وصل خليل زاد إلى بغداد في حزيران/يونيو عام 2005 ليُعنى بعملية سياسية معقدة راحت تنزلق في الاتجاه الخطأ منذ البداية.

الرئيس جورج بوش كان اختاره قبل عامين ليساعد بول بريمر الذي افتقد إلى معارف أساسية عن الشرق الأوسط والعراق، والذي كان خليل زاد يعرفه منذ السبعينيات خلال سنوات دراسته في الجامعة الأميركية ببيروت.

لكن خليل زاد رفض المهمة كمساعد لبريمر ليُعين سفيراً للولايات المتحدة في أفغانستان حيث لعب دوراً حاسماً في صياغة الدستور الأفغاني، وفي تنظيم الانتخابات الأفغانية الأولى بعد الغزو، وبتنخاب صديقه الصدوق حميد كرزاي رئيساً للجمهورية. واستطاع نظراً لأصوله الأفغانية وخبرته بالمجتمع الأفغاني ودائرة معارفه الواسعة أن يحقق إنجازات كثيرة خلال فترة قصيرة نسبياً.

أتى خليل زاد إلى بغداد بعدما ارتفعت حدة الانتقادات داخل الإدارة الأميركية ضد بريمر الذي كان قد زرع أولى بذور الحرب الأهلية.

خلال العشاء تحدث المدعوون عن الصراع بين الولايات المتحدة وإيران.

- إيران تريد أن ينتصر الشيعة. نحن أيضاً نريد ذلك لأنهم المجموعة الأكبر في العراق. لكننا نريد ضمان حقوق العراقيين الآخرين، أوضح خليل زاد. إيران تريدنا أن نغادر العراق لأنهم يخشون من أن نستعمل أراضي العراق لنهاجمهم. ويخشون أيضاً أن تكبر قوة

العراق فيحل محل إيران في دورها الإقليمي المؤثر. لكل هذا أريد تشجيع السنة للانضمام إلى العملية السياسية.

- إلام ستؤول الأمور في الحكومة المقبلة؟ سأل الألووسي.

- نتظر من السنة ومجموعة علاوي أن يقبلوا بنتيجة الانتخابات

لتبدأوا بمناقشة شكل الحكومة المقبلة؛ أجب خليل زاد.

- نعرف أنك تعمل لحكومة وحدة وطنية تمثل كل الأطراف.

نحن أيضاً نريد ذلك. ولكن كيف ستمكن حكومة كهذه من العمل على

الأرض؟ تساءل رئيس حكومة تصريف الأعمال ابراهيم الجعفري.

- سنرى. يجب أن نتعاون في البحث عن حلول سلمية؛ أجب

السفير الأميركي.

لم تكن قد مضت سنة للدكتور ابراهيم الجعفري على توليه

منصبه حتى تحول إلى رئيس لحكومة تصريف الأعمال. كان يخشى

ألا تتم تسميته مجدداً لرئاسة الحكومة الجديدة. وكانت مخاوفه في

محلها! فالعراقيون السنة كانوا يشككون بنواياه الطائفية كونه رئس

لسنوات طويلة حزب الدعوة الإسلامي، ويملك علاقات ممتازة مع

إيران ويرتبط بعلاقات عائلية مع آية الله العظمى علي السيستاني؛

ويروج للشريعة الإسلامية كحجر أساس في الدستور العراقي.

أما الأكراد فكانوا يهتمونه بتجميد المدفوعات المخصصة لمنطقة

کردستان، ويعرقله عملية التطبيع في كركوك المنصوص عنها في

الدستور والهادفة إلى نزع طابع التعريب الذي انتهجه صدام. ولكونه لم يفعل ما فيه الكفاية لإرضائهم.

كانت الأرض تهتز تحت أقدام الدكتور الجعفري. ومع ذلك جاملناه وأخذنا صوراً فوتوغرافية معه ومدحنا شعره الموزون ومعارفه العميقة باللغة العربية. ولكننا كنا نعرف، كما كان هو يشعر في قرارة نفسه، أن مصيره السياسي بات في يد الأميركيين الذين عملوا دوماً للتخلص منه لعناده المعروف واستقلالية قراره السياسي.

وفي الامتحان الأميركي سقط سياسي آخر هو أحمد الشلبي الذي حصد فشلاً ذريعاً في الانتخابات الأخيرة. كان يرأس هيئة اجتثاث البعث بتطرف ومبالغة كمن أصابه مس. «لولا الشلبي لما كان للحرب من وجود في العراق»، ردد سياسيون ممن كانوا على اطلاع على أكاذيبه في واشنطن بضرورة التخلص من صدام وتحرير الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل وتنظيم القاعدة. وتلقى الشلبي وحزبه مساعدات أميركية طوال 15 سنة مدعياً أنه يقاوم صدام. وعندما تكشفت ألعابه في البيت الأبيض وتبين أنه زرع معلومات كان يتلقاها من الاستخبارات الإيرانية التي لاتزال تربطه بها علاقات جيدة، كانت المنطقة تشتعل حرباً ودماراً والأميركيون في قلب العاصفة.

وقد سُمع الرئيس جورج بوش يقول لملك الأردن عبدالله في لقاء جمعهما في واشنطن عام 2005.

- يمكنك أن تبول على الشلبي.

اعتاد الشلبي أن يغيّر مواقفه ومواقعه بما يتناسب ومتغيرات الأوضاع. يتأرجح بين العلمانية والشيوعية المتدبنة حسب الظروف؛ الأمر الذي أفقده صدقيته بين الناس. يتباهى أنه أسس امبراطورية من أربعين شركة في العالم بفضل ذكائه اللامع؛ هذا الذكاء الذي أملى عليه أيضاً أن السياسة هي أداة لكسب المال. فالسياسة هي نوع من أنواع البنزنس (الأعمال) والبنزنس يهدف إلى كسب المال. لائحة إنجازاته في لبنان ولندن وهونغ كونغ وسويسرا كانت ملطّخة بعمليات إفلاس واحتيال وتبذير أموال ورشاوى؛ على حساب شقاء وحزن عائلات كثيرة.

ورغم شهادة الدكتوراه في الرياضيات التي يحملها من جامعة شيكاغو، فقد فشل الشلبي في حيازة ثقة العراقيين ومحبتهم. فانتهازيته موضع احتقار العراقيين. وكثيرون يعيرونه بافتقاره إلى الأخلاق والحس بالمسؤولية وباستعداده لحرق بلد بأمه وأبيه لتحقيق مبتغاه. كان يشتم السياسيين في غيابهم، وأحد ضحايا وزير خارجية العراق لأربعين عاماً خلت، والذي انتخب أخيراً عن لائحة علاوي ليكون أكبر البرلمانين العراقيين سناً وأطولهم باعاً، عدنان باجه جي.

- العم عدنان عاش حياته وحياته غيره. الأفضل له أن يذهب إلى بيته ويلعب البريدج، ردد الشلبي في كل مرة تم تداول سيرة باجه جي. والثمانيني باجه جي قاده منفاه إلى أبو ظبي حيث عمل مستشاراً

لدى القادة الإماراتيين، وعاد إلى العراق بعد سقوط نظام صدام لينكب بنفسه على عملية صياغة الدستور المؤقت أي القانون الإداري الانتقالي. تحالف مع إباد علاوي، وكان عنيداً وشرساً في رفضه للسياسة المذهبية التي تروج لها الأحزاب الفائزة. كان يكشف بوجهه للتفاهات التي يتفوه بها الشلبي ويقول إنه يحتاج إلى تائب جديد على قلة الحياء هذه، ويكرر أمامه جملة واحدة لا غير:

- تعرف كيف تصوغ جملك يا أحمد لكن تنقصك الحكمة. أنت لست بنصف الذكاء الذي تظن أنك تملكه.

ورغم تقدم سنه، يتحلى الباجه جي بجاذبية كبيرة وذوق رفيع. هو طويل ومستقيم كشجرة النخيل، يرتدي بذلة أوروبية ويتحرك بين المدعوين كما لو كان لوردًا إنكليزياً من القرن الثامن عشر. ذهنه نشيط، ومنفتح على التقنيات الجديدة. طلب أن نأخذ له صوراً مع المدعوين ومعنا، ثم أعطاني عنوانه الإلكتروني وتمنى لو أرسلنا إليه ببعض الصور كتذكارات غالية على قلبه.

ووقف المدعوون في طابور أمام طاولة القهوة والحلوى. كانوا يتكلمون قليلاً ويلوحدون بأيديهم كثيراً.

كان من بينهم وزير النفط حسين شهبستاني الذي رفض رئاسة الحكومة الانتقالية الأولى قائلاً إنه يفضل خدمة شعبه في المجال الإنساني؛ وهو ما دأب عليه منذ أن هرب من سجن أبو غريب عام 1991.

والدكتور شهرستاني شيعي متدين، سجن وتعرض للتعذيب في أبو غريب لمدة 11 عاماً على يد عملاء صدام لأنه حث الجنود الشيعة على الفرار من الجيش الوطني. رفض أن يساعد نظام صدام في بناء محطة نووية لكنه في عهد نوري المالكي قبل تولي وزارة النفط؛ وهو الذي اشتهر باشتباكات العنيفة مع القيادة الكردية. فقيام الأكراد بالارتباط بعقود مع شركات أجنبية لاستخراج النفط من دون استئذان بغداد كان يغيظ شهرستاني.

- هذه العقود تفتقر إلى الشرعية وإنما نحمل الشركات الأجنبية المسؤولية أمام القانون. وجهنا لهم تحذيراً وهم يتحملون النتائج؛ درج الشهرستاني على القول لوسائل الإعلام العراقية كلما بلغت أخبار عن صفقات جديدة.

ولم يتأخر رئيس وزراء كردستان نشيرفان بارزاني - صهر الرئيس برزاني وابن شقيقته - يوماً عن الرد ببيانات صحفية وقحة في كل مرة تلفظ بها شهرستاني بانتقاد.

- نريد أن نذكر وزير النفط الدكتور شهرستاني أنه لا يملك الصلاحية لإلغاء العقود التي ارتبطت بها حكومة كردستان مع الشركات الأجنبية. نحن سنواصل تعاوننا مع هذه الشركات، ويستطيع الوزير شهرستاني إن لم يعجبه الأمر أن يحتج لدى المحكمة الدستورية الموجودة أصلاً لحل نزاعات من هذا النوع.



قبل سريان حظر التجوال راح المدعوون يغادرون الحفل. قلائل منهم تركوا انطباعاً يليق برجال الدولة.

العجيب أن معظمهم كانوا قد عاشوا حياتهم في المنفى؛ وأسرعوا بعد الغزو الأميركي ليطالبوا بحقوقهم في العراق الجديد وليتهموا كل العراقيين الذين لم تسنح لهم أوضاعهم الاقتصادية بمغادرة البلاد، بانتمائهم للبعث ويستحقون لذلك التهميش. وهكذا؛ سيطر العائدون الجدد على أجهزة الدولة وشغلوا أرفع المناصب فيما كانوا يحتفظون بمنزلهم وعائلاتهم في الخارج. ولم يخجل بعضهم من استمزاج رأي الأمم المتحدة فيما إذا كان قد حان الوقت لمغادرة العراق. ولو سئلت مجدداً عن هذا الموضوع لنصحتهم بالبقاء في المنفى، فالعراق يستحق حتماً حكاماً أفضل.

تتحكم بالسياسة في بغداد مزاجية وبراغماتية كريهة. السياسيون يغيرون أحزابهم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ومن أقصى العلمانية إلى أقصى الطائفية، ليس لقناعة شخصية، أو لمصلحة وطنية بل لرغبة في تحسين المواقع السياسية. قلائل جداً من كانوا يمتلكون مواصفات رجال الدولة. معظمهم من حزب المنتفعين الذين افتقدوا الالتزام والرؤى المستقبلية. وكان الجشع وحب السلطة سمات بارزة في شخصياتهم وخياراتهم السياسية.

جمود سياسي أصاب بغداد بالشلل.

شهران على انتخابات كانون الأول/ ديسمبر 2005 والفرقاء ما انفكوا يناقشون النتائج . الأحزاب الشيعة التي حققت فوزاً كاسحاً رشحت ابراهيم الجعفري لتولي رئاسة الحكومة. وفي تصويت داخل الائتلاف الشيعي فاز الجعفري على عادل عبد المهدي، بفارق صوت واحد حصل عليه من تيار الصدر.

لكن الجعفري لم يفلح في استمالة الأكراد والسنة. الأكراد لاموه لأنه لم يفعل شيئاً لتسهيل عملية كركوك؛ والسنة ساءهم أنه فشل في ضبط الميليشيا الشيعة التي قتلت الآلاف من المواطنين السنة. لكن الجعفري أصر على التمسك بمنصب رئاسة الحكومة الذي اعتبره منصباً شيعياً يقرره الشيعة.

في هذه الأثناء وصلت وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس إلى بغداد بصحبة وزير الخارجية البريطاني جاك سترو، وقاما بلقاء أبرز القادة العراقيين لحثهم على إحداث ثغرة في جدار الجمود السياسي. في اليوم التالي، خرجت الصحف العراقية بعناوين تتحدث عن معاني عبوس رايس عند لقائها بالجعفري وانفراج أساريرها اثناء جلوسها مع عبد المهدي. ولم يكن سراً أن عبد المهدي كان المرشح المفضل لدى الأميركيين؛ وقد ألمحوا إلى ذلك قبل انتخابات كانون الأول/ ديسمبر.

وكان عبد المهدي بثقافته الفرنسية وتخصصه في الاقتصاد من جامعة السوربون أشبه ما يكون بالحرباء السياسية. فهو تارة شيوعي،

وتارة بعثي، فعلماني ليبرالي ديمقراطي، وطوراً شيعي متدين بحسب الظروف السياسية وموقعه منها. فقد غير توجهاته مرات عديدة بحيث لم تعد ممكنة مواكبة كل هذه التغييرات.

عند زيارة رايس كان عبد المهدي يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية وعضواً بارزاً في الائتلاف الشيعي المقرب من طهران. لكن عبد المهدي الذي يتقن تفصيل خطابه حسب المستجدات قال في مقابلة تلفزيونية مع شبكة سي. إن. إن. الأميركية ما يسرّ الأميركيين ويريح أعصابهم:

- نحن لا نريد أن نتشبه بإيران. لا نريد حكومة شيعية ولا حكومة إسلامية؛ بل حكومة ديمقراطية. هذا هو خيارنا.

بعد زيارة رايس انهالت الدعوات من كل حذب وصوب بضرورة تنحي الجعفري. الشيخ جلال الدين الصغير طلب إليه عبر وسائل الإعلام أن يتنازل عن عنفوانه ويخلي الساحة لمرشح آخر. وردّ الجعفري بالقول إن العراقيين وحدهم يقررون شخصية رئيس الوزراء المقبل وليست كوندوليزا رايس.

الوقت يمرّ، والعنف يحصد أعداداً إضافية من الضحايا على الطرقات. خمسة أشهر على الانتخابات ولا أثر لحكومة جديدة. السفيران خليل زاد وقاضي منكبان على إحداث ثغرة في جدار الجمود، لكن دون نتيجة.

- العراق ينزف من دون حكومة، دأب خليل زاد على القول.  
وطلب إليّ فون شولنبرغ التحرك باتجاه السفارة الإيرانية، لربما

كان السفير حسن قومي المتمكن يملك أوراقاً أو نصائح تساعد على حلحلة المواقف المتشنجة.

قصداً السفارة الإيرانية التي كانت تقع على الضفة المقابلة من نهر دجلة. بيت عادي متواضع بالمقارنة مع قلعة الأميركيين في المنطقة الخضراء. وبينما جاء السفراء الأميركيون وغادروا الواحد تلو الآخر، انكب السفير قومي بمساعدة مجموعة صغيرة من مساعديه وشبكة عريضة من المخبرين والعملاء على العمل بصمت وفاعلية. حتى في أسوأ الظروف؛ عندما كان العراق وإيران في حرب حصدت مليون قتيل احتفظت السفارة الإيرانية بموقعها في بغداد، خلف الأشجار العالية الوارفة الظلال على ضفاف دجلة.

كانت السفارة الإيرانية تغلي نشاطاً وحركة في هذه الفترة. نفوذ إيران في العراق يكبر ويتضاعف ليس فقط في جنوب البلاد بل في بغداد وفي مدينة الصدر، في الأحياء الشعبية وبين الفقراء المعدمين. وكان الأميركيون قد وجهوا إنذاراً إلى إيران متهمين إياها بدفع رشاوى إلى السياسيين العراقيين، وتزويد الميليشيا الشيعية بالسلاح والمعلومات وتوسيع شبكة الجواسيس لتشمل كل البلاد. وعرض الأميركيون في مؤتمرات صحفية متكررة سلاحاً إيراني الصنع وجد في أيدي الميليشيا الشيعية. عراقيون علمانيون أمثال مثال الألوسي شرح أن إيران كانت الفائزة الحقيقي من الغزو الأميركي للعراق، وهي

تنكب منذ اختفاء صدام على إضعاف العراق ليتحول إلى ملحق أو مقاطعة تابعة لإيران.

كانت المخابرات الإيرانية تسيطر بشكل كامل على الجنوب ومدنه كالبصرة وعمارة والناصرية. ورأى السنّة أن إيران وحلفاءها اعتمدوا تكتيكاً سياسياً يهدف لإقامة حكم ديني في الجنوب. فارتدت النساء العباءة السوداء، وتم تهجير الأقلية المسيحية من المنطقة وتفجير محلات بيع الكحول فيها. وتعرض الجنوبيون المنتقدون لهذه السيطرة الإيرانية للخطف والقتل.

في صيف 2005 اغتيل أستاذ الأدب العربي في جامعة البصرة؛ وتم خطف أستاذ التاريخ في الجامعة نفسها الذي وجدت جثته بعد أيام على قارعة الطريق وهي تحمل آثار التعذيب والتنكيل. صحف بغداد نشرت تفاصيل عن هذه الاغتيالات ومن يقف وراءها؛ وحذرت من أن آخرين سيلقون المصير نفسه لو تجرأوا وتفوهوا بكلمة ضد التوسع الإيراني في العراق.

ورحب السفير الإيراني بفون شبولنبرغ وبي وقدم لنا الشاي والفسق الإيراني. ولم يكن يتقن الإنكليزية أو العربية فتداولنا الحديث بمساعدة مترجم السفارة الذي تحدث العربية وقمت بدوري بترجمة المضمون إلى الإنكليزية.

وأشار قومي إلى أن تسمية الدكتور ابراهيم الجعفري من قبل الشيعة كان قانونياً ودستورياً، وينبغي على السنّة مساندة هذا الترشيح.

- الجعفري سياسي قدير، قال السفير؛ لكن إيران على استعداد للقبول بأي كان يتفق عليه العراقيون. الشيء الوحيد الذي نخشاه هو وقوع انقسامات بين الائتلاف الشيعي الذي يواجه ضغوطات رهيبية من أطراف داخليين وخارجيين. ونحن نتمنى أن يبقى موحداً.

وأعرب السفير عن استيائه من تدخل الأميركيين في تسمية رئيس الوزراء ومحاولات التشكيك في نتائج الانتخابات.

- يقومون بتشجيع السنّة على رفع الصوت وتقديم شكاوى واتهامات بالغش، وهذا مضيعة للوقت والجهد. لو أرادوا إعادة الانتخابات عشر مرات فالنتيجة ستكون هي هي، لا تغيير. أرجو أن تبلغوا ذلك للأميركيين.

وروى فون شولنبرغ أنه يوجد لدى الأميركيين رغبة في التواصل مع الصديريين من خلال الأمم المتحدة. وابتسم السفير بالموافقة قائلاً إن الصديريين تنقصهم الخبرة السياسية لكنهم يتمتعون بشعبية خارقة في المناطق الفقيرة. ويجب تعزيز الجهود الرامية لضمهم إلى العملية السياسية.

- يجب أن يفهم الأميركيون أنهم لا يجنون شيئاً من تهميش الصدر وإبعاده، بالعكس فهم بذلك يدفعونه إلى أحضان الإرهابيين. نحن نشجع الصديريين للتحاور مع الأميركيين؛ قال قومي وهو يرافقنا إلى الحديقة حيث ينتظرنا الموكب للعودة إلى المنطقة الخضراء.

هذه المرونة الإيرانية كانت تبشر بتطورات إيجابية في ملف

رئاسة الوزراء. وذاب الثلج وبانت تباشير الربيع في نهاية شهر نيسان عندما أعرب آيات الله في النجف عن استيائهم من استمرار الأوضاع على حالها. عندها أعلن الدكتور الجعفري عن استعدادة للتنحي بشرط أن يتم انتخاب رئيس الوزراء المقبل من حزب الدعوة. وحصل ما أراد.

وقام الائتلاف الشيعي بتسمية نوري المالكي كمرشح تسوية بعد مفاوضات عسيرة قادها السفير الأميركي خليل زاد مع مختلف الأحزاب الشيعية. وكشف خليل زاد أن إيران ضغطت كثيراً للاحتفاظ بالجعفري وهنا القادة العراقيين لمقاومتهم هذه الضغوط.

كان نوري المالكي قد حُكم عليه بالموت لانخراطه في الثمانينيات في حزب الدعوة الممنوع. وهرب المالكي إلى إيران وبعدها إلى سوريا حيث نشط في محاربة البعث العراقي ونظام صدام. انتخب في الجمعية الوطنية في الانتخابات الأولى وتالياً في لجنة صياغة الدستور ولجنة اجتثاث البعث.

لأسابيع انتشرت شائعات في بغداد تحدثت عن تولي صفية السهيل لإحدى الوزارات في حكومة المالكي. عندما اتصلت بصفية لأتبين الخبر لم تكن تعرف شيئاً.

- يجري الحديث عني وعن مرشحين آخرين لكن لا شيء محدد بعد؛ قالت.

زميلاتي العراقيات تابعن عملية تأليف الحكومة خطوة بخطوة.

لكنهن شككن في إمكانية تولي صفة لمنصب وزاري. وقالت رانيا التي تعمل في قسم حقوق الإنسان إنها تتمنى إشراك سيدة أو أكثر في الوزارة ولكن صفة رقم صعب.

- لو اختيرت سنكون سعداء جداً وندعمها. لكن صفة ليست محبوبة من الجميع لأنها لا تتحدث اللهجة العراقية؛ وتعتبر عصرية أكثر من اللزوم.

- وماذا تتحدث إذن؟ قلت متعجبة.

- تتحدث اللبنانية كونها عاشت في لبنان. ألم تلحظي ذلك؟

- هل يجوز أن تشكل اللهجة حاجزاً؟

- يمكن أن تكون حجة لو أرادوا التخلص منها.

- هذه اعتبارات رجعية وغير جدية بتاتاً في العمل السياسي، قلت

وقد أصابني الإحباط.

وفي أيار/ مايو 2006 قدم المالكي تشكيلته الحكومية وبرنامجاً للمصالحة الوطنية تضمن أهدافاً واضحة ومحددة منها: التخلص من الميليشيات المسلحة والدعوة إلى حوار وطني مع المقاومة العراقية وإعادة النظر بقانون اجتثاث البعث. واعتبر المراقبون أن البرنامج طموح في ظروفه وينبغي أن يرضي السنة.

وعندما زار المالكي واشنطن في تموز/ يوليو 2006 كرئيس جديد للوزراء ضمن خطابه إلى الكونغرس استنكاراً شديداً ضد العدوان الإسرائيلي على لبنان. وانتفض يومها الديمقراطيون وقاطعوا



خطابه، وانتقدوا فشله في كبح جماح العنف ضد الأميركيين في بلاده وطلبوا باستقالته. ورد المالكي في أحاديث صحفية على تصريحات الديمقراطيين بالقول: إن بعض أعضاء الكونغرس يتصرفون وكأن العراق مستعمرة أميركية.

- العراق ليس ملكاً للأميركيين. يجب أن يفهموا ذلك ويحترموا مبادئ الديمقراطية. أنا صديق لأميركا لكنني لست أبدأً رجلهم في بغداد.

استمر العنف وبلغ ذروته في الأشهر الأخيرة من العام 2006. وسجلت تقارير الأمم المتحدة وقوع نحو 900 هجوم دموي في الأسبوع الواحد. رئيس الوزراء نوري المالكي اشتكى من بطش قوات التحالف ولم يتردد في انتقادها علناً في وسائل الإعلام العراقية.

- قتل المدنيين الأبرياء أصبح موضة في الشارع العراقي. وقوات التحالف لا تظهر أدنى درجات الاحترام للحياة الإنسانية. يدمرون سيارات العراقيين ويطلقون النار على المدنيين من دون سبب. هذا ليس مقبولاً، ردد الرئيس المالكي بحزم مرات عديدة في الإعلام العراقي.

واستمر السجال حول أسباب استشراء العنف في بغداد، فاعتبر الأميركيون أن المالكي مسؤول عما يجري لأنه يتردد في ضرب جيش المهدي بيد من حديد. ورأى مراقبون أن الصدر كان مسؤولاً عن نشر الموت والرعب في العاصمة لكن المالكي كان يحسب حساب مقتدى،

الحليف القوي الذي ساندته خلال عملية تسميته رئيساً للوزراء. ورغم مقاطعة الصدرين لأعمال الحكومة في خريف 2006 احتجاجاً على القمة التي جمعت نوري المالكي برئيس الولايات المتحدة جورج بوش في عمان، ورغم أن هذه المقاطعة تسببت في عرقلة نشاط الحكومة، استمر المالكي في ترده - في ظل الظروف الدقيقة السائدة في البلاد - في ضرب ميليشيا الصدر وإضعاف حليفه الأقوى، مقتدى؛ واستمرت الأوضاع على سوئها حتى هبوب عاصفة «فرض القانون» عام 2007 التي طهّرت الشوارع من المسلحين. واختفى مقتدى.

لا أحد كان يعرف أين ولا كيف.

بعضهم قال إنه في النجف.

آخرون اعتقدوا أنه غادر إلى إيران.

## علاء الدين... مريض

لم نعد نفترق إلا نادراً... علاء الدين وأنا.  
 كنا نشعر برغبة طاغية في أن نكون معاً. وكان يأتي متخفياً إلى  
 غرفتي في المساء، يشدني من يدي برفق حتى أتقوقع في حضنه.  
 حالة من العشق اجتاحت كلينا، ودهشة من مشاعر جارفة لم يتح  
 لأي منا أن اختبرها قبلاً!

لكن سماءنا لم تكن صافية تماماً؛ والغيوم التي عكرت عليّ  
 سعادتي كانت تتعلق بوضع علاء الدين العائلي، وبموقعي في حياته  
 كعشيقة. كنت أنتفض رافضة هذا الواقع اللئيم وأسأل علاء الدين  
 مرات ومرات إن كان ما نتبادله حباً حقيقياً أم عشقاً زائلاً. ليس سهلاً  
 فهم الأمور على حقيقتها تحت حصار الخوف والموت الذي كان  
 يطبق على حياتنا.

وصباح أحد الأيام جاء علاء الدين إلى مكتبي حاملاً علبة من  
 المنّ والسلوى كان قد اشتراها له أحد السائقين العراقيين من محلات  
 الحلوى في المدينة.

وفي التداول الشعبي يعتبر المنّ والسلوى رمزاً لأغلى ما يمكن

أن يتمناه المرء. واستعمل العراقيون مخيلتهم فملأوا جوف كرات الحمص باللوز والسكر وطمروها كالجواهر في السكر الناعم خوفاً عليها من الجفاف.

كانت شروق تتمتع بشهية كبيرة للحلوى والثرثرة وتغلي شوقاً لمعرفة سبب هذه الدعوة. وقالت وهي تنفض عن فمها وملابسها حبيبات السكر العالقة عليها.

- وما مناسبة هذه الضيافة الكريمة اليوم؟

- ربما... أنوي الزواج ثانية، أجب علاء الدين مازحاً وصدى

ضحكته تُسمع في كل بغداد.

وابتهج الزملاء وساد جو من الضحك والهزار.

- ألا تكفي زوجة واحدة؟ تساءل سرمد.

- لماذا الاكتفاء بزوجة واحدة عندما يمكن شرعاً الحصول على

أربع؟ قال علاء الدين بضحكته الرنانة.

- أجل، معك حق. تزيد سعادة الإنسان كلما ازداد عدد زوجاته،

قال علي.

- هل في بالك عروس جاهزة؟ سألت شروق بكل ما أوتيت من

الحيلة النسائية.

- هل هناك حولك عروس مناسبة؟ سأل علاء الدين بخبيث.

- كثيرات يتمنين الزواج بأجنبي ومغادرة العراق. وأنت وسيم

للغاية والفتيات يتمنين عليك، قالت شروق.

ونظر علاء الدين صوبي، فابتسمت وأصابني تبحت في تلال  
السكر الناعم عن حبيبات السعادة في علبة الحلوى العربية.

في المساء جاء علاء الدين إلى غرفتي ليقول إنه تلقى فرصة عمل  
جديدة في السودان وإنه أبلغ مكتب الأمم المتحدة قبوله بالمنصب؛  
وبدأ حسب الشروط بإجراء الفحوص الطبية المطلوبة.

ووقع الخبر عليّ كالصاعقة.

- قطعت كل هذه الأشواط دون أن تخبرني شيئاً؟ كيف استطعت

أن تخفي عني كل هذا؟

وقال إنه لم يشأ ذلك لأنه كان يحتاج إلى الوقت ليعرف ما يريده  
دون ضغوطات عاطفية.

- قبلت حقيقة العرض لأنني أشعر بالتعب وأرغب في مغادرة

بغداد. أريد أن أعيش حياة عادية وهادئة في مكان آخر.

- هل هذا يعني نهاية العلاقة بيننا؟

- ليس بالضرورة. سنلتقي دائماً كلما سنحت الفرصة. سنحاول

التحكم بإجازاتنا فنأخذها في وقت واحد لنتقي في مكان ما.

- لا أرغب في أن أدق أبواب الفنادق في الشرق والغرب لتتسنى

لي رؤيتك. إنس الموضوع. بصراحة لا أريد أن أكون العشيقة السرية،

هل تفهمني؟

- بلى أفهمك؛ ولكن ما البديل؟ ليس سهلاً مناقشة الطلاق مع

زوجتي الآن.

- أتمنى لك حظاً سعيداً في السودان إذن.

وذهب علاء الدين إلى غرفته.

مشاعر كثيرة انتابتني تلك الليلة. لم أفهم علاقته المعقدة مع زوجة يدعي أنه لا يحبها! ولم أفهم كيف استطاع أن يخفي عني تفاصيل انتقاله من بغداد. وزحف الحزن إلى قلبي. لم أكن متأكدة أنني أستطيع الاستمرار في بغداد من دونه.

في اليوم التالي جاء علاء الدين إلى غرفتي ليخبرني أنه قرر أن يرفض عرض العمل في السودان.

- أريد أن أكون معك. هذا ما أرغب به في الوقت الحاضر.

- ولكن إلى متى سنستمر في إخفاء حبنا عن الناس؟ أنا أريد أن

يعرف العالم كله بهذا الحب.

- مستحيل طالما أنا متزوج. سيقول الناس إنني عديم الأخلاق

وبلا شرف.

- أنت لست الأول ولا الأخير الذي يقع في غرام شخص آخر

غير زوجه أو زوجته. الحياة مليئة دائماً بالمفاجآت السعيدة، قلت في محاولة للتخفيف من مشاعره بالذنب.

وانقلب الوضع رأساً على عقب في الأيام التالية.

دخل علاء الدين لاهثاً إلى مكثبي. الابتسامة غابت تماماً عن

شفتيه ونظراته تكشف عن خوف عميق.

- كنت في مشفى ابن سينا لأتسلم نتائج الفحوص الطبية التي

كنت قد أجريتها لوظيفة السودان. الطبيب أبلغني بضرورة إعادة فحص الأشعة للرتتين. أظنه يشك بالسرطان.

- مستحيل أن تكون مصاباً بالسرطان. أنت لا تدخن ولا تعاقر الخمر ولا تمارس أية عادات تهدد صحتك، سرطان؟ لا أظن ذلك. تلك الليلة والليالي التي تلتها نام علاء الدين في سريري. غنيت له الليالي بطولها، ربت على كتفه كطفل صغير وهمست في أذنه كلمات حلوة توحى بالأمل وروعة الحياة؛ فيما كان هو يندب حظه التعس: هو الذي سيموت ولم يبلغ الخامسة والأربعين بعد. هو الذي لا يزال في منتصف العمر وأمامه الكثير من الأحلام التي لم يحققها.

وفي لحظة من لحظات الحنان الفائنض همست في أذن علاء الدين بصوت مرتعد أنني أتمنى أن أنجب منه بنتاً.  
- بنت صغيرة ثمرة حبنا. لو تبين أنك سليم معافى، وهو ما أو من به بشكل راسخ.

- بنت؟ ياريت. كنت دوماً أريد أن يرزقني الله بنتاً. ولكن حاذري: بنت وليس صبياً. عندي ما يكفيني من الصبيان.

- في هذه الحال، الأضمن أن نتبنى.  
- التبنى فكرة نبيلة. أنا على استعداد لأن أفعل أي شيء إن قُدر لي أن أعيش.

ومضت الأيام ونحن ننتظر موعد إجراء صورة الأشعة. علاء الدين يعيش في رعب، وأنا في ظل ضغط نفسي شديد. أفكر في سري

أن الأطباء الأميركيين في ابن سينا يملكون الخبرة المهنية والتقنيات الحديثة، وبوسعهم تشخيص الحالات المرضية بقدر عال من الدقة. وأرتعد لمجرد الظن أن علاء الدين مصاب فعلاً بالسرطان وأبكي! بعد ظهر يوم أحد، هرول علاء الدين إلى مكثبي يحمل في يده نتيجة الفحص الشعاعي. التراجيديا ارتسمت على وجهه بالخط العريض. رميت الأوراق من يدي وتقدمت نحوه بخطوات كبيرة لأختصر المسافات.

- ألم أقل لك؟ إنني مصاب بالسرطان. تفضلي إقرأي التقرير. وحاولت أن أقرأ، فلم أفهم كلمة واحدة. فالوضع الدراماتيكي حولي شلّ تفكيري. تخيلت للحظة أن الطبيب كتب تقريره بالصينية. وشعرت بنفسي أمية لا تفهم لغة الطب والأطباء! كل ما استطعت فعله أنني عانقت علاء الدين بشدة وطويلاً.

- ماذا سأفعل الآن؟ كيف سيتمكن الأولاد من إكمال دراستهم؟

كيف سيعيشون من دون أب؟ الله، الله لماذا أنا؟

- سنكافح السرطان معاً. لنذهب إلى فريد؛ ربما يسمح لك أن تغادر إلى عمان هذه الليلة. ستتدبر لك موعداً ليوم غد في مستشفى الملك حسين للسرطان. إنه أفضل مركز سرطاني في المنطقة. إهدأ حبيبي، هذه ليست النهاية.

وذهبنا إلى مدير قسم الموظفين السيد فريد. فأجرى اتصالاته ووضع علاء الدين على متن الطائرة المغادرة إلى عمان خلال ساعات.



وتوجهنا إلى الفندق فحزم علاء الدين حقائبه، ثم تناول العشاء مع أبي أحمد وزملاء آخرين.

احتفظت بنسخة عن التقرير الطبي وهمست في أذنه أننا سنهزم السرطان سوياً.

غادر علاء الدين إلى المطار، وبقي أبو أحمد إلى جانبي يواسيني وقد شعر بالأسى الذي أصابني، وكأنه فهم أن بيني وبين علاء الدين أكثر من صداقة. وتحدث إليّ مشجعاً فكان ملاكي الحارس تلك الليلة. استأذنته وصعدت إلى غرفتي لأبكي قليلاً. فالأحداث الأخيرة هزّت كياني، والأنا القوية، الهادئة والعقلانية التي كنت أعرفها تبخرت لتترك مكاناً للخوف والتعب.

أخذت حماماً دافئاً، وجلست على السرير أحاول أن أقرأ التقرير الطبي الذي أشار إلى احتمال إصابة علاء الدين بثلاثة احتمالات، أحدها السرطان. لكن يمكن أيضاً أن يكون مصاباً بأعراض أخرى سببها العواصف الرملية. ففي الصورة الشعاعية ظهرت تورمات صغيرة كحبات الملح على جدار القصبتين الهوائيتين مما حدا بالطبيب المناوب إلى أن يوصي علاء الدين باستشارة اختصاصي بالسرطانات. هناك أمل إذن! هناك أمل!

صباح اليوم التالي قفزت من سريري بخطوات راقصة. رحلت أذندن أغنية سريعة الإيقاع بينما كنت أرتدي ملابسني. في النوم حلمت أن سيدة ممثلة كمغنية أوبرا إيطالية تمد ذراعها باتجاهي وتقدم لي ابنة

حلوة كالعسل. كدت أطير من الفرح لهذه الهدية الرائعة، لهذا الحلم الرائع.

- حبيبي، أنت لست مصاباً بالسرطان. صدقني... لست مصاباً بالسرطان؛ صرخت على الهاتف مع علاء الدين.

- وكيف لك أن تعرفي؟ ولماذا أنت متأكدة إلى هذا الحد؟

وصمت لبرهة. خجلت من حلمي، من البنت الجميلة التي حملتها بين ذراعيّ في الليل. من ابتتنا. من سعادتنا معاً. من الوحي السماوي إنه ليس مصاباً بالسرطان. إنه سليم معافى! وقلت له عوضاً عن ذلك إنني قرأت التقرير وبحثت على الانترنت ما ورد فيه فتبين أنه مصاب على الأرجح بالتهابات في القصبات الهوائية نتيجة تنشق الرمال أو ما شابه.

- أرجو أن تكوني محقة، حبيبي. أرجو ذلك فعلاً.

واتصلت بعدها بصديق مشترك وسألته أن يقود علاء الدين من مطار ماركا إلى مستشفى الملك حسين حيث ينتظره طبيب اختصاصي. وقام الأطباء مباشرة بأخذ عينات لفحص نسيج الجسد قبل تشخيص المرض. عندما استفاق علاء الدين من المخدر اتصل بي وقال بلسان معكوف، ثقل الحركة وكأنه لا يزال تحت تأثير المخدر:

- حبيبي، الطبيب قال إنني لا أبدو مريضاً بالسرطان. يمكن أن أعاني من مشكلة صحية أخرى قابلة للعلاج. لكنه سيوافيني بالجواب النهائي خلال يومين أو ثلاثة عندما تأتي النتيجة من المختبر.

وأخبرني أنه ينوي تمضية الإجازة المرضية مع عائلته، وأن الأطباء سيرسلون النتائج إليه على عنوانه الإلكتروني، فيتسنى له أيضاً استشارة طبيبه الخاص في القاهرة قبل أن يباشر بأي علاج.

- وكيف سأعرف أنا بنتيجة الفحوصات؟

- سأتصل بك حالما تأتيني النتائج. هل يمكنك إسداء خدمة كرمى لي؟ انتبهي لنفسك في بغداد.

واتصل علاء الدين بعد أسبوع وأخبرني بضحكة رنانة كالعادة إن فحص الأنسجة أكد عدم إصابته بالسرطان؛ وإنّ البثور في القصبات الهوائية سببتها التهابات تعالج بالسترويد، ويمكن أن تضمحل شيئاً فشيئاً من دون دواء.

- شكراً جزيلاً لكل ما فعلته من أجلي؛ قال مضيفاً.

- متى ستأتي إلى بغداد؟ اشتقت إليك.

- سأمدد إجازتي أسبوعاً إضافياً. أحتاج إلى هذا الوقت الإضافي لأرتاح وأكون مع الأولاد. ألف شكر لك على كل شيء.

بعد المكالمة اكتسختني شعور بالحزن الشديد. كنت سعيدة طبعاً أن علاء الدين ليس مصاباً بمرض خطير يهدد حياته. سعيدة أيضاً لأنه بدا على الهاتف فرحاً، مقبلاً على الحياة. لكن مبالغته في توجيه الشكر أوجعتني. شعرت فجأة أنني كنت الممرضة التي يمكن صرفها بكلمة شكر. كنت المرأة الأخرى التي تقف على بابه وتستعطي الدخول إلى حياته لتشاركه اللحظات الجميلة في العلن. أمام كل الناس. لكنه لم

يكن يريد لي الارتقاء. وبقيت خارجاً في صقيع الحياة السرية، الحياة  
الاستثنائية في بغداد. وانتابني شعور أنني فقدت شيئاً لا أستطيع  
تحديده.

ربما كبريائي!  
لا أعرف ماذا أفعل.  
ولماذا أغار؟  
الحب إدمان من نوع آخر.  
طبعاً!  
وكرهت نفسي.

## النجف... وآيات الله

- ماذا سيفعل ملحد مثلك في مدينة مقدسة كالنجف؟ سألني  
علاء الدين عبر الهاتف مداعباً.

- قد تفتح لي هذه الزيارة أبواب الجنة عندما يحين وقتي، أجبته  
بحسّ الدعابة نفسه.

وكان علاء الدين قد اتصل من القاهرة ليقول لي إن كل شيء  
على ما يرام وإنه يستعد للعودة إلى بغداد. عندما أقفل الخط لملمت  
أشياءي وأسهرت إلى صالون الفندق لأنضم إلى مجموعة المسافرين  
إلى المدينة المقدسة.

كنت أرتدي عباءة طويلة وألفّ شعري بغطاء زهري ما انفك  
ينزلق إلى الورا ليكشف عن الخصلات الأمامية.

كان الجو ساخناً هذا الصباح من شهر أيار/ مايو 2006، والفرات  
يرافقنا على مدى ساعتين من التحليق المنخفض باتجاه النجف  
الأشرف.

كم من الثورات، والحروب والاغتيالات لم تتخذ من النجف  
مسرحاً لها منذ فجر الإسلام. وكم من الحكايات، والأساطير

والقصص طفت وتدفتت مع تدفق الفرات ودجلة عبر مئات السنين. بعضها صحيح وبعضها من ثمرة الخيال الإنساني.

يقال إن النبي ابراهيم جاء مع ابنه إسحاق إلى النجف وكانت تعاني من الزلازل. وما إن وطأت قدمه المكان حتى توقفت الهزات الأرضية. فطلب إليه الأهالي أن يتخذ من النجف مقراً ومستقراً له ولعائلته. ووافق ابراهيم شرط أن يبيعوه الوادي الذي يقع خلف المدينة. وتساءل إسحاق عما إذا كان والده قد فقد عقله. فتلك الأرض لم تكن صالحة للزراعة ولا لتربية المواشي. وأسرّ ابراهيم لإسحاق برؤية نبوية وقال إنه سيأتي زمن يُبنى على هذه الأرض ضريح يجذب مئات الآلاف من الناس لزيارته تبركاً ولدفن موتاهم قربه فيضمنوا لأنفسهم مكاناً في الجنة.

وقد أُطلق على الوادي الذي رغب النبي ابراهيم بشرائه اسم وادي السلام. ووصفه الإمام علي عليه السلام بقطعة من الجنة. جثامين المؤمنين من الشرق والغرب ستنقل إلى هنا لتودع تراب الأرض. أراهم أمامي يجلسون حلقات حلقات ويتسايرون في رحلتهم الأخيرة إلى الجنة، ردد الإمام علي أمام أتباعه.

وجاء في شرح البلاغة لابن أبي الحديد:

«إن المقرين من الإمام علي قصدوا أن يخفوا قبره بوصية منه، خوفاً من بني أمية والمنافقين والخوارج أن يدنسوه. فأوهموا الناس في موضع قبره ليلة دفنه. فشدوا على ناقة تابوتاً موثقاً بالحبال، تفوح

منه روائح الكافور وأخرجوه من الكوفة في سواد الليل بصحبة ثقاتهم، وأخرجوا بغلاً وعليه جنازة مغطاة، يوهمون أنهم يدفنونه بالحيرة، وحفروا حفائر عدّة، منها في رحبة مسجد الكوفة. ومنها في رحبة قصر الإمارة، ومنها في حجرة في دور آل جعدة بن هبيرة المخزومي، ومنها في أصل دار عبد الله بن يزيد القسري، بحذاء باب الوردّاقين، مما يلي قبلة المسجد. ومنها في الكناسة - محلّة بالكوفة - ومنها في الثويّة - موضع قريب من الكوفة - فعمي على الناس موضع قبره.

ولم يعلم دفنه على الحقيقة إلا بُنوه والخواص المخلصون من أصحابه، فإنهم خرجوا بالإمام عليه السلام وقت السحر، في الليلة الحادية والعشرين من شهر رمضان، فدفنوا الإمام في مدينة النجف الأشرف، بالموقع المعروف بالغري» .

وهكذا عمي موضع قبره على الناس وذلك بوصية منه.

وتضيف الرواية أن الخليفة هارون الرشيد وصل بعد قرن من الزمن إلى المحلة وراح يتردد عليها لممارسة رياضة الصيد. وأثناء إحدى هذه الرحلات أطلق الرشيد سهماً على أيل فأصابه، لكن الحيوان الجريح اختبأ خلف مرتفع ترابي. فأمر الرشيد كلابه بجلب الطريدة لكن الكلاب عصت الأوامر ولم تحرك ساكناً مما أثار استغراب الخليفة.

وعندما استجوب الخليفة الفضولي أهالي المنطقة عن السر

الكامن وراء هذا الكومة الترايبية، اعترفوا له على مضض أن المكان هو مرقد الإمام علي.

ولدهشة الأهالي، أمر الخليفة العباسي هارون الرشيد بتشييد مزار بهي يليق بخليفة المسلمين وصهر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وبنى قبة بيضاء على القبر، لها أربعة أبواب من الطين الأحمر، وعلى رأسها جرة خضراء. وأخذ الناس بزيارته ودفن موتاهم حوله. وتنافس الملوك والأمراء ولاسيما الصفويون في إعادة ترميمه والتفنن في إعمارها حتى بات اليوم صرحاً تاريخياً شامخاً يؤمه الحجاج والسياح من أصقاع الدنيا.

عندما حطت بنا المروحية الأميركية في النجف أحاط بنا رهط من رجال الأمن الخاص، وراحوا يراقبون كل خطوة يخطوها السفير قاضي، والمترجم محمد، وكيش وأنا. ثم توجهنا إلى المخيم التابع لقوات التحالف حيث خصص لكل منا مستوعب، قبل الانتقال إلى الكافتيريا التابعة للمخيم لتناول الطعام ولقاء محافظ النجف أسعد سلطان أبو غلال.

جاء المحافظ بصحبة عدد من مساعديه ووزع علينا تذكارات صغيرة من النجف الأشرف مردداً أن المدينة هي بمثابة الفاتيكان بالنسبة للشيعة.

وشرح أن النجف تحتاج إلى استثمارات لتشجيع السياحة الدينية



إليها، وهناك حاجة ماسة لبناء مطار لكن الأميركيين رفضوا العروض التي تقدمت بها الشركتان الإيرانية والسعودية. ولم يكن بالإمكان إلا الانتظار.

- السياحة الدينية مصدر رزق النجفيين الوحيد. ويجب أن نسهّل على الحجاج وسائل السفر كي يأتوا إلينا، لكن الأميركيين لا يفهمون علينا. لهم أولوياتهم ولنا أولوياتنا، قال المحافظ بخيبة أمل.

وأكثر الحجاج شهرة في النجف هو آية الله الخميني الذي استقر في المدينة بعد نفيه بأمر من شاه إيران لنشاطه المعادي للدولة. دخل الخميني النجف عام 1965 وانصرف إلى تدريس الفقه ونشر ولاية الفقيه. واستمر يرسل تعليماته إلى أتباعه في إيران فنشطت الحركة الإسلامية وازدهرت.

وجاء اغتيال ابن الخميني في النجف عام 1977 ليغيّر في مجرى الأحداث. فاشتعلت المدن الإيرانية بالتظاهرات والاحتجاجات. ولم تكن النجف بمنأى عن الاضطرابات، إلى أن قام الرئيس العراقي صدام حسين وبطلب من الشاه محمد رضا بهلوي بطرد الخميني في العام التالي على أمل أن يؤدي إبعاده إلى تقليص نشاطه السياسي. واستقر آية الله الخميني في باريس حيث مُنح اللجوء السياسي.

وبعد أقل من عام على منفاه الباريسي عاد الخميني إلى إيران وأطلق ثورة شعبية اهتزت لها الأنظمة السياسية في المنطقة. ملايين الإيرانيين انتفضوا ضد الشاه الذي قام حكمه على البطش والترويع

والفساد الإداري ومحاباة الأقارب. وطالب الإيرانيون الفقراء الذين تركت ممارسات الشاه حقداً وضغينة في قلوبهم، بوضع حد لديكتاتورية استمرت لعقود. فترك الشاه عرشه وغادر وطنه متخفياً، ودخل الخميني طهران كالأبطال الأحرار. واستغل الخميني من دون رحمة ثورة الشعب لبلوغ السلطة. وغير ليس وجه إيران فحسب، بل الوجهة الجيوسياسية للمنطقة بأسرها. وهكذا تخلّص الإيرانيون من ديكتاتورية ليسلموا زمام أمورهم إلى ديكتاتورية أكثر سوءاً.

انتظرنا في سياراتنا المصفحة المروحية التي سترافق موكبنا إلى وسط مدينة النجف في رحلة تستغرق ساعة ونصف الساعة، ولا تخلو من الأخطار. كالعادة أحاطت بالموكب دبابتان، واحدة في المقدمة وثانية في المؤخرة.

ووصلنا إلى وادي السلام، إلى المقبرة العملاقة التي قطعها صدام إلى جزئين عبر طريق عريض معبّد مرّ في وسطها. لم يكن وادي السلام منسقاً بطريقة فنية جميلة لكنه كان واسعاً جداً يعج بعدد لا يحصى من المدافن والأضرحة. هنا يرقد العديد من الأئمة والمؤمنين الشيعة الذين أتوا من أقاصي الأرض وفي قلبهم رجاء القيامة ودخول الجنة بصحبة الإمام علي، عليه السلام.

على الطرف الآخر من وادي السلام قام ضريح شامخ يخطف الأنفاس لروعته الهندسية. قبة كبيرة مذهّبة تنير صفحة السماء،

ومئذنتان كبيرتان ذهبيتان، وله صحن مربع كبير، وأبواب من جهاته الأربع يؤمه المؤمنون من أي جهة أتوا.

توقف موكبنا قبالة ضريح الإمام علي. كنت على استعداد أن أعطي نصف عمري لألقي بنظرة إلى داخله. لكن زيارة الضريح لم تكن ضمن برنامجنا، ولم أجرؤ حتى على السؤال إن كان يحق لغير المؤمنين بالدخول إلى حرم المسجد.

ودخلنا بيتاً متواضعاً جداً يسكنه رجل كبير بنفوذه ومعارفه هو آية الله العظمى سعيد الحكيم الذي كان مرشحاً لخلافة السيستاني. شبان في مقتبل العمر رحبوا بنا وأخذوا بنا إلى غرفة الاجتماعات. خلعنا أحذيتنا خارجاً، وتمنيت للحظة لو كنت أرتدي الجوارب لإخفاء أصابع رجلي. وفوجئت بالبساطة التامة التي سادت في الغرفة: حصيرتان من النوع الرخيص تغطيان أرضية الباطون وفرشات اسفنجية وضعت جنباً إلى جنب على طول جدران الغرفة من الجهات الثلاث. جلسنا على واحدة منها فيما جلس فتیان باللباس الأبيض على الفرشة المواجهة لنا وقد بدا على سيمائهم أنهم طلاب فقه يدرسون على يد آية الله الحكيم. وبانتظار الرجل الكبير تحدثنا مع ابنه في شؤون سياسية وحياتية متنوعة. كان الجو حاراً في الغرفة. ولم ينفع الشاي ولا المرطبات بترطيب الحلق. الفتیان بحلقوا نظرهم بي وكأني أنتمي إلى عوالم من الفضاء الخارجي. كنت متأكدة أن شكلي مألوف

جداً لسيدة من البحر الأبيض المتوسط لكن أصابعي المكشوفة لم تكن ربما كذلك.

ودخل رجل سبعيني الغرفة بلباس أبيض ولحية بيضاء تغطي صدره، وتوجه إلى الفرشة الخالية في الصدر وترتّب عليها. للحظة لم أستوعب أن الرجل الصغير القامة والبنية هو نفسه آية الله العظمى حكيم. وتحدث بصوت غير مسموع، فاضطررنا إلى شد أعناقنا إلى الأمام وشحذ أسماعنا لنلتقط بعضاً مما كان يقول.

السفير قاضي أبلغ مضيفه أن الأمم المتحدة عقدت العزم على إعادة ترميم المسجد الذهبي وكل المساجد الأخرى التي دمرت في الحرب، واقترح أيضاً أن تقوم المنظمة الدولية بالدعوة إلى مؤتمر حوار وطني. وردّ الحكيم أن الأمم المتحدة قد فعلت الكثير للعراقيين، وأثنى على جهودها في تقديم النصح مشجعاً مواصلة النشاط الإنساني والسياسي للمنظمة، مشتكياً من العنف والمذهبية اللذين عصفاً بالبلاد. - الناس بدأوا يفقدون الأمل. هناك سلاح كثيف في كل مكان، في كل البيوت وفي أيدي كل الشبان. وليس سهلاً ضبط استعمال السلاح عندما يكون منتشرأ بهذا الشكل.

- كل الأطراف يلجأون إلى العنف. والسؤال الكبير كيف يمكن في ظل هذه الأوضاع وقف دورة العنف؟ سأل قاضي.

- لا يمكن تحميل كل السنّة مسؤولية العنف المستشري. إنها مسؤولية القادة ويجب أن يضطلعوا بدورهم التاريخي. نحن نجهد

دائماً ونحث أتباعنا على عدم الرد بالعنف نفسه الذي يتعرضون له. لكن، في هذه الظروف يبدو أن للسلاح صوتاً أقوى من صوت العقل؛ قال الحكيم مشتكياً.

وأفاض الحكيم بالحديث وعرض الوضع المزري في بغداد والبصرة وميسان والموصل وكركوك ومدن أخرى كثيرة تغرق بالدم كل يوم وقتلى بالمئات في كل مكان. كان يبدو عليه التعب واليأس وحاول عبثاً إيجاد نقطة نور في هذا النفق المظلم الذي يوجد فيه العراق. وحمل مسؤولية تردي الأوضاع إلى الدول المجاورة للاحتلال، والقادة السنة. لكنه اشتكى أيضاً من السياسيين الشيعة. واعتبر أن للأمن أولوية مطلقة ولم يمانع اللجوء إلى القوة لوقف هذا التزيف اليومي.

أكملنا طريقنا باتجاه بيت آية الله العظمى علي السيستاني وسط المدينة القديمة في النجف. واقترح الزملاء أن أنتظر خارجاً خشية أن يحدث حضور امرأة مكشوفة الأصابع حساسية في حضرة رأس الهرم الديني. ورغم أنني لم أقتنع بهذا التفسير الرجعي، وافقت على الانتظار خارجاً. كانت المدينة تعج بالحياة ورغبت في أن أفلت من رقابة رجال الأمن الشخصي الدوليين لأنتزعه في الشوارع كيفما أشاء، لكنهم لم يسمحوا لي بالابتعاد عن محيط السيارات المصفحة التابعة لنا.

لشدة دهشتي، كانت المحلات تعرض بضاعة إيرانية دون سواها ولافتاتها كتبت بالفارسية. العباءات النسائية السوداء في الهواء الطلق

تطايير أذبالها حسب مجرى الهواء، وصور الإمام الخميني ورجال دين شيعة تعرض للبيع كما لو كانوا نجوماً من نجوم موسيقى الروك. ولم يحلْ مدخل منزل السيستاني المتواضع من زيارات كثيفة لشبان باللباس الأبيض، كانوا على الأغلب طلاباً في الحوزة العلمية. هذه الحركة العلمية التي انطلقت في النجف والتحق بها طلاب من أطراف العالم مع مجيء الشيخ الطوسي إليها وتأسيسه الحوزة في القرن الحادي عشر محدثاً تغييراً ونهضة علمية لم يعهدها النجف الأشرف من قبل.

وتتميز الحوزة باستقلاليتها عن الدولة والجهات السياسية الحاكمة. وإبان حكم صدام وضعت الحوزة تحت مجهر أجهزة الدولة والمخابرات العراقية وتمت مراقبة نشاطاتها. وحدث أن طُرد طلاب إيرانيون خلال الحرب العراقية - الإيرانية ورفضت طلبات آخرين للدراسة في حوزة النجف.

وفي ظل الثقافة العلمانية التي اكتسحت العراق منذ الاستقلال، والأنظمة السياسية التي عملت على مكافحة تأثير الدين في المجتمع، طور أعلام الدين والمرجعيات في الحوزة مدرسة فكرية شبيهة بالصوفية؛ تدعو إلى الانكباب على دراسة النصوص الدينية والنأي بالنفس عن السياسة. وغلب هذا التوجه على نشاط الحوزة طوال القرن العشرين وأدى بها إلى فقدان الاتصال مع الناس والنأي بالنفس عن مشاكلهم اليومية.

جاء السيستاني إلى النجف من إيران وكان شاباً يافعاً في العشرين.  
وانكب طوال السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي على تفسير  
القرآن أملاً في أن يتركه صدام حسين بسلام.

وزاد نفوذه بعد الغزو الأميركي بعدما أظهر المسؤول الأعلى  
للاحتلال بول بريمر استجابة قوية لأرائه مما وضعه في موقع القائد  
الوطني الذي لم يكن السيستاني نفسه يحلم به يوماً، وفي ظل الفوضى  
والفراغ السائدين على الساحة العراقية رأى السيستاني أن من واجبه  
ضبط الشارع الشيعي حيث اختلط الحابل بالنابل مع عودة ألوف  
المتفبين إلى الوطن، وكلهم يطمحون إلى تبوؤ السلطة.

وكانت الظروف مؤاتية لملء الفراغ السياسي الذي نشأ بعد  
سقوط حكم صدام حسين. ونصح بتأسيس الائتلاف الشيعي لجمع  
الأحزاب الشيعية في كتل كبير، وأبلغ بريمر أنه يفضل إجراء انتخابات  
مبكرة رغم أن الأمم المتحدة نصحت بالتريث وأعطى تعليماته للشيعية  
بتشكيل لائحة انتخابية واحدة وصرح بدعمه لهم ضمناً وصرحاً، مما  
اعتبر خروجاً عن خيار النأي بالنفس الذي كان يدعيه.

وكبر نفوذ السيستاني ليصبح مرجعية دينية وسياسية لا يستهان  
بها، ورفض أن يستقبل الأميركيين في منزله، لكنه بقي على اتصال معهم  
عبر مبعوثين عراقيين. أحد الذين اشتهروا بالدبلوماسية المكوكية بين  
السيستاني وسلطات الاحتلال كان موفق الربيعي، مستشار رئيس  
الوزراء لشؤون الأمن.

رهط كبير من الصحفيين تجمعوا خارج بوابة منزل السيستاني لتغطية الزيارة التي تقوم بها الأمم المتحدة لآية الله العظمى. وقد لفتني أنه لم يكن يوجد بينهم امرأة واحدة. فالمساحة العامة في النجف كانت ذكورية بامتياز، والمرأة تمر بها عرضاً متخفية بالعباءة السوداء كالأشباح في جنح الليل.

واقترب مني صحافيان معتدان بنفسيهما وعلمت لاحقاً أنهما محمد وحسن، ويعملان لووكالة الأخبار الفرنسية في النجف. وراحا يطرحان عليّ الأسئلة وأبديا فضولاً في تبادل أطراف الحديث.

- هل يمكنك أن تقولي لنا شيئاً عن مضمون زيارتك للنجف؟

سأل محمد.

- وهل بإمكانكم نقل كل الأخبار بحرية أم تتعرضون للضغوط؟

- حرية التعبير عندنا ليست مطلقة. نغطي معظم الأحداث ولكن

عندما يتعلق الأمر بالرموز الدينية فيجب أن نكون حذرين. وينطبق

الشيء نفسه على أصحاب النفوذ كمقتدى وجماعة بدر. قد يحدث أن

نتلقى توبيخاً لو كتبنا ما لا يعجبهم؛ قال حسن.

- يقتصر الأمر على التوبيخ أم أكثر؟

- لا أتمنى أن تصل الأمور إلى القتل، أجباب حسن ضاحكاً.

واشتكى الصحفيان الشابان من القيود الاجتماعية والفكرية

والثقافية السائدة في المدينة؛ وراحا يقارنان الشيعة اللبنانية والحالة

الشيعة في العراق؛ وشرحت لهما أن زعيم حزب الله اللبناني السيد



حسن نصرالله تلقى دروسه في النجف ولكن رغم تشدده ومنطقه العنيف فإنه يعي تماماً الواقع وهو أنه يعيش في مجتمع متعدد الثقافات. هو ليس مرجعاً دينياً لكنه يشكل حالةً سياسية لا يستهان بها واستطاع عبر نضاله ضد إسرائيل أن يبسط نفوذه وشعبيته في كل العالم العربي. واتقدت عيون الصحافيين بالإثارة وبدا أنهما من المعجبين بالسيد نصرالله.

- السيد محترم جداً عندنا وله مجموعة كبيرة من المعجبين. إنه بطل العرب دون منازع، قال حسن.

- تخيل أنه الوحيد الذي انتصر على إسرائيل وأجبر الصهاينة على الانسحاب من لبنان. أنا فخور بهذا البطل الشيعي الذي وضع سلاحه في خدمة شعبه، قال محمد.

وتستند الشيعة المسلحة سواء في العراق أو في لبنان إلى ثورة الإمام الخميني ليس فقط بالشق السياسي منها الذي استبدل الشاه بالجمهورية الإسلامية التي باتت قوة عظمى في المنطقة، بل أيضاً بشقها الديني. فالإمام الخميني طوّر مبدأ ولاية الفقيه التي نزعت الحد الفاصل بين السياسة والدين وفرضت على الحكومات الاحتكام إلى سلطة المرجعية الدينية.

محمد باقر الصدر مشى على خطى الخميني وتحدى الأحزاب العلمانية في بغداد بما في ذلك حزبي البعث والشيوعي. وفي السبعينيات أسس حزب الدعوة الإسلامي الذي عمل في

السر ونشر تعاليمه بضرورة تطبيق الشريعة وتعاليم الله، وشكّل هذا النشاط السياسي للصدر تحدياً ليس فقط لصادق حسين وحكمه العلماني، بل أيضاً للحوزة العلمية ودورها الأساسي عند جمهور الشيعة. وانصرف باقر الصدر إلى رسم استراتيجية جديدة للتمثيل السياسي للشيعة الذين كانوا ممنوعين من دخول مؤسسات الدولة. فارتفعت شعبيته بين النجفيين وفي كل الجنوب العراقي.

وشعر آيات الله المتفوقون في أفكارهم وتفسيراتهم للنصوص الدينية بالتهديد. وخشي صدام من شعبية باقر ومواقفه الصريحة غير القابلة للمساومة أو التفاوض، فأصدر أوامره بالتخلص منه. واغتيل محمد باقر الصدر في نيسان عام 1980.

ولدهشة أتباع باقر وامتعاضهم، لم يحرك القادة الروحيون في النجف ساكناً. فصمتوا الصمت العجيب!

صادق الصدر، والد مقتدى وقريب باقر، لم يكن معروفاً لدى العامة طوال الثمانينيات، لأنه شاء حياة هادئة ومتواضعة. لكن إهمال المرجعيات الدينية له وتخليهم عن قريبه المقتول باقر حمله على التشكيك بنواياهم وبعقيدة النأي بالنفس التي كانوا يتبعونها.

و شاءت المصادفة أن يقع اختيار صدام حسين، الذي كان يسيطر على الحوزة وأئمتها، على صادق ليقود الحوزة، وهو الصموت الهادئ الذي يفتقر إلى قاعدة شعبية وطموحات سياسية. وقُدِّر لصادق بمحض الصدفة أو ربما لسوء تقدير صدام حسين، أن يقود

نشاط الحوزة، ويطوّر شبكة من العاملين في المجال الاجتماعي في القرى البعيدة.

وشن صادق حملة ضد جماعة النأي بالنفس واتهمهم بالتخلي عن الناس الفقراء، بالصمت المطبق عند اغتيال باقر وبالاختباء وراء أبراجهم العاجية. وقدم تصوراً جديداً لحوزة ناطقة ومقاومة وملتزمة سياسياً واجتماعياً بهموم الناس. وحصد صادق دعماً شعبياً عبر تصويره أئمة النجف وكأنهم لا يكثرثون إلا للنساء وكيف يصلين أثناء العادة الشهرية أو عندما يضعن مولوداً.

- أنا أقود ثورة بينما هم يتعاطون في الشؤون التافهة، قال في خطبته الأولى في النجف في نيسان 1998.

وروي عنه أنه استقبل مرة مزارعاً فقيراً جاء إليه ليسأله عن سعر البندورة. فاستهجن الصحابة الذين جلسوا مع صادق السؤال، وعنفوا المزارع لاستنزاف وقت آية الله بسؤال تافه كهذا.

لكن صادق استمهلهم وأجاب المزارع بلائحة أسعار مفصلة لأنواع البندورة الموجودة في السوق. وردّ المزارع أنه رغب بطرح السؤال على مرجعية تفهم عذابات الناس، وتقف إلى جانب الفقراء.

واعتاد آية الله صادق الصدر أن يبدأ خطبته باللعنات:

- اللعنة على إسرائيل! اللعنة على الشيطان! اللعنة على أمريكا!.

لكنه لم يوفر الحكومة في بغداد، كذلك آيات الله في النجف واحتكار إيران للقيادة الشيعية.

وكانت خطبه خلال صلاة الجمعة تجذب أعداداً هائلة من المؤمنين الشيعة. وكان صادق يمثل للشبان صوت التحدي، الصوت الذي يحث فقراء الشيعة على عدم ازدراء النفس وعلى الشعور بالفخر بهويتهم رغم الظلم ورغم التهميش.

وفي شباط/ فبراير 1999 اغتيل صادق مع ولديه حين فتح أحدهم النار على موكبه في النجف.

وانفجرت موجة عارمة من السخط والاحتجاج في كل العراق. اغتيل أبو الفقراء الذي وهبهم الأمل بالحرية والانعقاد. وعلمهم أن يتوقفوا عن الانحناء أمام أصحاب السلطة.

بعد سقوط صدام جرى تغيير إسم صدام سيتي (مدينة صدام) في ضاحية بغداد التي تحوي قرابة ثلاثة ملايين فقير معدم إلى صدر سيتي (مدينة الصدر) تيمناً بأية الله صادق الصدر؛ والد مقتدى.

وكما الأب كذلك الإبن.

لم يكن أحد قد سمع بمقتدى قبل سقوط نظام صدام. هو الإبن الرابع لصادق. إثنان منهما قتلا معه في السيارة، والثالث مريض لم يرغب بالحياة العامة. وكان لصادق أيضاً ابنة شجاعة قادت التظاهرات ضد صدام عند اغتيال والدها. لكن مدينة النجف الأشرف تنادي دوماً رجالها!!

وكان مقتدى لا يزال في الخامسة والعشرين ولم يكمل دروسه الدينية بعد، ويعاني من ضائقة مادية بعدما وضعت الحكومة يدها على ممتلكات العائلة. وقرر الوريث الشرعي لصادق الصدر حينها أن يتعد

عن الحياة العامة لافتقاره إلى قدرات القائد. ووصفه منافسوه أنه أحمق لا يرجي منه الكثير. لكن مقتدى يحمل إسم الصدر ودرس على يد والده ورأى أن واجبه يقضي بمتابعة الرسالة التي تركها صادق وتطوير الالتزام الاجتماعي والسياسي لعائلته.

وحدث أن تدفق عراقيو المنفى خلال الغزو الأميركي. لكن عراقيي الداخل لم يستسيغوا لاطروحات حزب الدعوة ولا تكتيكات المجلس الشيعي الأعلى للثورة الإسلامية. وعندما ظهر مقتدى ليعلن للناس تشكيل جيش المهدي لم يصدق الشيعة ما سمعوه. فمن راهن على غياب الصدرين خسء!

وحدد مقتدى موقعه السياسي. وشرح أنه مناوئ للاحتلال وللمجموعة الشيعية المتحالفة مع المحتلين. وأصبح مقتدى مثلاً للمسحوقين والمظلومين والفاشليين والشباب الذين ضاقت بهم الدنيا وكادوا يختنقون تحت وطأة الهرمية الاجتماعية. وارتفعت أعداد المنضوين في صفوفه.

المثقفون الشيعة ميّزوا أنفسهم عن مقتدى. ولم يعجبهم أسلوبه الفوضوي، ولا قراراته العبثية أو خطاباته الاستفزازية. وطفح الكيل خلال حملة النهب الأسود التي تعرضت لها بغداد بعد شهرين من سقوط النظام عندما عمم مقتدى على أتباعه تعليمات مفادها أنه يمكنهم الاحتفاظ بالغانم التي حصلوا عليها من أجهزة الدولة شرط أن يدفعوا المستحقات للأئمة الصدرين.

هذه البداية الكارثية وضعت تيار الصدر في مصاف العصابات الإجرامية التي تعيثُ فساداً في البلاد.

ورأى بول بريمر أن مقتدى شخص خطر ينبغي التخلص منه. وعندما هاجمت قوات الاحتلال الصدريين في النجف خلال تَبوُّؤِ إياد علاوي الحكومة الانتقالية عام 2004 كان الهدف القبض على مقتدى أو تصفيته.

ودنّس الجنود بحوافرهم المدينة المقدسة، وتمترسوا خلف مساجدها وأطلقوا النار على أضرحتها، وما كانوا ليفعلوا هذا لولا موافقة الحوزة الضمنية. وواجه مقتدى وقتها أعداء كثرًا: الحوزة من جانب والأميركيين من جانب، وسكان النجف الذين وقعوا في أزمة مادية خانقة نتيجة الصراع الدموي الطويل من جانب آخر.

وأخيراً استسلم مقتدى، وكان قد فقد المئات من رجاله في القتال. وتوسط السيستاني بين المتنازعين وعرض على مقتدى اتفاقاً يشترط انسحاباً نهائياً لجيش المهدي من الأحياء القديمة للنجف، والذي اعتبر ضربة قاصمة لتيار الصدر.

بعد معارك النجف حاول جاهداً أن يستعيد مكانته بين العراقيين. فتوقف عن خطابه الاستفزازية وشكّل فرقة من الشرطة المحلية لمراقبة التزام أتباعه بالتعليمات الحزبية ومعاقبة غير الملتزمين بحلق رؤوسهم أو بإجبارهم على تنظيف الشوارع.

وتمكن في انتخابات كانون الأول/ديسمبر 2005 أن يحصد 32 مقعداً في البرلمان ويلعب دوراً محورياً داخل الائتلاف الشيعي،

ويضمن فوز نوري المالكي على مرشح الأميركيين عادل عبد المهدي لمنصب رئاسة الوزراء.

وقاطع حكومة المالكي احتجاجاً على القمة العراقية - الأميركية؛ ثم عاد إليها وبات يطمح إلى لعب دور إقليمي واستقطاب شعبية واسعة شبيهة إلى حد ما بدور السيد حسن نصرالله وشعبيته في لبنان. وتوقف موكبنا أمام منزل مقتدى الذي يقع عند أطراف المدينة. بيت أبيض كمعظم بيوت النجف ومحاط بجدران عالية وسلك شائك. عند المدخل يقف عدد من الحراس ينتظرون على ما يبدو وصول الوفد. وسحبت وشاحي على رأسي ووقفت خلف الزملاء أتظاهر بإلقاء التحية على محمد وحسن والصحافيين الذين تجمهروا خارج منزل مقتدى.

عندما دخل السفير قاضي والآخرون أوقفني رجلان عملاقان عند المدخل وكادا لحجمهما أن يسدّاه.

- ليس مسموحاً لك بالدخول، قالوا وهما يهزان برأسيهما.

- نعم؟ أنا مع وفد الأمم المتحدة وينبغي أن انضم إليه.

- حرام أن توجد النساء في الغرفة نفسها مع الرجال.

- حرام؟ شقيقة السيد قادت التظاهرات ضد صدام. وخديجة،

زوجة النبي، قادت الحروب والمعارك. من أين جئتم بالحرام؟

أوتظنون أن هذا مسجد أو جامع؟

ونظر العملاقان إلى بعضهما؛ أمراني أن أغطي الخصلات البارزة

تحت الوشاح وطلبا مني أن أنتظر. ودخل أحدهما، وتبادل كلمات

قليلة مع حارس آخر، ثم جاء يطلب مني أن أتبعه. وصعدنا درجاً قصيراً أفضى إلى غرفة صغيرة مظلمة من دون نوافذ تشبه قاعة صلاة للنساء. وامتألت خياشيمي برائحة نتنة. وسمعت الحارس يقول لي همساً إنني أستطيع متابعة اللقاء من هنا.

كان مقتدى في الثالثة والثلاثين يومها ومحاطاً برهط من المساعدين والمستشارين. كان يبدو متحمساً وينظر بشيء من الحول في إحدى عينيه، ويشكك بنوايا الأميركيين.

- الأميركيون يعتقدون أن باستطاعتهم تحقيق كل شيء بمفردهم. لكنهم بالحقيقة لا يستطيعون، قال مقتدى. المشكلة معهم ومع البريطانيين أنهم متعجفون بشكل غير اعتيادي. لا يسمعون ولا يستشيرون ولا يساعدون العراق بالسياسة التي يعتمدونها. لو غيروا سياستهم وعدّلوا مواقفهم ليصبحوا قوة مساندة لاستطعنا أن نتعاطى معهم.

- كيف تنظرون إلى العملية السياسية، سأل قاضي.

- كنا نأمل أن تقوم حكومة وحدة وطنية تقودنا إلى الاستقرار والأمن. لكن ما حصل هو العكس. الوضع ميئوس منه، والاستقرار وحده كفيل بولادة حكومة قادرة على ضبط الأمور. يبدو أن الأميركيين تخلوا عن المشروع الديمقراطي ويتفاوضون مع الإرهابيين بدل أن يتفاوضوا مع العراق.

- هل تقبلون بالتفاوض معهم؟ سأل قاضي.



- لا، نحن في تيار الصدر لا ندخل في مفاوضات مع المحتل، قال مقتدى.

وطلب قاضي من مضيفه السيد أن يتحدث إليه على انفراد، فقاده مقتدى إلى غرفة مجاورة في المنزل. كان جلياً أن السفير يحمل رسالة من الأمير كيين إلى السيد، بقي محتواها سرّاً لم يعلم بمضمونه غيرهما. في هذه الأثناء انهمك كيش بالحديث مع مساعدي مقتدى.

- نحتاج أن ننخرط أكثر في الهيكلية الاجتماعية لشعبنا، قال أحد مساعدي مقتدى. قررنا مقاطعة الانتخابات المحلية عام 2005 وندمنا بمرارة. كان بالإمكان مساعدة شعبنا أكثر. فالأحزاب الفائزة لا تفعل شيئاً كثيراً، وهذا مصدر خيبة أمل وانزعاج من جانبنا.

عندما عاد السفير والسيد من خلوتهما، كان وقت الغداء قد حان. وجلس الجميع حول مائدة امتلأت بأطياب المأكولات العراقية. واستمر الحديث خلال وجبة الطعام. مقتدى بدا عصبياً وقلقاً. كحيوان مهدد من كل الأطراف. وأشار إلى أن العلاقات مع السيستاني تحسّنت كثيراً أخيراً، وأن الأخير أصبح أكثر تحملاً من تأثير الإيرانيين.

- كيف هي الأمور مع جيش المهدي؟ سأل كيش.

- ليست كما ينبغي. واجهنا مشاكل في تأديب بعض الشبان كون الجيش ليس متجانساً. يجب أن نشدد قبضتنا لضبط الأوضاع، قال مقتدى.

وبينما كان مقتدى يجهد لتعزيز مكانته كرجل دولة كان جيش المهدي يستبيح بغداد وسكانها. يقتل دون تمييز ويهاجم الناس في

بيوتهم ويسرق ممتلكاتهم ويطلب فدية لإطلاق المخطوفين. وكان مقتدى يعظهم أن جيش المهدي ليس ميليشيا بل جيش له أيديولوجية، وقائده ليس رجلاً عادياً، بل هو الإمام المهدي الذي سيعود ليعاقب المجرمين والخطاة حسب تعاليم المذهب الشيعي.

وجاءني أحد الحراس بوجبة طعام فاعتذرت عن تناولها وتبعته لمغادرة الغرفة. قفزت داخل السيارة وأنا في حالة غيظ شديد. حتى وجبة الطعام لم أستحق أن أشاركهم بها. حرام! اختراعات ذكورية بامتياز لحجب النساء عن الحياة العامة ومراكز السلطة!

أشارت الساعة إلى الرابعة بعد الظهر. خفّ وهج الشمس وصار لونها أصفر. وبدأ رجال الأمن يتململون خشية أن نتأخر عن المروحية التي ستقلنا إلى بغداد. وما هي إلا دقائق حتى خرج السفير وسار الموكب باتجاه مدرج المروحية الأميركية. وألقيت نظرة وداع على المدينة المقدسة؛ الفقيرة والغارقة في الإهمال. الأولاد يلعبون حفاة فيما تبحث كلاب الشوارع في القمامة عن طعام. مررنا ثانية بالمقبرة العملاقة. سلكننا الشارع العريض بحماية المروحية الهادرة فوق رؤوسنا؛ تاركين النجف الأشرف خلفنا.

وأصاب الشلل كل مؤسسات الدولة والعقول. ولم يملك أحد الإجابة عن كيفية الخروج من حمام الدم الذي غرق فيه العراق على مدى سنوات.

وطرح مستشار رئيس الوزراء موفق الربيعي اقتراحاً يقضي بقيام الأمم المتحدة بمبادرة تدعم فيها حكومة بغداد في نزع سلاح رجال الميليشيات وإعادة دمجهم في المجتمع. وتكثفت الاجتماعات بين قاضي ونائبه فون شولنبرغ، ثم بينهما وبين المسؤولين في نيويورك. وانتهت المساجلات إلى أن البعثة لا تملك تفويضاً من مجلس الأمن بنزع سلاح الميليشيات، وإلى كون هذه المسألة موضع تجاذب بين الحكومة وقوات التحالف، وداخل الحكومة العراقية نفسها، إذ إن كل الأطراف الممثلة في الحكومة تملك أذرعاً عسكرية، ومن الصعب الفصل بين من تنطبق عليه صفة الميليشيا ومن لا تنطبق عليه هذه الصفة مما سيدخل المنظمة في صراعات هي بغنى عنها. ورأى السفير قاضي أنه لا يجوز تالياً زج الأمم المتحدة في ملف فشلت قوات التحالف في التعامل معه.

بعد أسبوعين جاء القرار النهائي من نيويورك الذي أفاد أن المشروع واسع ويتطلب تنفيذه موارد إنسانية ومادية باهظة، ويشترط التزاماً سياسياً قوياً من الحكومة وتعهداً ببدء حوار وطني ومصالحة وطنية. وإن الضغط للتعجيل في هذا الاتجاه أو ذاك قد تكون له عواقب لا تحمد عقباها. وبذلك وضع المشروع على الرف .

فغياب الإرادة السياسية أولاً؛ وغياب استراتيجية أميركية للسلام ثانياً وثالثاً وعاشراً دفعت بالعراق، بعد ثلاث سنوات من الغزو، إلى الغرق في مستنقع العنف والدم.

700 يوم في بغداد

وجاء أول الغيث في بدايات عام 2007 عندما أعلن الرئيس  
الأميركي جورج بوش استراتيجية جديدة للعراق تنطلق من بغداد.

## واحة في منطقة حرب

- هل أستطيع الدخول؟ سألت الحارس البيروفي وأنا ألصق بطاقة هويتي على حاجز الزجاج الذي يجلس خلفه.
- لا سينيورا. لا يمكن.
- إفتح الباب، قلت بعصية.
- لا! صرخ في وجهي بنبرة جدية.
- يجب أن أتحدث إلى رئيسك. نادِه لو سمحت.
- وفتح رئيسه الباب الحديدي الأسود، فظهر جندي أميركي بلباسه العسكري وكامل سلاحه، يقف تحت شمس تحرق كالنار. أخرجت بطاقة هويتي وقلت إنني أريد المشاركة في نشاطات النادي.
- وما المشكلة إذن؟
- لا يسمح الحراس لي بالدخول.
- وبإشارة من يده أمر الأميركي الحراس بفتح الباب. ودهشت لروعة المكان وظننت للحظات أنني انتقلت إلى ميامي بيتش أو أي منتجع سياحي مماثل. توازن رائع بين اللون والظل أضفى لمسة فنية جميلة على بغداد القاحلة.

سلالم قصيرة تفضي إلى قاعة التلفزيون والشاشة العملاقة. وبردات المياه المعدنية تعمل فوق طاقتها لتلبية الطلب الكثيف على الزجاجات الباردة، وإلى جانبها تعلق أكداس من المناشف البيضاء النظيفة بانتظار رواد النادي.

خلف الحاجز الزجاجي، يميل اللون التركوازي في حوضي السباحة المستدير والأولمبي إلى الأزرق بحسب موقع الشمس، فيما تنتظر شبك الكرة الطائرة الممدودة في وسط الحوض الكبير من يهزها، أما ماكينة البوشار الأميركية فتبعث رائحة مثيرة توقظ رغبات دفينة للتسلية والاستجمام. ففي بغداد العسكر والسلاح والاختناق، كان هذا المكان مرتعاً لاسترداد العزيمة والتفاؤل بالحياة.

وراحت أميركيات شقراوات يتغندرن بلباس البحر، أو يتمددن لقراءة رواية مثيرة فيما شعاعات الشمس تسلق بشرتهن. ويحوم الشبان حول المكان بسر اويل سباحة تغطي الركبة وينصرفون إلى اختبار طرق غوص مختلفة: بعضهم يقفز برؤوس مستقيمة إلى أسفل، وآخرون بأرجل مطوية إلى الخلف؛ والبعض الآخر يقفز دوائر في الهواء. وترسم دوائر على سطح المياه ويتطاير الرذاذ في الهواء فيرطب وجوه المتفرجين. تناولت كيساً من البوب كورن وجلست عند زاوية المسبح أتمتع بالمشهد الجميل.

فالنادي الذي يديره الأميركيون، ليكون واحة استجمام لقوات التحالف ولموظفين مرهقين مثلي، بناه في الأصل ابن صدام حسين

عدي الذي اشتهر بحياة صاخبة، اختلطت فيها الكحول بالمخدرات وحوادث الاغتصاب. جزء كبير من هذا الفسق اتخذ مسرحاً له في هذا المكان الذي كان يشهد إقبالاً واسعاً في ليالي الخميس المخصصة للموسيقى اللاتينية ورقصات السالسا والسامبا التي تلهب الأجواء. ولم أكن لأفوت ليلة امتزجت فيها السباحة والرياضة بالإيقاعات الجميلة مصطحبة علاء الدين المرهق من أجواء المكتب المشحونة. ويتشكل مكتب الأمم المتحدة في بغداد من بوتقة جميلة وصعبة من موظفين أتوا من بقاع الأرض ومعهم خصوصياتهم واختلافاتهم ليس فقط الإثنية والدينية والثقافية، بل أيضاً اختلافات في مستوى التعليم والتقاليد المهنية والفكرية مما طبع أسلوب عملهم، وتعاطيهم مع المهمات الموكلة إليهم. وعمد الزملاء إلى التركيز على اختلافاتهم بدل التركيز على الأهداف الموحدة التي يعملون معاً من أجلها. ونتج ذلك عن استقطاب للموظفين في تكتلات دينية أو ثقافية، ترجمه الزملاء العرب على أنه نوع من العدوان.

وقد انتشرت هذه الأفكار كما النار في الهشيم بعد اعتداءات 11 أيلول/سبتمبر والحملات الدعائية المناهضة للعرب، والتي ألفت على أكتافهم مسؤولية جماعية لكل الهجمات الإرهابية التي وقعت منذ ذلك الحين. والعرب الذين يتأرجحون بمشاعرهم تجاه الغرب بالإلفة والإعجاب حيناً والمواجهة والصراع حيناً آخر، أصبحوا بعد اعتداءات أيلول/سبتمبر لا يكونون للغرب إلا مشاعر الارتياح والضعيفة.

- نعيش في زمن يبدو فيه الصراع بين الشرق والغرب جلياً أكثر من أي وقت مضى. لست مجبراً على أن تختار طرفاً أو أن تلعب دور المحامي طوال الوقت، قلت لعلاء الدين.

- وكيف يمكنني أن أغير المعتقدات الخاطئة إذا بقيت جانباً ولم أرد عن الناس المظالم التي تصيبهم. كيف يمكنني ألا أكون طرفاً؟ الحياد كذبة لذّر الرماد في العيون؛ طلاء خارجي.

- تستطيع أن تكون مراقباً وتحاول أن تفهم ما يحرك مشاعر الناس. لا فائدة من الصراعات. هذا هو العالم الذي نعيش فيه أنا وأنت، سواء أعجبك أو لم يعجبك.

- للأسف أننا ولدنا في هذا الزمن الرديء، قال بحسرة.

- لا نعرف ما سيأتينا بعده. لربما زمن أسوأ.

وضحكنا وأكلنا الذرة المحضرة على الطريقة الأميركية. واستمعنا إلى موسيقى السامبا، وشاهدنا الناس يرقصون ويهزون أوراكهم بحماسة، علّهم للحظات ينسون أنهم موجودون وسط حرب مستعرة!

وهول باتجاهنا زميلنا جورج دافيس الذي يعمل منسقاً بين البعثة وقوات التحالف. وكان جورج قبل التحاقه بالبعثة يعمل ضابطاً عسكرياً مقرباً من صقور الولايات المتحدة، أي المحافظين الجدد الذين يتحمّلون تبعات الحرب التي شنتها واشنطن على أفغانستان



والعراق دون أدنى اعتبار للخسائر الكبيرة في الأرواح التي حصدها الحربان .

وكان جورج شاباً لطيفاً عموماً إلا عندما ينخرط في نقاشات سياسية وصراعات تافهة مع علاء الدين. وكالمعتاد راح يدافع عن حرب أفغانستان ضد القاعدة والطالبان وحرب العراق ضد الديكتاتور صدام حسين.

- نيأتنا حسنة. نحن نريد استبدال الأنظمة الشريرة بأنظمة ديمقراطية. من الطبيعي أننا كنا نتوقع انتقالاً سريعاً وسهلاً لكن بعض الأمور تحتاج إلى الوقت.

- ماذا كنتم تتوقعون؟ أن يهب 23 مليون عراقي للتهليل لكم وتقيل أياديكم لأنكم جررتهم الخراب على بلادهم؟ سأل علاء الدين مستهزئاً.

- لا يوجد أي دليل على أن صدام كان يملك أسلحة دمار شامل، أو علاقات مع القاعدة. المشكلات المتأتية عن نظامه وطريقة حكمه كان يمكن حلها بطرق أخرى غير الحرب، قلت مضيضة. لكن الولايات المتحدة لم ترغب بحلول سلمية وعملت على تهميش الأمم المتحدة وفريق الخبراء التابع لهانس بليكس. يجب أن تفهم أن غزو العراق كان خطأً استراتيجياً كبيراً.

- ولكن الولايات المتحدة تملك اليوم حرية تحرك أكبر في الشرق الأوسط عما كانت عليه الحال سابقاً، أجاب جورج.

كان مؤلماً سماع أحدهم يدافع عن حرب استندت إلى أكاذيب ولم تأت إلا بالفوضى وعدم الاستقرار للمنطقة العربية بأسرها. سقوط صدام حسين أطلق طموحات إيران من عقالها فتعاظم نفوذها في بلدان الشرق الأوسط، وحققت نجاحات كبيرة في تصدير الثورة الإسلامية فأيقظت النعرات التاريخية بين الفرس والعرب. كما أدت «دمقرطة العراق» إلى تعزيز نفوذ الشيعة في البلاد، فعصفت رياح الفتنة بين السنة والشيعة بعد 1200 سنة على إخمادها وانتشرت إلى بلدان الوجود الشيعي. ولو حدث أن نجحت إيران في برنامجها النووي فإن المنطقة ستدخل حكماً حروباً لا تنتهي يكون فيها التسابق على التسليح النووي والنفوذ والسيطرة على الشرق الأوسط نتيجة حتمية.

وأخذ جورج جرعة من مشروب الكوكاكولا ونظر صوب حوض السباحة.

- نحن الأميركيون لا نملك موهبة فهم الثقافات الأخرى، خصوصاً الثقافة العربية الإسلامية، قال. الأميركي يتوقع أن يشكره الناس لأنه ساعد في تحرير العالم من ظلم المستبدين، لكنهم بدل ذلك يظهرون استياءهم مما فعلناه لأجلهم.

قفزت إلى حوض السباحة لأوفر على نفسي سماع المزيد من هراء الدعاية الأميركية. وتبعني الزميلان وسددا صوبي ضربة كرة. ولعبنا الكرة الطائرة حتى هبط الظلام على بغداد وحان وقت العودة إلى الرشيد.

## انشقاق بين السنة

عندما أعلن رئيس الوزراء نوري المالكي في حزيران/يونيو 2006 وفاة أبو مصعب الزرقاوي تنفس العراقيون الصعداء ليس فقط بسبب الهجمات الدموية التي نسبت إليه، ولكن أيضاً لخطابه المذهبي كقوله مثلاً: «إن الإسلام بريء من الشيعة التي كانت عبر القرون طعنة في ظهر المسلمين وافتراء أفسد الهيكلية، وجسراً عبر فوقه أعداء الإسلام».

وساء السنة والشيعة على السواء خطاب يشجع على الفتنة ويعطي الزرقاوي دوراً أوسع وحجماً أكبر على الساحة العراقية والإقليمية. وفي وقت انهمك فيه علاء الدين وزملاؤه في دراسة وتحليل نتائج غياب الزرقاوي وتأثيراته على المقاومة الوطنية والعنف في الشارع البغدادي، كنت أخطط لزيارة أو اثنتين للمسؤولين السنة في العاصمة.

إمام أحمد عبد الغفور السامرائي، رئيس ديوان الوقف السني، وهو منصب بدرجة وزير، أبدى حماساً غير اعتيادي للقائنا، ومناقشة آخر المستجدات السياسية. وبدا كل شيء يسير على ما يرام إلى أن

حان موعد اللقاء. فما أن غادر موكبنا المنطقة الخضراء حتى بدأ مساعدوه الاتصال بنا طلباً لتغيير مكان الاجتماع. ثم أسرع الإمام إلى تلقف الهاتف النقال ليقول لي إنه يرغب بلقائنا في الأعظمية، وهي معقل السنّة وتعج بالمسلحين وبعناصر القاعدة.

وقلت له إنه يستحيل تغيير مكان اللقاء في اللحظة الأخيرة.

- نحن أمام بابك خلال دقيقتين.

- أين أنتم الآن؟ سأل.

ولم يكن بالإمكان تحديد موقعنا لأسباب أمنية.

- لا أعرف بغداد جيداً. لكننا سنصل خلال دقيقتين.

- الوضع هنا خطر جداً لإجراء أي لقاء. ثم إن المكتب ضيق

وصغير ويفتقد إلى الحماية.

- عندنا الحماية الكافية معنا. سترى عندما نبلغ العنوان المتفق

عليه. لو سمحت انتظر دقيقتين. أرجوك.

وتمتم الرجل كلمات غاضبة غير مفهومة. وتمنيت على السائق

أن يسرع في قيادة السيارة، لكننا كنا جزءاً من موكب تقوده دبابة

عسكرية تتقدم على إيقاع خاص بها. وأصابني القلق لتعريض حياة

الإمام السامرائي للخطر وأنا لم أكن أفكر إلا بإتمام اللقاء.

عندما بلغنا مكتب الإمام كان السامرائي في حالة احتياج شديد.

لكن الغضب تحول سريعاً إلى حالة من الذهول ما إن وقع نظره على

القوة العسكرية التي كانت تواكبنا: دبابتان وسيارات مصفحة ورجال أمن مسلحون بالكامل.

- هل رأيت الآن لماذا لم يكن بوسعنا تغيير مكان اللقاء في اللحظة الأخيرة؟ عملنا أياماً للتحضير لهذه الرحلة، قلت.  
أوماً أحمد السامرائي بالإيجاب وأشار لنا بالدخول.

- أمر كل يوم على سبعة حواجز بين بيتي والمكتب. وعلى كل حاجز يقف أكثر من عشرين مسلحاً يدققون في هويات المارة، يأمرونهم بالنزول من سياراتهم ويخطفونهم ويقتلونهم. كل هذا يحدث أمام أنظار الآخرين. لا أحد يجرؤ أن ينبس بكلمة. مرة، سمعت أحدهم يهددني بالقول إن حظي كبير أن بجانبني تجلس سيدة. لولاها لكان تصرف معي بطريقة مختلفة، قال السامرائي يائساً وضرب كفاً بكف.

وتابع رئيس ديوان الوقف السنّي:

- أدفع الفلوس كلما مررت بحاجز لجيش المهدي. أفكر لو كان المال ينقذ حياتي ويوفر عليّ موتاً تافهاً، فلم لا؟

وتناول هاتفه النقال وعرض علينا لقطة فيديو تظهر إماماً يُسحب من رجليه المربوطتين بصندوق السيارة في شوارع العاصمة. ثم قال: إن غياب الزرقاوي لن يؤثر في مجرى الأحداث أو على نشاط المقاومة.  
- بعض السنّة يتذمرون من القاعدة و«حربها المقدسة». وبعضهم اغتيلوا فعلياً على يدها لترشحهم للانتخابات البرلمانية أو لأنهم

اختاروا الانضمام إلى الشرطة أو الجيش. السنة تبعوا من القاعدة وأداروا لها ظهورهم. هذه الشكاوى شكّلت الأساس في قيام مجالس الصحوة في محافظة الأنبار، ولكن الوقت لا يزال باكراً للتنبؤ بمستقبل العلاقة بين هذه المكونات.

كنا نعرف أن السامرائي يتعاطف مع الصحوة ويساندها في محاربة القاعدة في العراق؛ لكننا لم نقل شيئاً. فهو الرجل الذي يثير لدى خصومه جدلاً لتضارب مواقفه في القضايا الوطنية، قبل الاحتلال وبعده.

عند نهاية الاجتماع بدا السامرائي لطيفاً جداً، وقال إنه مستعد لدعم الأمم المتحدة بكل الوسائل المتاحة. اعتذرت مجدداً لسوء التفاهم الذي جرى بسبب مكان اللقاء فابتسم ابتسامة صداقة وتفهم. في الأسبوع التالي تعرض السامرائي لمحاولة اغتيال نجا منها بأعجوبة. فأرسلنا إليه برسالة دعم وتشجيع.

في أواخر صيف عام 2006 حاول الأميركيون التقرب من رؤساء العشائر السنة في الأنبار على أثر اتصال عبد الستار أبو ريشة بالقوات الأميركية مقترحاً تكوين تحالف لمحاربة الجماعات السنية المتطرفة. ووافق الأميركيون على تقديم التمويل وتدريب المقاتلين التابعين له. وكان أبو ريشة قد عاد من دبي - حيث يدير شركة استيراد وتصدير- للانتقام لمقتل عدد من أقاربه على أيدي عناصر من القاعدة. وقام بتشكيل مجلس ثوار الأنبار من كبرى العشائر السنية وأعلن أن

الهدف هو إخراج تنظيم القاعدة من المحافظة. وخلال شهر واحد سيطرت قوات أبو ريشة على محافظة الأنبار وطردت القاعدة رغم أن عددها لم يتجاوز 2000 مقاتل وقتها.

عزز هذا الانتصار مجلس ثوار الصحوة الذي نما عدة وعديداً. وكان الجيش الأميركي يدفع رواتبهم ويمدهم بالسلاح مقابل قتال المتشددين. وحقق المجلس إنجازات كبيرة في ضبط الوضع الأمني، وحراسة الأحياء السكنية، وفي وقف القتل العشوائي والطائفي وطرده عناصر الميليشيات والقاعدة. لكن بعض السنة قبلوا بالصحوة على مضض، وبعضهم الآخر انتقد أبو ريشة صراحةً واعتبره عميلاً للأميركيين، من بينهم هيئة علماء المسلمين وزعيمها حارث الضاري الذي هرب إلى عمان بعد أيام قليلة من صدور أمر بتوقيفه من قبل الحكومة بسبب انتقاده العنيف لنشاطات الصحوة في الأنبار.

وارتأينا الاجتماع مع ممثلي هيئة العلماء المسلمين للوقوف على موقفهم من الصحوة التي كانت تمثل بحسب رأي كثيرين الحل الأمثل لتوفير الحماية للمدنيين. وأبدى الناطق باسمهم الشيخ عبد السلام القبيسي رغبة في لقائنا محدداً مسجد أبو حنيفة في الأعظمية مكاناً للاجتماع. لكن خبراء الأمن في البعثة رفضوا قطعياً الذهاب إلى الأعظمية، فاتصلت بالشيخ القبيسي أسأله عن إمكانية اللقاء في مكان آخر. أي مكان غير الأعظمية!

- نحن لا نستطيع مغادرة المسجد. قد نتعرض للاغتيال لو

خرجنا. وإذا كنتم لا تستطيعون المجيء إلى الأعظمية فالأفضل أن نلغي الموعد، قال الشيخ.

- إما أن نذهب إلى الأعظمية وإما أن نلغي اللقاء، قلت بإيجاز لفون شولنبرغ.

صباح اليوم التالي، جاءتنا إشارة الموافقة من المعنيين بأمننا وتوجه موكبنا إلى الأعظمية ومسجد أبو حنيفة الذي يعتبر من أهم المساجد في بغداد. وقد بني المسجد والمدرسة بجوار قبر أبي حنيفة النعمان بن ثابت الذي لُقّب غالباً بالإمام الأعظم ونُسب إليه المذهب الحنفي، أحد المذاهب السنية الأربعة.

وفوجئت بأعداد المساجد الكبيرة والصغيرة المنتشرة في بغداد. فعند كل تقاطع طرق، خلف كل زاوية أقيم مسجد ارتفعت فوقه قبة وأحاطت به مآذن مزينة بالحجر الأزرق المصقول والنحاس المذهب. كلها تحمل قصصاً مثيرة عن رجال حكماء وأئمة ومتصوفين وعلماء عاشوا هنا ودرّسوا الناس طرقاً كثيرة مختلفة للقاء الله العلي العظيم.

توقف الموكب عند مسجد أبي حنيفة. فأطلقت شهقة إعجاب عفوية بالقبة الرائعة المكسوة بالفسيفساء الأزرق والأبيض، والبرج الأسطواني المغطى بصفائح معدنية باللون الذهبي، وساعة الأعظمية الشهيرة التي توقفت عن العمل بعد المعركة العسكرية في نيسان/ أبريل عام 2003 التي خلفت أضراراً في منارة الجامع والساعة والضريح وأجزاء أخرى داخل المباني المحيطة بالجامع.



وشدني أندي من معصمي للحاق بفون شولنبرغ عند المدخل، فتوجهنا مباشرة إلى مكتب القيسي وكان يعج بقطع خشبية حفرت عليها سور قرآنية تمجد الله الرحمن الرحيم. فاستقبلنا الشيخ القيسي بتعليق أقل ما يقال فيه إنه يفتقر إلى الدبلوماسية.

- الأمم المتحدة مقيدة اليدين والأميركان يعرفون تماماً ماذا تفعلون والى أين تذهبون. مع ذلك، نحن نرغب أن نتعاون معكم؛ ونرحب بكم هنا في قلب الأعظمية.

- لا تملك الأمم المتحدة جيشاً ولا مصادر أموال. سلطتنا

المعنوية نستمدّها من ثقة الشعب العراقي بنا، أجا ب فون شولنبرغ.

- عندما يسدد أحدهم صفقة إلى خدك الأيمن فدر له الآخر.

أليس كذلك؟ يجب أن يتحلى المرء بالصبر. الجبان وحده يهرب، أجا ب القيسي.

وروى لنا أنه فقد الشهر الماضي 29 شخصاً من أقاربه عندما

هاجم الأميركيان حفلة ختان. هذا الهجوم لم تأت على ذكره وسائل

الإعلام التي انشغلت طوال الصيف الماضي بمتابعة الحرب الدموية

بين لبنان وإسرائيل.

- الأميركيكان يريدون تدمير العراق وتقسيمه. يتحدثون دوماً عن

حجم المجموعات السكانية لأنهم يخططون لتقسيم البلد. لا يمكن

فرض الاستقرار من دون عدالة. كيف يمكن لمليون ونصف المليون

سنّي في الأنبار أن يحتلوا تسعة مقاعد فقط في البرلمان؟ تساءل القيسي.

لم يكن الموقف المتشدد للقيسي ليفاجأ أحداً بعدما سدّد الأميركيون ضربة قاسية ضد مسجد أبي حنيفة في نيسان/ أبريل 2003، وأعادوا الكرّة مرات ومرات خلال صلوات الجمعة، فقتلوا العشرات واعتقلوا المئات من المؤمنين. وسائل الإعلام العراقية عرضت صوراً مريعة لما تعرض له المصلّون لمجرد الإعراب عن تذرهم من الغارات المتكررة على مسجد أبي حنيفة واللعنة التي أصابت أهل السنّة في العراق! وكان الأميركيون يبررون الهجمات المتكررة باتهام أئمة مسجد أبي حنيفة بإعلان الجهاد ضد الأميركيين وتشجيعهم الشبّان السنّة على الالتحاق بالمقاومة.

وسمعنا أصوات طلقات نارية في الخارج، فتوقف الجميع عن الكلام. شحذنا آذاننا وحاولنا معرفة مصدرها، لكن ما لبث المجتمعون أن عزوا ذلك إلى المظاهر الطبيعية في بغداد وأكملوا حديثهم.

- نريد إلغاء كل القوانين التي وضعها بول بريمر بما في ذلك الدستور وقانون الانتخاب. يجب إعادة إجراء العملية كلها من جديد. وهيئة العلماء المسلمين التي قامت بعد أربعة أيام فقط من الغزو الأميركي لن تتهاون في مطالبها.

وتضم الهيئة علماء وأئمة من السنّة أرادوا في البداية تشكيل حالة سياسية تمثل أهل السنّة في العراق الجديد بعيداً عن العنف والقتل.

لكنها ما لبثت أن وجدت نفسها تتحدث باسم المقاومة السنّية. غير أن نفوذ هيئة العلماء المسلمين بدأ يتقلص مع قيام ما يعرف بمجالس الصحوة في الأنبار.

- كل رؤساء العشائر الذين انضموا إلى الصحوة خونة. الأميركيون يكررون الخطأ نفسه الذي ارتكبه في أفغانستان حين دعموا المجاهدين العرب ضد السوفيات، وما إن خرج السوفيات حتى وقعت صراعات داخلية بين العشائر وانتهت إلى معارك طاحنة بين أمراء الحرب، قال القبيسي.

كنا على ثقة أن نفوذ هيئة العلماء المسلمين كان إلى انحسار وأن قاداتها يفتقدون إلى المرونة السياسية والقراءة الصحيحة للتطورات؛ لكننا ودعنا الشيخ القبيسي دون أن نقول شيئاً. وفي طريق العودة تحدثنا عن الانقسام الحاد بين السنّة والذي أضحى جلياً مع قيام الصحوة. وكان السؤال المطروح هو كيف سيؤثر ذلك في الشارع العراقي الغارق بالدم والإرهاب؟

على بعد أمتار قليلة من مسجد أبي حنيفة انفجرت عبوة ناسفة موضوعة على الجهة اليسرى من الطريق حيث يجلس أندي. نظرنا إلى بعضنا والرعب يشلّ عقولنا. ومضت لحظات قليلة قبل أن نفهم أننا تعرضنا لهجوم. بلعت ريقى بصعوبة وقلت:

- أندي.. أنت بخير؟

- حتى الآن، تتمم مجيباً.

وساد صمت غريب في السيارة. نظرنا من خلال النوافذ إلى الشارع حيث ساد هرج ومرج، ورأينا فتياناً صغاراً إلى اليسار وإلى اليمين يحثوننا بأكفهم على الاستعجال.  
- يلا... يلا...

وراح الموكب يسير بتعرج وبأكبر سرعة ممكنة. وانكب الجنود الأميركيون يرسلون تعليمات أمنية عبر الراديو، واستنفر رجال الأمن بأسلحتهم الأوتوماتيكية. أحدهم أطل بنصف رأسه من فتحة الدبابة وبدأ بعينه المشتعلتين كعيني البومة في الظلمة.

عندما وصلنا إلى المنطقة الخضراء تنفسنا الصعداء. تجمعنا حول السيارة المصفحة ودهشنا للأضرار البسيطة التي خلفها الانفجار. وشرح الجندي الأمريكي أن الأمر، لحسن الحظ، كان عبارة عن قنبلة يدوية صغيرة الحجم انفجرت عند مرور الموكب. وشكرنا للجنود جهودهم وحمدنا الله على بقائنا سالمين، ودخلنا مكاتبنا. وأسندت إلى أندي مهمة كتابة تقرير عن الحادث يتتقي فيه كلماته جيداً منعاً لإثارة حفيظة المسؤولين في نيويورك المعروف عنهم صرامتهم في الشق الأمني.

وفي اجتماع موسّع عبر الهاتف طلب الزملاء في نيويورك بالتحقيق في الحادث وتجميد كل الزيارات خارج المنطقة الخضراء حتى إشعار آخر. وقدم السفير قاضي في تقرير مفصّل، التماساً طلب فيه من المسؤولين إعادة النظر في قرار تجميد الزيارات إلى العاصمة

بغداد معللاً أن القرار يقضي على سمعتنا ونشاطنا السياسي في العراق، ويحمل الناس على الظن أن وجودنا داخل «المنطقة الخضراء» لا يخدم إلا الاحتلال. وكتب شارحاً: «إنه لمن الضروري أن نقول للعراقيين إن الأسرة الدولية لم تتخل عنهم وإنما مستمرة في دعمهم وتسهيل الحوار والمصالحة بين أطراف المجتمع العراقي». ولم تنفع دعوات السفير قاضي، فبقي قرار المنع سارياً، باستثناء عدد قليل من الزيارات جرى التوافق عليها مسبقاً مع المسؤولين في نيويورك. وقبعنا في المنطقة الخضراء ننتظر الفرج!

في خريف ذلك العام اغتيل مؤسس الصحوة عبد الستار أبو ريشة على يد القاعدة. وتسلم القيادة أخوه الأصغر أحمد الذي أقسم على الثأر لأخيه و«تنظيف البلاد من إثمهم وإجرامهم». واستمر مجلس الصحوة بالنمو وبسط الاستقرار في الأنبار وبعض أحياء بغداد. وقُدر عدد أفراده في عموم العراق بحدود 90 ألف مقاتل نهاية عام 2007، في كل المحافظات. وكان المتسبون بمعظمهم من أبناء الفقراء، والعاطلين عن العمل الذين احتاجوا إلى الدولارات الأميركية لإعالة عائلاتهم، وأولئك الذين تعبوا من وعود حكومة بغداد الفارغة وسياساتها الغادرة. وخلال عام 2008 قامت قوات الأمن العراقية باعتقال ثوار الصحوة وامتنعت الحكومة عن دفع رواتبهم لأسباب واهية مما أثار مجدداً نقمة العشائر السنية في الأنبار. ولامتصاص

الغضب المتنامي في صفوفهم وعدتهم الحكومة بمنح 80 في المئة من أفراد الصحوة وظائف مدنية في الوزارات والمؤسسات العراقية. لكن، بعد خروج قوات الاحتلال نكثت الحكومة بوعودها، فزجت بزعمائهم في السجون، ولاحقت مرشحيهم إلى الانتخابات النيابية، وتركت رجالهم من دون دعم، فانصرفوا يبحثون عن فرص عمل في القطاع الخاص.

## حرب أهلية أم لا؟

- زارتنا أمس عصابة مجرمين. جاؤوا يشتمون ويهددون بالعودة إلى الثأر، قال صديقي إسماعيل زاير عبر الهاتف.

وقد اتصل بي هذا الصباح ليعلمني أنه قرر الانتقال إلى أربيل حيث يمكنه الاستمرار في نشر صحيفته «الصباح الجديد».

- بغداد أصبحت خطرة جداً ولا يمكنني ضمان سلامة الموظفين.

- وماذا يريدون هؤلاء الأوغاد؟

- يريدون المال. دائماً المزيد من المال.

وأضاف زاير أنه تحدث إلى حاشية مسعود بارزاني وقد رحبوا بانتقال صحيفة مستقلة إلى كردستان. وتمنى أن يستفيد من النشاط الاقتصادي المزدهر في أربيل فتزيد نسبة الإعلانات التجارية في صحيفته.

- على الأقل نبتعد قليلاً عن جنون بغداد الذي لا يختلف بشيء

عن جنون بيروت في الثمانينيات.

إسماعيل زاير كان واحداً من مليوني عراقي هربوا خلال الحرب طلباً للجوء في واحدة من دول الجوار أو استقروا في كردستان. وهو

أيضاً واحد من العديد من المثقفين والسياسيين الذين ما انفكوا عند كل حدث سياسي أو أمني يقارنون بغداد ببيروت الثمانينيات حين اندثرت دولة القانون أشلاء وانتشرت مكانها الفوضى والجريمة.

وقد هالني وأنا التي عايشت الحرب اللبنانية وفضاعاتها عن قرب، البطش العراقي المتمرس، وكأن للحروب فعل الكيمياء في تظهير وجه الإنسان الحقيقي ودفعه لإبادة كل ما هو حيّ وجميل.

العراقيون العاديون رفضوا الحديث عن حرب أهلية كالتّي ضربت بيروت. وتمترس الرومنطيقيون منهم خلف أكاذيب كلاسيكية كالنسامح والعلمانية والزيجات المختلطة وآلاف السنين من حضارات بلاد ما بين النهرين. وظنوا أن هذه الأكاذيب قد تقف سداً منيعاً في وجه الشر وتحمي الحضارات من السقوط، تحمي العراق من السقوط!

وكان إياد علاوي أول سياسي عراقي يعلن أمام شاشات التلفزيون أن ما يشهده العراق هو حرب أهلية. حدث ذلك في آذار/ مارس 2006. - إذا كان هذا ليس بحرب أهلية فلست أدري ماذا تكون الحرب

الأهلية إذن!

تصريح علاوي جوبه بموجة استنكار عارمة من مختلف الأطراف التي أجمعت على أن رئيس الوزراء السابق بالغ في التقدير، فإدارة الرئيس بوش والحكومة العراقية رفضتا معاً هذا التوصيف، وأشارتا إلى أن العنف المذهبي يتركز في بغداد دون سواها من المدن العراقية.



وطرحت وسائل الإعلام العالمية الموضوع على خبراء دوليين في السياسة فناقشوا مواصفات الحرب الأهلية وقدموا تحليلاً لدرجات العنف، ومعاييرها والعلاقة بين المتمردين والحكومة واستنتجوا أن ما يجري في العراق ليس حرباً أهلية. وردّ مراسل تلفزيون سي. إن. إن في بغداد أن رفض الاعتراف بأن ما يدور في العراق هو بالفعل حرب أهلية سببه البعد الجغرافي وافتقاد خبراء السياسة لأي اتصال بالواقع على الأرض.

- أخيراً تجرأ أحد أن ينطق بالحقيقة، قلت.

- أشعر بالحزن عندما يقول علاوي إن العراقيين يحاربون بعضهم بعضاً، أشرف لنا أن نرمي المسؤولية على الاحتلال، اعترض سرمد.

- ولكن كيف تفسرون ما يحدث في الشارع؟ السنة والشيعه يذبحون بعضهم بأبشع الصور، والأقليات يُهَجَّرُون من بيوتهم وقراهم التي عاشوا فيها لقرون، ورغم ذلك لا أحد يريد أن يعترف أن ما يجري هو حرب أهلية، قلت.

- ولكن لماذا لا يريد الأميركيون الاعتراف بذلك؟ سأل علي.

- بالنسبة إلى الأميركيين انتهت الحرب رسمياً عندما دخلت مصفحاتهم ساحة الفردوس ودرجت تمثال صدام. وأعلنوا انتصارهم بعد ثلاثة أسابيع من الغزو وتباهوا أن النظام سقط بسرعة وسلاسة. الاعتراف العلني بأن الحرب لم تنته قط، وأن عدد القتلى الأميركيين اليوم أكثر بكثير مما كان عليه إبان الغزو، وأن المدنيين

العراقيين يسقطون كالذباب بالمئات كل يوم، هي ملامة تاريخية لمغامرة غير محسوبة النتائج.

- والحكومة؟ والأمم المتحدة؟ تساءل سرمد.

- يرقصون على إيقاع الدف الأميركي، هتفت شروق.

- نحتاج إلى صدام جديد لوقف هذا الجنون، ولكن صدام شيعي

هذه المرة، قال سرمد.

وضحك الجميع للنكتة. وحدها شروق قطبت حاجبيها.

وبينما ناقش الأميركيون والعراقيون ضرورة وضع استراتيجيات

جديدة لقمع العنف، وصل إلى بغداد وفد أميركي رفيع مكّون من

عشرة أعضاء نصفهم من الحزب الجمهوري والنصف الآخر من

الديمقراطيين، يرأسه وزير الخارجية الأسبق جايمس بايكر، وعضو

الكونغرس الأسبق لي هاملتون. وقام الوفد خلال ثلاثة أيام بزيارة

المسؤولين العراقيين في المنطقة الخضراء. وفي اليوم الأخير جاؤوا

إلينا؛ فقدمنا لهم الوجبة الصباحية واستمعنا إليهم. وروى هاملتون أنه

اجتمع لأول مرة في بغداد مع عراقي كان قد التقى آية الله السيستاني.

ونظرنا كيش وأنا إلى بعضنا تعجباً.

- عجيب أن شخصاً بمقام السيستاني ونفوذه يرفض أن يقابل

الأميركيين. كيف هو؟ ماذا يريد؟ تساءل بايكر.

- السيستاني يمثل الاعتدال والتحفظ على أفضل وجه. نفوذه غير

محدود. حتى وإن رفض التفاوض مباشرة مع الأميركيين فإن مواقفه

إيجابية جداً تجاه البلد الذي أعطى الشيعة فرصة ممارسة حقوقهم كأغلبية سكانية في العراق، قال قاضي.

وناقش الحاضرون ما يمكن للولايات المتحدة فعله للحصول على دعم الأسرة الدولية وفرض استقرار سياسي وأمني في العراق. واعترف بايكر أن الخطأ الذي ارتكبه الولايات المتحدة في طريقة إعلان الحرب جعل من الصعب الطلب إلى الأسرة الدولية الانخراط في نتائجها.

- نعرف تماماً ما حصل في الماضي. السؤال هو ما يجب أن نفعله الآن وكيف؟ قال بايكر.

وتساءل عن ماهية دور الأمم المتحدة في ظل التفويض الحالي، وعمّا اذا كانت هناك حاجة لتنشيط هذا الدور وما يمكن أن تكون ردة فعل الحكومة العراقية إزاء التزام دولي واسع. وعمّا إذا كان يتوجب على الولايات المتحدة أن تبدأ حملة دبلوماسية قوية، بعد انتخابات الكونغرس، لتشجيع الدول الأخرى على الانخراط في العراق.

وأجاب السفير قاضي أنه في ظل الأوضاع الراهنة لا يمكن وصف العراق بكلمات إيجابية رغم التقدم الذي تم إحرازه: انتخابات برلمانية أنتجت برلماناً دستورياً لمدة أربع سنوات، ولجاناً نيابية، وحكومة ووزارات تعمل بالقدر المستطاع. لكن أيّاً من هذا لم يفض إلى استقرار وأمن للعراقيين. فمنذ الهجوم على المسجد العسكري في سامراء والعنف المذهبي ما فتىء يتصاعد. حقوق الإنسان في تدهور،

وشركاء الوطن يتقاذفون التهديد والاتهامات، والمصالحة أصبحت مفهوماً غريباً عن هذا العالم.

وشدد قاضي على أنه رغم الأخطاء السياسية الماضية والخسارات الكبيرة في الأرواح، ورغم المقاومة غير المتوقعة من العراقيين، ورغم سياسة عراقية غير متجاوبة ومعقدة، فإنه يجب على الولايات المتحدة الاستمرار في سعيها لبلوغ الأهداف. فإذا اتفقت الولايات المتحدة والحكومة العراقية على التعاون مع مجموعة واسعة من الشركاء الدوليين فيمكن بعدها ربما، توكيل الأمم المتحدة بدور جديد أكثر ديناميكية في العراق.

وأضاف قاضي: إن إيران لاعب إقليمي مهم. ولأسباب جيوسياسية فإن لإيران نفوذاً قوياً في العراق. هذا الدور زاد قوة ونفوذاً بعد عودة الأحزاب الشيعية من المنفى الإيراني لتستلم الحكم بعد سقوط صدام. فلو شعرت إيران بأنه يتم تجاوزها بأي شكل من الأشكال فإن ذلك سيسبب مشكلات للعراق.

- كل اللاعبين، سواء الذين ربحوا أو خسروا السلطة في العراق الجديد يحاولون استمالة الولايات المتحدة إلى طرفهم. لا تستطيع أميركا أن ترضي كل الأطراف لأنه يستحيل على المرء أن يكون لاعباً أساسياً ووسيطاً عادلاً. المطلوب عملية مصالحة عريضة تتضمن دعم كل اللاعبين الإقليميين والدوليين لتحقيق النجاح. وهذا يتطلب بدوره وضوحاً أكبر فيما يخص أهداف الولايات المتحدة في العراق، قال قاضي.

واستمع الأميركيون ودّونوا الملاحظات وأومأوا برؤوسهم تشجيعاً للمتابعة، ثم صافحونا وأسرعوا إلى المروحية التي كانت تنتظرهم لتقلّمهم إلى مطار بغداد الدولي.

- لم يقولوا الكثير، ولكن الزيارة مهمة ويمكن أن تشكل نقطة تحول في سياسة أميركا تجاه العراق، قال قاضي. فالمحنة التي نواجهها اليوم هي أن الدعم الدولي لحرب العراق في طريقه إلى الانهيار ويحتاج إلى التنشيط.

في كانون الأول/ ديسمبر 2006، وبعد فترة وجيزة من انتخابات الكونغرس الأميركي التي أفرزت أغلبية ديمقراطية، نشر بايكر- هاملتون تقريرهما عن العراق *The way forward, a new approach* عرضا فيه 79 مقترحاً لحل أزمة العراق.

وأشار بايكر في مؤتمر صحفي في واشنطن أن التقرير ليس سلطة فواكه يمكن للمرء أن يختار منها القطع اللذيذة.

- إما أن يأخذ الرئيس التقرير بكليته أو أن يتركه. لا يمكن اختيار بعض المقترحات وإهمال الباقي، حدد بايكر.

ردات الفعل في العراق جاءت سريعة، ولا سيما من قبل الأكراد الذين شبهوا التقرير باتفاقية الجزائر بين شاه إيران و صدام حسين عام 1975 والتي بموجبها سحب الإيرانيون دعمهم للأكراد وتركوا لصدام فرصة مطاردتهم.

وفي مؤتمر صحفي في المنطقة الخضراء وصف الرئيس جلال طالباني التقرير بأنه خطير وغير عادل ومهين بحق الشعب العراقي. وبعيداً عن التصريحات الإعلامية النارية التقيت محمد إحسان، وزير العلاقات الخارجية في حكومة كردستان، ليشرح لي موقف الأكراد.

- التقرير يتخلى عن وعود الولايات المتحدة السابقة بفرض الديمقراطية في العراق. ثم إن الأكراد يخافون أن يطرأ أي تغيير في موقف الأميركيين ويضجّ عليهم مكتسباتهم في كردستان وفي مسألة كركوك، قال إحسان ورشف بلعة من كوب الشاي أمامه في مقهى البرلمان.

- هم غاضبون من كون الوفد الأميركي تخلف عن لقاء القيادة الكردية. أليس كذلك؟

- لا شك! وهذا سبب إضافي. لكن المهم هو محتوى التقرير. الثقة بين الأكراد والعرب معدومة. وكل تدخل من أي بلد عربي بشؤون العراق غير مستحب لأنه يطرح إنجازاتنا على طاولة المساومة. وعندما نصبر ونتنظر الفرصة الذهبية يأتي تقرير بايكر - هاملتون ليقلب الأمور رأساً على عقب.

وأعلن ممثل تيار الصدر في البرلمان أن غاية التقرير حل المشاكل الداخلية للولايات المتحدة على حساب الشعب العراقي، وحثّ العراقيين على عدم الأخذ بأي من المقترحات.

وفي مقابلة تلفزيونية قال رئيس الوزراء نوري المالكي إن مضمون التقرير مهين رافضاً الدخول في التفاصيل.

وكان العرب السنة الوحيدون الذين أعربوا عن سرورهم بالتقرير. وأعلنت كتلتهم في البرلمان أن التقرير واقعي جداً وإيجابي ويشير من دون لف ودوران إلى مكامن الخلل وهي: الحاجة إلى إعادة صياغة الدستور ونزع أسلحة الميليشيات وتوزيع عائدات النفط وكر كوك.

وقال الوزير رافع عيساوي، الذي عُيّن لاحقاً نائباً لرئيس الوزراء، إن التقرير طرح كل المواضيع التي حاول الفريق السني جاهداً لسنوات لفت الانتباه إليها.

- بعض العراقيين يتهمون جايمس بايكر بأنه سني، قال عيساوي ضاحكاً. التقرير يتحدث عن العراقيين التي قلنا لسنوات إنها تقف حاجزاً دون تحقيق المصالحة. لا يمكن أن نتصالح إذا كان بعض الفرقاء يشعر بنفسه مهمشاً أو مظلوماً. كل العملية السياسية تمت بسرعة البرق على يد الشيعة والأكراد في ظل غياب تامّ للسنة وذلك كي يشرّعوا طموحاتهم في عراق المستقبل.

كنا نجلس في صالون الرشيد الغاصّ بالضيوف، وخلفنا إثنان من حرسه يراقبان المكان فيما هو يشرب الشاي ويتحسر على الأوضاع السائدة في بغداد.

- نحن نقبل بالشيعة والأكراد في أية عملية سياسية لكننا لا نفهم

سلوكهم السياسي. فإما أن نشارك وعندها نفرض رؤيتنا للعراق أو أن نجلس جانباً ونتفرج.

وأثار تقرير بايكر - هاملتون ضجة مماثلة في واشنطن. وقالت وزيرة الخارجية للتخفيف من شأنه: إنه واحد من عدة تقارير سيقراها الرئيس بوش قبل تحديد استراتيجيته الجديدة للعراق. وسائل الإعلام الأميركية كالت المديح واعتبرت أن التقرير يشكل نقطة الضوء في نفق كالح الظلام، ويقدم للرئيس بوش خطة لانسحاب مشرف من العراق.

وفي كانون الثاني/يناير 2007، وبعد أربع سنوات من الفوضى العارمة خرج الرئيس الأميركي يعلن في نقل مباشر على وسائل الإعلام الاستراتيجية الجديدة للعراق.

وبعكس تمنيات الديمقراطيين والمعارضين للحرب، قررت الإدارة الأميركية إرسال وحدات إضافية من الجيش الأميركي تزيد عن العشرين ألفاً، لدعم القوات العراقية وضمان الأمن في البلاد انطلاقاً من العاصمة بغداد. وحث الرئيس الأميركي الحكومة العراقية على اتخاذ التدابير اللازمة لتنزع سلاح الميليشيات.

في بغداد، جرى الترحيب بهذه الاستراتيجية الجديدة. نوري المالكي عبّر عن تفاؤل حذر. والأكراد تنفسوا الصعداء باعتبار أن الاستراتيجية لم تأخذ بمقترحات بايكر- هاملتون. والسنة أعربوا عن سرورهم. أما مقتدى فالتزم الصمت!



ففي الحسابات الأميركية أن انسحاباً سريعاً في ظل الأوضاع السائدة في العراق سيشكل فشلاً ذريعاً أكبر حجماً وأشد وقعاً من فشلهم في فيتنام. فالنار العراقية في الهشيم تهدد بحريق شامل قد يطاول بلهيبه أجزاء واسعة من الشرق الأوسط.

## زيارة عند رئيس الوزراء

كانت الساعة التاسعة صباحاً في مقر رئاسة الوزراء. جلسنا ننتظر في ردهة مستطيلة، غطى السجاد العجمي الأحمر أرضيتها. وفريق التنظيف بدأ مستعجلاً لإنهاء مهماته وكان الوقت داهمه. ودخلت سيدة غرفة الانتظار لتعذر لنا عن التأخير الناجم عن تأخر الكلاب عن موعد جولتها الصباحية في القصر الحكومي.

- كلاب المتفجرات؟ سألت.

- كلاب كبيرة مدربة على اكتشاف المتفجرات تقوم بجولة في أرجاء المكان كل صباح قبل بدء رئيس الوزراء بعمله، قالت السيدة وابتسامة كبيرة لا تفارق شفيتها.

ورحنا أنا وفون شولنبرغ نضحك ونسخر من الكلاب المثقلة بالمهام الأمنية على الحواجز وفي الإدارات، والتي تتقاضى أجوراً أفضل بكثير من أجورنا!

زيارتنا لرئيس الحكومة جاءت في إطار التحضيرات الجارية لمؤتمر العقد الدولي، الذي تنظمه الأمم المتحدة في مقرها بنيويورك بالاشتراك مع حكومة العراق، من أجل حشد مساعدة المجتمع الدولي

لدعم خطة بناء اقتصاد العراق للسنوات الخمس المقبلة وإعادة إعمار  
بنيتها التحتية ومؤسساته الوطنية، حتى يتمكن من تأمين الوحدة الوطنية  
وإنهاء العنف وإرساء الأمن والاستقرار للشعب العراقي.

وأخيراً سُمح لنا بالدخول.

في الصدارة كان يجلس نوري المالكي محاطاً بمساعديه وفي  
مقدمتهم مستشاره للشؤون الأمنية موفق الربيعي. عندما أنهى مكالمته  
التليفونية، أوماً برأسه إشارة تفرغه لنا. وبدأ فون شولنبرغ بعبارات  
ديبلوماسية تقليدية شاكرًا لرئيس الوزراء فرصة استقبالنا، ورد المالكي  
بعبارات الترحيب. وقاطعه مساعده للإشارة إلى أن المترجم العراقي  
لم يصل بعد. فألقى المالكي نظرة صوبي وقال: إن السيدة هنا مستعدة  
لمساعدتنا.

- أنت لبنانية وتكلمين العربية أليس كذلك؟

- طبعاً!

وسأل رئيس الوزراء أسئلة محددة عن الجدول الزمني ومكان  
الاجتماعات التحضيرية والنتائج المتوقعة منها. وأبلغه فون شولنبرغ  
أن الفكرة المطروحة هي إطلاق العقد الدولي خلال انعقاد الجمعية  
العمومية في أيلول/ سبتمبر بحيث يمكن دعوة أكبر عدد من البلدان،  
وأن تركيا وإيران قد أبدتا اهتماماً للمشاركة في هذه العملية.

- جيد جداً. لانية للعراق أن يستبعد أيًا من دول الجوار. وبالنظر

للخراب الذي خلفه الاعتداء الاسرائيلي على لبنان وإيلائه الأولوية

من قبل الأسرة الدولية، فإن العراق يكتفي بطلب إلغاء الديون. نأمل مساعدة دول الخليج بالدرجة الأولى، قال رئيس الوزراء.

جاءت زيارتنا للقصر الحكومي بعد أيام قليلة من انتهاء الحرب الإسرائيلية على لبنان والتي خلفت تدميراً كلياً للبنى التحتية في البلد. وجاء موقف المالكي هذا ليس فقط تعبيراً عن تعاطف مع بلد عربي يحبه العراقيون، بل ترجمة واقعية للأولويات التي طرأت على أجنداث الدول المعنية. فخلال 33 يوماً من الحرب الضروس انتقل اهتمام وتعاطف وسائل الإعلام العالمية من العراق إلى لبنان.

وعرض فون شولنبرغ التعهدات السياسية والاقتصادية والأمنية التي أخذها العراق على عاتقه في مجال حرصه على نجاح هذه الشراكة الدولية وتساءل عن كيفية تعامل الحكومة معها، وشرح رئيس الوزراء أن الإصلاحات الاقتصادية هي الأصعب. والتخلص من هذه الآليات بسرعة سوف يؤثر ليس فقط، في وضع الناس الاقتصادي بل يتسبب بزعة الوضع الحكومي.

- مواطنونا كانوا يعيشون لسنين على المساعدات الاقتصادية. سنبدأ بتنفيذ بعض ما تعهدناه ونترث بالباقي. وأهم ما يشغل بالنا هو رفع أسعار مشتقات النفط التي تستعمل للإنارة في بيوت الفقراء الذين لا يملكون القدرة على شراء المولدات. وذلك يؤثر أيضاً في الاستهلاك العام من الخبز إلى النقل العامة.

وعندما انتهى رئيس الوزراء من قول ما عنده بخصوص العقد

الدولي، التفت إلينا متمنياً على الأمم المتحدة أن تمتنع عن التعاون مع البعثين والأصوليين:

- ليس كل البعثيين بل فقط أولئك الذين تطلخت أيديهم بالدم. هؤلاء رفضوا كل مبادرة للمصالحة لأنهم لا يريدون السلام والاستقرار في العراق، قال.

وروى فون شولنبرغ أن الأمم المتحدة تعد لمجموعة من الندوات للجسم القضائي العراقي تركّز فيها على المعايير الدولية لتطبيق القانون وأخلاقيات المهنة، ومناقشة الآليات المعمول بها في العراق.

- المجرمون يجب أن يمثلوا أمام القضاء، لكن يجب وضع آليات لمحاكمة الجرائم ضد الإنسانية بحيث تتمّ معاقبة المذنبين وليس المجتمع بأسره، قال المالكي.

وقام أحد مساعدي رئيس الوزراء بهمس معلومة في أذن المالكي، فنظر إلى ساعته وفهمنا أن موعدنا أشرف على نهايته. في طريقنا إلى الخارج وقعنا على وفد من السفارة الأميركية ينتظر دوره.

عندما زرناه في مكتبه، لم يكن المالكي قد أكمل مئة يوم في منصبه بعد. حينها، لم يكن أحد يؤمن أنه سيتمكن من قيادة البلد في الاتجاه الصحيح. فالرجل كان الناطق الرسمي لحزب الدعوة لسنوات، وكانت تنقصه جاذبية رجال الدولة الكبار، بحيث إنه لم يتمكن خلال 26 عاماً قضاها في المنفى السوري وبعد عودته إلى الوطن من إثارة انتباه أحد. كان يحتاج إلى الأميركيين ليحكم لكنه حاول تمييز نفسه

بإظهار استقلاليته عنهم كلما سنحت الفرصة. شيء واحد كان يشغل بال المالكي هذه الأيام وهو عدم سقوط حكومته على وقع مقاطعة متكررة لوزراء الصدر لجلساتها.

من مميزات فندق الرشيد أنه كان يتيح الفرصة للتواصل مع أصحاب القرار في العراق بسهولة وسلاسة.

وفي الطابق الثاني عشر كان يقيم وزير التخطيط الكردي علي بابان والذي كان عضواً في جبهة التوافق السنية. اتصلت به ذات صباح لتناول لقهوة عند فون شولنبرغ فقبل شاكراً.

وكشف الوزير بابان أن المالكي كان قد أبلغ إلى الرئيس جورج بوش في لقاء القمة في عمان عدم حماسته للشراكة الدولية، نظراً للشروط القاسية التي وضعت على عاتق الحكومة العراقية. وأضاف الوزير: إن الرأي السائد بين العراقيين اليوم هو ضرورة إعطاء فرصة للعراقيين لحل مشكلاتهم بأنفسهم دون تدخل خارجي.

- هناك إمكانية أن نعيش بسلام لو اتفق العراقيون وقبلوا بالأمر الواقع. يجب على السنة أن يقتنعوا أنه تستحيل إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والعودة إلى زمن صدام، وعلى الشيعة أن يفهموا أنهم لا يستطيعون السيطرة على كل البلد بمفردهم، وأن يعود الأكراد إلى المنطق والعقل ويقبلوا أنه من سابع المستحيلات أن يستقلوا بمنطقة الشمال ويعلمونها دولة خاصة بهم. عندما يفهم القادة هذه المعادلة تختفي أسباب الوضع المزري الذي نعيشه اليوم.

في هذا الوقت انصبت جهود الأمم المتحدة على عقد الشراكة الدولية مع العراق. وأصيب البعض بالقلق للإشارات السلبية الصادرة عن دول الخليج التي رفضت استضافة الاجتماعات التحضيرية؛ لاسيما وأن أحد أهم أهداف المؤتمر هو تشجيع دول الخليج على إلغاء ديون العراق. وتركزت النقاشات داخل أسرة بعثة الأمم المتحدة حول جدية الحكومة العراقية في تنفيذ ما تعهدت به من نزع أسلحة الميليشيات، والمبادرة إلى مؤتمر حوار وطني يؤدي إلى المصالحة الوطنية وفرض الاستقرار.

وفيما عمل عدد من خبراء الأمم المتحدة مع نائب رئيس الوزراء العراقي ابراهيم صالح لتطوير الأوجه السياسية والأمنية للعقد الدولي، انصرف آخرون لإيجاد منهجية جديدة لتنشيط الحوار الوطني.

وفي خريف 2006 قدمت الأمم المتحدة اقتراحاً بالدعوة إلى مؤتمر الحوار الوطني تضمّن الأهداف المرجوة ولوائح المدعويين وعدداً من المواضيع الشائكة التي ينبغي التوصل إلى اتفاق بشأنها كاجتثاث البعث وإصدار عفو عام وتوزيع عادل لمداخيل النفط ونزع سلاح الميليشيات وانسحاب القوات الأجنبية.

وأعلن رئيس الوزراء على الملأ مبادرة الحكومة لمؤتمر الحوار الوطني نهاية العام ودعا رؤساء الأحزاب والسياسيين للمشاركة في جلسة الافتتاح في كانون الأول/ ديسمبر 2006 في قاعة المؤتمرات في البرلمان.

وذهبت برفقة كيش لتمثيل الأمم المتحدة ولاهتمام شخصي عند كلينا. وتسايرنا مع السياسيين العراقيين الذين تجمعوا في المقهى التابع للبرلمان.

وانتظر المدعوون ما يقارب الساعتين في كافيتريا البرلمان، وكثر التنظير بين المجتمعين عن سبب التأخير غير المتوقع. البعض عزاه إلى تأخر وصول مسعود بارزاني من كردستان وآخرون إلى عبد العزيز الحكيم من البصرة.

وأخيراً، فتحت أبواب القاعة وأخذنا كيش وأنا مقعدنا في الصف الخامس لمراقبة السياسيين النجوم في المقاعد الأمامية.

رئيس الوزراء نوري المالكي دعا في كلمة الافتتاح إلى إعادة النظر في قانون اجتثاث البعث، مميّزاً بين البعثيين الذين تلطخت أيديهم بالدماء وأولئك أصحاب الأيدي النظيفة، مرحباً بالشرفاء منهم في العملية السياسية، وشجع ضباط الجيش السابقين بالعودة لتبوء مناصبهم في الجيش.

رئيس الجمهورية جلال طالباني تخلف عن المشاركة لأسباب صحية. وقرأ ممثله كلمة اتهم فيها البعثيين والأصوليين بعرقلة العملية السياسية.

رئيس إقليم كردستان مسعود بارزاني دعا إلى تعميم ثقافة التسامح في العراق معتبراً أن الفيدرالية هي أفضل حل لمشاكل العراق متفقاً بذلك مع عبد العزيز الحكيم؛ رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية.



وأشار الناطق باسم جبهة التوافق السنّية سليم عبدالله إلى أن المؤتمر جاء متأخراً، وأن المصالحة الوطنية تفتقد إلى عنصرين مهمين هما حس المسؤولية الوطنية والصدق.

- لا تظهر الحكومة حزماً كافياً في مواضيع مثل نزع سلاح الميليشيات ومراجعة الدستور واللاجئين، وضم كل الأحزاب دون استثناء إلى العملية السياسية. كذلك ينبغي التمييز بين المقاومة والإرهاب، قال عبدالله.

عندما ألقى كبار الزعماء السياسيين خطبهم وهمّ المدعوون بالخروج لتناول الغداء، قام شيوخ ورؤساء أحزاب صغيرة في الأنبار والبصرة وصرخوا عالياً بوجه رئيس الوزراء والمشاركين الآخرين قائلين إنهم لم يحظوا بفرصة ليقولوا ما عندهم.

- قطعنا مسافات طويلة وعرضنا حياتنا للخطر لنستمع إلى الحكومة. تتحدثون بأشياء جميلة وتعدون بالمصالحة وتستمرون في الوقت نفسه بقتل أبنائنا، قال أحدهم محتجاً.

لكن نجوم السياسة العراقية غادروا القاعة كأن شيئاً لم يكن. واستمر الشيوخ في الصراخ والاحتجاج، لكن عبثاً لم تكن هناك فسحة لهؤلاء الشيوخ كي يقولوا ما عندهم.

خلال استراحة الغداء تنهى إلى أسماعنا أن صالح المطلق، رئيس جبهة الحوار الوطني، قرر مغادرة المؤتمر.

- الذين كان ينبغي أن يكونوا هنا ليسوا مدعويين. وهذه مبادرة غير جدية على ما يبدو، قال ومشى.

إياد علاوي، رئيس اللائحة العراقية، فعل ما فعله صالح المطلق.  
- عدد كبير من القوى السياسية لم تتم دعوتهم، وهذا لا يخدم مصالح أمتنا، قال علاوي ومشى.

صفية السهيل استمرت في مشاركتها النشيطة في المؤتمر وترأست واحدة من اللجان الفرعية الأربع كأن شيئاً لم يكن. وقصدها لأسأل عن معاني اللعبة المزدوجة التي يلعبها حزبها.  
- علاوي يعلّق مشاركته وأنت تستمرين. كيف ذلك؟

- هو قرر المغادرة بنفسه فليتحمل مسؤولية قراره. أنا أعتقد أن المصالحة الوطنية جديرة بالتضحية من جانبنا. غير مقبول أن نستمر بالسلبية دائماً، أجابت صفية.

العضو الآخر على لائحة علاوي، وزير التخطيط السابق مهدي الحافظ؛ كشف في سياق الحديث أن التعاون داخل تكتل علاوي لم يكن خالياً من المشكلات.

- هو يتخذ كل القرارات بمفرده دون العودة للآخرين. يمكن القول إنه طاغية. والبعض منا يفكّر بترك اللائحة إذا لم تتم عملية إصلاح جذرية داخل التكتل، قال الحافظ.

وأفضت الجلسة الافتتاحية إلى تشكيل أربع لجان فرعية لدراسة مواضيع كالإصلاح السياسي ومراجعة الدستور ونزع سلاح الميليشيا والسيادة الوطنية. وبعد عشرة أيام قدمت اللجان ثلاثين اقتراحاً لامست بشكل أو بآخر مسألة نزع سلاح الميليشيات. لكن الاقتراح

الوحيد الذي حاز على موافقة بالإجماع هو دفع معاشات تقاعد سخية للجنود السابقين .

وكان هذا التدبير العملي الوحيد الذي خرج به مؤتمر الحوار الوطني الأول.

ولم تتأخر ردة فعل البعثيين، فأبلغوا في بيان صحفي في اليوم التالي أن معاشات التقاعد المعلن عنها لعدد يناهز 300 ألف جندي سابق ما هي إلا رشوة يُراد منها شراء ولائهم إلى جانب الحكومة الحالية.

وفي الأيام التالية، ذكرت وسائل الإعلام أن خمسة من شيوخ العشائر الذين شاركوا في مؤتمر الحوار الوطني في بغداد قد جرى اغتيالهم. واحد في الحلة، إلى الشمال من بغداد، وأربعة في محافظة ديالا السنية.

وهكذا هُدرت فرصة أخرى للمصالحة الوطنية.

وباستثناء قانون العفو عام 2008 والذي أسهم في إطلاق سراح العديد من الصدريين والسنة، فإن المصالحة الوطنية بقيت تراوح مكانها، ولم تحقق تقدماً قيد أنملة!

## وداعاً للرشيد

وفجأة طلب إلينا حزم أمتعتنا للانتقال من الرشيد. وكثرت الأقاويل عن الأسباب، فردها البعض لقرب الفندق من شارع حيفا حيث تدور المعارك على المقلب الآخر من العاصمة، وقال البعض الآخر إن السلطات العراقية تبغي استرداد الفندق من الأميركيين.

مهما يكن من أمر، فإن الانتقال من الرشيد لم يلق صدًى إيجابياً عندنا. كنا قد اعتدنا على الرشيد بيتاً لنا وألفنا عشرة العراقيين في الأمسيات؛ وخصوصاً المتنفذين منهم لفهم ما يدور في كواليس السياسة وفي الشارع.

- سيصبح المكان حزيناً من دونكم. لقد اعتدنا على وجودكم بيننا وعلى البهجة التي أضفتموها على الفندق، قال القاضي العربي. وانتقلنا إلى معسكر خاص بنا مكوّن من عدد كبير من المستوعبات، مزوّرة كلها بأكياس الرمل من كل الجهات عدا السقف. وجّهت كل مستوعب بحمام خاص، وبراد صغير وجهاز تلفزيون. وكان المعسكر نظيفاً، زرعت بمحاذاة ممراته أشجار النخيل

المثمرة، وحوى مطعماً يديره فريق باكستاني يتحلى بالبشاشة الدائمة. ولم يكن المكان يشكو من شيء لولا قربه من السفارة الأميركية المعرّضة باستمرار لقتائف الهاون من مدينة الصدر، والتصاقه بمدرج المروحيات الذي تبدأ حركة الطيران فيه عند الرابعة فجراً وتستمر حتى منتصف الليل. وكانت كل الرحلات الذاهبة والواصلة تمر فوق رؤوسنا بفارق زمني لا يتعدى ربع الساعة. كل هذه الجعجعة الميكانيكية قصّت مضجعي وسرقت النوم من عيني. وافتقدت إلى الرشيد وصوت المؤذّن العذب يخترق نافذتي في سكون الفجر ليدعو المؤمنين إلى الصلاة.

واقرب شهر رمضان الكريم.

وصام المؤمنون رغم الحر، وعطشوا وتعبوا وشعروا بالنعاس في ساعات ما بعد الظهر، ونفذ صبرهم علماً أن رمضان هو شهر اختبار الصبر، وجزاء الصبر دخول الجنة.

ومنذ الغزو الأميركي، بات رمضان ببغداد دمويًا. فزادت الهجمات أضعافاً، وارتفعت أعداد القتلى عشرات المرات ولم نعرف الرابط بين ارتفاع نسبة العنف في شوارع العاصمة ورمضان، وهو شهر الفضيلة والتقوى الذي ينبغي أن تتعزز فيه الروابط بين المسلمين وتزداد صلابته. ولم يكن رمضان عام 2006 مختلفاً. فدارت دورة العنف دورتها العاتية، وسال الدم أنهاراً في الشوارع. ورحنا نصلي ونتنظر نهاية شهر الصوم والدم.

وقسمنا رمضان إلى فريقين: مسلمين وغير مسلمين. وشاء المسلمون أن ينظموا إفطاراً يجتمعون حوله كل مساء فكلفوا زوجة أحد السائقين العراقيين بصنع المأكولات العراقية لهم وتولّى السائق إيصالها إليهم في الدقيقة التي تعلن المآذن وقت الإفطار. ووضع الصائمون طاولات مستطيلة جنباً إلى جنب في الباحة الخارجية للمطعم حيث كانوا يأكلون ويتسامرون طوال الليل.

ودعي السفير قاضي إلى أحد هذه الإفطارات، فجاء وقطع صومه بكوب ماء وبعض من التمر، ثم تناول وجبة غنية باللحوم والخضار. وكان غير الصائمين يتناولون العشاء وحدهم في المطعم الباكستاني، من دون بهجة، وحيدين، ويتمتمون بتذمر أن رمضان يفرّق بين الناس بدل أن يوحدهم.

كنت أعرف منذ أيام نشأتي في بيروت أن رمضان مناسبة إجتماعية بقدر ما هو شهر ديني، يجمع الناس حول طاولة الإفطار بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية ليحتفلوا معاً بالشراكة الإنسانية، وبعطايا الحياة السخية.

وعندما بادر السفير قاضي إلى دعوة الزملاء الصائمين إلى حفلة إفطار في دارته، مستثياً غير الصائمين، طفح الكيل. قصدت مكتب مساعده رشاد لأقول له إنني غير مسلمة ولكنني أريد أن أشارك في الإفطار ولو من غير دعوة. واعتذر رشاد لأن الميزانية المحددة لا تسمح بدعوة غير أولئك الذين يصومون النهارات بطولها من أجل

أن يستحقوا الإفطار. وقلت بصوت يشبه الزئير: إن عليه إبلاغ السفير  
بقدمي إلى هذه الأمسية بدعوة أو من دون دعوة.

- حتى ولو افترضنا أن رمضان شأن خاص بالمسلمين، فإني أريد  
تغيير ذلك في بغداد النازفة، المقطّعة الأوصال.

ورفع رشاد حاجبيه استنكاراً كما لو أنه لم يسمع كلاماً أغرب من  
هذا في حياته. وجاء في اليوم التالي إلى مكتبي وقد انفرجت أساريره.  
- أهلاً وسهلاً بك إلى حفل الإفطار هذا المساء. سعادة السفير  
يرحب بك في دارته.

لم تتميز السهرة عن غيرها من السهرات. وطغت السياسة كالعادة  
على ما عداها من المواضيع، تحدثنا عن علاقة باكستان بأفغانستان  
وقارتنا بين طالبان وحزب الله في لبنان. وكان وجه قاضي منشرحاً وهو  
يستفيض في الشرح والتحليل بحضور موظفيه وأقرب مساعديه. ولعله  
شعر لليلة أنه انتصر على شبح الظلمة المخيم على هذه الفيلا التي  
غطيت نوافذها بالواح خشبية، ولم تبق فيها ثغرة ينفذ منها ضوء النهار.

ولم نعد نقوى على الفراق؛ علاء الدين وأنا.

فبعد وعكته الصحية صرت أشعر أن سلامته من اختصاصي.  
ورحت أزهر حباً وشوقاً كأشجار الغاردينيا في الربيع. وكان يردد  
أنه في رحلة غرامية لم يشعر بها من قبل، يستفيض بالحديث عن  
المستقبل حالماً، مستمتعاً. ويتساءل أين سنعيش؟ وكيف نعيّل أنفسنا؟

وما ستكون عليه ديانة ابنتنا. ثم يصحو فجأة من عالم الخيال ليقول إنه يحتاج ربما إلى طبيب نفسي يخرج من هذا الضياع الذي يعقد عليه حياته.

كان علاء الدين يصف حاله كمن يقف عند مفترق طرق ولا يعرف في أي اتجاه يسير. ويتمزق بين حبه لي وحبه لأولاده. وعندما كنت أردد: إن المعادلة ليست عادلة وإن أحد الحبين لا يمكن أن يلغي الآخر؛ وإن أولاده يبقون أولاده كان يجيب: إن حب امرأة أخرى غير أم الأولاد سيؤثر في حب الأولاد له.

- في نظرهم أصبح جلاداً يتسبب لأهمهم بكل العذاب. أريد أن أبقى أباً مثالياً في عيونهم.

- عندما يكبرون سيفهمون أن الحياة ليست بالبساطة التي يتصورونها، ولا يمكن تقسيم الناس إلى جلاد وضحية فقط لأنهم وقعوا في الحب.

كانت طريقة تفكير علاء الدين المستندة إلى الثنائية تثير استيائي. أنا مقابل الأولاد، والحب مقابل الواجب والسعادة مقابل الشعور بالذنب. شرحت له أن هناك خطأ بنيوياً في طريقة التفكير هذه لأنها ترمي إلى تحديد الحياة بالأضداد. فالصيغ المقفلة تجبر المرء على اختيار الواحد دون الآخر.

- أنت تحدد الحياة وتقرّمها. لماذا ترتضي خسارة النصف عندما يمكنك أن تربح الكل؟ الحياة كالحب بوتقة تقبل الجميع لتصهرهم وتحييهم من جديد، قلت بحماسة المراهقين.



- نستمد هويتنا وكياننا بالتفاعل المستمر مع الآخرين، ولا يمكن أن نفهم أنفسنا دون أن نفهم الآخرين، قال علاء الدين. نحن موجودون بقوة علاقتنا مع الآخرين وبفضلها.

- نحن نصنع ثقافتنا ومجتمعنا بقدر ما هي تصنعنا وتشكل شخصيتنا. من دون هذه القدرة الخلاقة لكننا نعيش اليوم في الأنماط الثقافية التي أوجدها أسلافنا منذ آلاف السنين. لدينا القدرة على تغيير القوانين عندما لا تناسبنا. نعطي تفسيرات جديدة للأشياء ونتكيف ونخلق الحياة من جديد طوال الوقت، وكلما استدعى الأمر.

وجاءت دلفين تزفّ إليّ الخبر السعيد. قالت إنها حامل. لم تكن تريد أن تشيع الخبر بين الجميع خصوصاً أنها ووالد الطفل لم يقررا بعد كيف يعزّمان نقل الخبر إلى المسؤولين. وضممتها متمنية لها حملاً سعيداً، هي التي كان الإنجاب يطن في رأسها كعقارب الساعة طوال العام الماضي. وقالت إنها تفكر بالانتقال إلى مكاتبنا في عمان، لأن بغداد ليست بالمكان المثالي للحوامل. أما هوية الأب فشكّلت مفاجأة أخرى.

- فينك؟ لكن سنه غير مناسب أبداً، قلت لها بعفوية.

وضحكنا طويلاً.

- هو إنسان طيب وعصامي. عنده وظيفة محترمة ومدخول مرتفع. يبقى فارق السن بيننا... ربما أستطيع أن أعتاد على ذلك مع مرور الوقت، قالت.

كان يوماً سعيداً يوم علمت بحمل دلفين. فعلى المستوى الفلسفي والسيكولوجي بدا لي أن وضع الأطفال في بغداد هو الرد الطبيعي والمجمل على العنف الهستيرى الذي يمضي في تمزيق الناس والأطفال إلى أشلاء. هي الحياة تتحدى الموت والحرب. كم كنت أتمنى أن أحمل طفلاً في أحشائي خلال وجودي في بغداد ليكون احتفاء بحبي الكبير لعلاء الدين... لبغداد... لكل الناس الذين سقطوا قتلى... وكل الذين سيسقطون بعد ضحايا لحرب عبثية؛ من دون معنى. عندما سمع علاء الدين بخبر حمل دلفين، تعكر مزاجه. ولدهشتي، راح يستعمل الواقي الذي كان يوزعه مجاناً طبيب البعثة الألماني. ولما سألته عن السبب مرات متكررة، أفصح قائلاً:

- أعتقد أنه يجب أن نتزوج قبل الإنجاب فيعرف المولود هوية أمه وأبيه.

- لا يهم إن كنا متزوجين أم لا. الأهم أننا نحب بعضنا ونريد أن نكون سوياً، ونريد طفلاً ثمرة لحبنا، أليس كذلك؟

- حبيبتى، صدقيني. الأولاد خارج المؤسسة الزوجية لا يشعرون بالأمان.

- أسعد الأطفال وأكثرهم شعوراً بالأمان هم أولئك الذين يشعرون بالحب العائلي. هناك العائلة المكونة من أطفال وأمهات عازبات، وأطفال مع آباء عازبين وعائلات من أطفال وأبوين من جنسين مختلفين، وعائلات مع أطفال وأبوين من الجنس نفسه بعقد

زواج أو من دونه. أساس العائلة هو الحب مهما تعددت الأشكال والأنماط. أفكارك عن العائلة من العصر الحجري. أستطيع أن أهتم بالطفل لوحدي لو أنك تراجعت عن وعدك.

وأصر علاء الدين على الزواج باعتبار أن المجتمع العربي لا يتقبل الأطفال المولودين خارج إطار مؤسسة الزواج.

- نستطيع أن نعقد زواجاً مدنياً، قال.

- الزواج المدني يشترط أنك غير مرتبط بزواج آخر. المضارة غير مسموحة. وهذا يعني أنك يجب أن تنفصل عن زوجتك. والواقع أنك لم تخبرها بعد أنك على علاقة حب مع امرأة أخرى.

- نعقد زواجاً عرفياً المعمول به في مصر، قال بسداجة.

عندما اطلعت على شروط الزواج العرفي أصبت بالإحباط كونه سمي عرفياً وهو في الحقيقة سري. إنه اجتماع الرجل مع المرأة في الأوقات المتيسرة للطرفين ودون معرفة أحد. يوقع الرجل على ورقة بينهما يعترف فيها بأنه تزوج المرأة لكن دون ضمان حقوقها أو كرامتها. ويحق للرجل أن يتزوج بأخرى، فيما المرأة تعاقب بالسجن لو تزوجت بآخر. وهكذا يستمر علاء الدين بزواجه الأول فيما زواجنا نحن يبقى سرياً. وأبقى أنا المرأة الأخرى كما أرادني دائماً أن أكون!

وافترقنا نهاية السنة.

أنا بقيت في بغداد لأحتفل بالميلاد في المدينة المعذبة، وهو أسرع بالذهاب إلى القاهرة ليقضي عيد الأضحى مع عائلته. رجوته

بأن نحتفل بنهاية السنة سوياً، في القاهرة أو أي مكان في العالم، فرفض متذرعاً بأن الأضحى مناسبة هامة ولا يمكن مطلقاً التخلف عن الواجب الديني في توزيع الأضاحي على الفقراء.

واستمر العنف يحصد الضحايا في بغداد. وكشفت تقارير أعدتها الأمم المتحدة عن سقوط ما يقارب 34 ألفاً من المدنيين العراقيين خلال عام 2006، ووقوع ثلاثة أرباع أحياء بغداد تحت سيطرة الميليشيات الشيعية. والنتائج الكارثية للحرب تجاوزت الأمن لتطاول كل القطاعات الأخرى: فقر مدقع وبطالة مرتفعة وطبابة منهارة وانقطاع دائم للماء والكهرباء وأوضاع مزرية لحقوق الإنسان.

في هذه الأجواء المرّوعة شاء الزملاء الموجودون في بغداد أن نحتفل بعيد ميلاد مخلص العالم.

جلسنا في الباحة الخارجية للمطعم وكان الطقس الجميل هدية من السماء.

جاء السفير قاضي وأخذنا صوراً تذكارية معه، ووزع بابا نويل هدايا صغيرة على الموجودين، ثم رفع السفير كأسه وشربنا نخب بغداد متمنين أن تجلب السنة الجديدة السلام والازدهار لجميع العراقيين. وغمرتنا شمس بعد الظهر بدفئها فامتلات قلوبنا بالحنين إلى الأيام الخوالي. وتساءل السفير إن لم تكن بغداد أقدم المدن في العالم.

- حسب معرفتي، فإن بيبيلوس هي الأقدم وقد أتى على ذكرها العهد القديم، قلت. الحضارات القديمة في بلاد ما بين النهرين وُجدت

في الجزء الشمالي من البلاد قرب نينوى والموصل. بغداد لم تكن معروفة قبل وصول العباسيين إليها في القرن السابع. وكانوا هم من قام بترجمة الفلسفة الإغريقية التي شكّلت أساس النهضة الأوروبية.

- وكم دامت النهضة العربية هنا؟ سأل قاضي.

- حوالى 400 عام حتى مجيء هولوكو في القرن الثالث عشر.

وأفل نجم بغداد بعد الغزو المغولي ولم تستطع المدينة بعد ذلك أن تستعيد أمجادها.

وشرب قاضي نخب العراق ثانية وتمنى أن تستعيد بغداد قريباً وهجها القديم.

لكن الأمور كانت تسير بعكس المرتجى، وبغداد جديدة على وشك أن ترى النور. الشيوعية والاشتراكية والليبرالية صارت كلها من الماضي. بغداد القديمة، المدينة التي كانت تغلي بالاتجاهات العلمانية والثقافة الليبرالية، المدينة التي قرأت بنهم ما كتبه القاهرة وطبعته بيروت، المدينة التي احتفلت بالماجن أبي نواس الذي كان يعاقر الخمر بقدر ما كان المسلمون يصلون ماتت! الاشتراكية العربية ماتت! بغداد بحزبها الشيوعي الأقوى في العالم العربي ماتت!

إسلام سياسي جديد برز على الساحات العربية ومرشح أن يبقى ويستمر. هذه القوى الجديدة تسللت عبر استياء الناس، وصوّرت الغرب مصدراً لكل الشرور. فالديمقراطية والشيوعية والاشتراكية كلها بضاعة أجنبية هدفها نشر الفوضى في الشرق.

العراق الجديد خاضع لآيات الله. والشرق الأوسط الجديد مرتبط بالإخوان المسلمين وحزب الله وتنظيم القاعدة. هذا الشرق الأوسط الجديد مرشح أن يصبح مكاناً خطراً رجعيّاً تحركه الغرائز الدينية، فينتفض الشيعة ضد السنة والكرد ضد العرب، وإيران الفارسية ضد دول الخليج العربي والمسيحيون ضد المسلمين إذا لم تستبدل طموحات الهيمنة والاستعمار السياسي بصيغ التعاون، وإذا لم تترجم العدالة إلى توافق. وإذا لم يكفّ الفائزون عن الاعتقاد أن من حق الربح وحده أن يأخذ كل شيء، والخاسر لا شيء.

## قانون ونظام في العاصمة

سقطت عشر قذائف باكراً في جوار السفارات في المنطقة الخضراء ترحيباً بالعام الجديد 2007.

وسمعت الحراس يركضون في الخارج، وهم يتكلمون لغة لا أفهمها. قفزت من سريري وارتديت ملابسني ووضعت خوذةتي وسترتي كما تقضي التعليمات، ثم فتحت الراديو بانتظار إشارة من مكتب الاتصال، ولكن لم يبلغني شيء. وسريعاً توقف سقوط القذائف. الحياة والموت متشابكان.

في هذه المدينة بدا ذلك جلياً لدرجة الوجع. الإحساس أن الموت لصيق كما الجلد بالجسد شحذ رهافة مشاعري كقطعة زجاج رقيق، أنا التي حملت كبريائي درعاً ضد كل خيبات الأمل والفشل. جلست في الظلام داخل غرفتي وشعرت بالحزن يزحف نحوي كغيوم الخريف الكثيرة. فكرت بعلاء الدين ورسائله الإلكترونية التي امتنعت عن الإجابة عليها بعد مغادرته المفاجئة إلى عمان. وكان قد كتب إليّ في واحدة منها أنه لا يفكر بالعودة إلى بغداد بعدما نقل وظيفته إلى عمان حيث ستنضم إليه عائلته، وأنهى رسالته بكلمات الشوق والشكر.



بكيت. فكرت بالرجل الذي خانته الشهامة فتركني وسط حرب  
ضروس وهرب! كيف استطاع ذلك؟ أوجعني أن يتركني الرجل الذي  
أعدت عليه كل ما في العالم من حب.

واستهل السفير قاضي العام الجديد بجولة إقليمية من سوريا إلى  
الأردن فالسعودية والكويت ودول أخرى.

وهدفت الزيارة إلى البحث في التزام طويل الأمد للدول  
المجاورة للعراق، على أن يقدم قاضي اقتراحات عملية لكيفية تحقيق  
هذا الالتزام.

تقليدياً تدعم دول الخليج السنّة في العراق، وتشكك بالحكومة  
الشيعية الدائرة في الفلك الإيراني. وكانت إيران بنفوذها السياسي  
والعسكري تشكّل تهديداً لسيادة أراضيهم؛ ولا ترضيهم الأوضاع التي  
آلت إليها في العراق بعد سقوط صدام حسين. من هنا جاء ترددهم  
بحذف ديون العراق والمشاركة في إعادة إعمارهم. ومن دون دعم  
الخليج للعقد الدولي، ومن دون القروض السخية للمملكة السعودية  
فإن الشراكة الدولية مهددة بالسقوط.

في أوائل شباط/ فبراير بدأت طلائع القوات الأميركية الإضافية  
تصل إلى بغداد. ومن المقرر أن تبدأ العملية العسكرية التي ستضمن  
أمن بغداد في أواسط شباط. وجزأت بغداد إلى تسع مناطق تبعاً  
لتقسيمات العاصمة الإدارية على أن تقوم القوات العراقية والأميركية



سويماً بنزع سلاح الميليشيات الشيعية ورجال المقاومة السنية على السواء، باقتحام المسجد تلو المسجد و البيت تلو البيت في مدينة الخمسة ملايين نسمة ليبحثوا عن السلاح غير الشرعي ويصادروه. في هذه الأثناء، قصدنا - فون شولنبرغ وأندي وأنا- منزل نائب رئيس منظمة بدر هادي العامري في المنطقة الخضراء.

كان المنزل معتماً والمازوت قد نفذ للتو. فصعدنا إلى الطبقة العليا حيث كان ضوء النهار وافراً وسخياً. ووجدنا طاولة الغداء وقد عجت بكل الأطايب العراقية كالمسقوف والكباب والحمص وغيرها. وشرح العامري أن الغداء هو الوجبة الأساسية للعراقيين ويتناولونه عند الثانية بعد الظهر على أن يكتفوا بقليل من الجبن والبطيخ والتمر لوجبة العشاء.

وروى العامري قصصاً عن سخاء الضيافة العراقية ورحت أنا أقارعه بروايات عن حسن الضيافة اللبنانية فيما انهمك فون شولنبرغ وأندي بالأكل مكتفين بهز رأسيهما استمتاعاً. ولم يكن العامري صارماً قاسياً كما تخيلته، بالعكس كان يملك روح النكتة والفكاهة ويعيش حياة بسيطة.

أثناء ارتشاف الشاي، أخذ الحديث منحى جدياً.  
- بادلنا الأميركيين رأيهم سابقاً أن الأصوليين السنة ينشرون الفوضى في العاصمة لعرقلة العملية السياسية.  
الآن يريد الأميركيون ضم السنة إلى العملية السياسية وهذا يسبب

القلق للشيعة. الأصوليون السنّة يريدون التأسيس لدولة الطالبان في العراق، وهذا مرفوض تماماً من جانبنا، قال العامري.

وأشار إلى أن الأميركيين اقترفوا أخطاء كبيرة في الماضي، والآن يلومون الميليشيات الشيعية التي وجدت نفسها في حالة دفاع بعد الهجمة الغاشمة على مسجد سامراء والوضع المتدهور في العاصمة. - السنّة يدعمون الإرهابيين ونحن لا خيار لنا إلا أن ندافع عن أنفسنا. قلت هذا للسفير الأميركي وكررت عدة مرات.

لم يكن العامري متفائلاً بالعملية العسكرية التي يجري التحضير لها. وقال إنها قد تخفف من حدة العنف لفترة ولكن من دون حل سياسي سيعود العنف أكثر سوءاً مما كان عليه. وتمنى لو أشرفت الأمم المتحدة على عملية حوار وطني حقيقي يشمل كل العراقيين من دون استثناء.

في هذه الأثناء، قامت الأمم المتحدة بتقليص عدد موظفيها في بغداد وإرسال الإداريين منهم إلى مكاتبها في عمان.

ولم يعجب هذا الإجراء سفيري الولايات المتحدة وبريطانيا على اعتبار أنه يرسل إشارات خاطئة إلى الحكومة العراقية، واتصل مكتب رئيس الوزراء مستفسراً، فما كان من السفير قاضي إلا أن قصد نوري المالكي ليشرح له أن الإجراء مؤقت.

إزاء كل هذه التعبئة والأجواء المشحونة، كنت أوّمن أن الأمم المتحدة ليست بحاجة إلى تقليص عدد موظفيها بقدر حاجتها إلى

توكيل جديد، وإلى توصيف أدق لمهمتها في بغداد. صحيح أنها حققت بعض النجاح في المجال الإنساني، لكن، كلاعب سياسي فقد فشلت المنظمة في أن تنتزع مكانتها وأن تعكس هويتها السياسية الخاصة بها. وغالباً ما كان يشار إليها على أنها لاعب سياسي خجول يعمل في ظل قوات التحالف داخل المنطقة الخضراء. وكان الأكراد والشيعية يشككون بنوايا الأمم المتحدة لمعارضتها غزو العراق ومواقفها السلبية من إجراء انتخابات مبكرة؛ وعدم مساندتها للعملية السياسية قلباً وقالباً. واتهم الأكراد البعث بتبعيةها للجامعة العربية وبتعاطفها مع حزب البعث. فيما رأى السنة أنها مقرّبة من قوات الاحتلال؛ وأنها موجودة في المنطقة الخضراء لإسباغ الشرعية على العملية السياسية وتغطية الاحتلال.

ومهما يكن من أمر، فإن مكانة الأمم المتحدة الضعيفة في العراق كانت واضحةً وجليّة. ومن دون توكيل قوي من مجلس الأمن لم تكن جهودنا فاعلةً بقدر كافٍ لتحدث تغييراً إيجابياً في حياة المواطنين العراقيين.

بدأت العملية العسكرية «فرض القانون» في 17 شباط/ فبراير. وأسرع رئيس الوزراء نوري المالكي في اليوم التالي لإعلان الانتصار التام. لكن النكسات تعاقبت الواحدة تلو الأخرى لتحصد أعداداً جديدة من الضحايا. وفي آذار/ مارس هاجمت القوات

المشتركة مدينة الصدر، معقل مقتدى، فهرب الصدريون إلى الجنوب، فيما مقتدى مختف عن الأنظار ولا أحد يعرف مكانه. بعض مساعديه قال إنه في إيران وآخرون أكدوا أنه في النجف.

وفي نيسان/ ابريل، اشتعلت المحاور وتكثفت الاشتباكات بين القوات العراقية والأميركية من جهة والميليشيات المسلحة من جهة أخرى. وأطل مقتدى الصدر أخيراً، ليحث أتباعه على التوقف عن مهاجمة القوات العراقية والتركيز على القوات الأميركية.

الصدريون الهاربون من معارك العاصمة، وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل قوات بدر في النجف التي أوكلت إليها مهمة حراسة الأماكن المقدسة. وبات الصدام بين قوات الصدر وقوات بدر مسألة وقت. فقبضنا أنفاسنا نترقب انفجار المعارك في النجف الأشرف.

ربيع العام 2007 كان دمويّاً في بغداد. ورحنا نواكب العمليات العسكرية على مضض لقناعتنا أن القوة العسكرية لم تكن الوسيلة الفضلى لفرض الأمن في المدينة.

وفي آب/ أغسطس انفجر الاحتقان المزمّن بين قوات بدر والصدريين على خلفية قيام قوات بدر بتفتيش روتيني للزائرين قبل السماح لهم بدخول الأضرحة المقدسة في كربلاء. واعترضت شخصيات صدرية من الأسياد على عملية تفتيشهم كالزوار العاديين؛ فاشتعلت المعارك بين الطرفين لأسابيع وانتشرت إلى خارج حدود كربلاء.

في تشرين الأول/أكتوبر فاجأ مقتدى الصدر الرأي العام وأركان الدولة بإعلانه وفقاً لإطلاق النار لمدة ستة أشهر، وتجميد نشاطات جيش المهدي طوال هذه الفترة. وأصيب الصدريون بخيبة أمل ليس لمضمون القرار فحسب، بل أيضاً لإعلانه إياه من مدينة قم الإيرانية حيث انصرف مقتدى لإكمال علومه الدينية.

ولوحظ تدني نسبة العنف في مختلف أنحاء البلاد في الأشهر الأخيرة من العام 2007. واتفق الجميع على أن العمليات العسكرية المكثفة في بداية العام أثمرت أمناً واستقراراً في نهايته. وأسرع الأميركيون إلى تهتئة أنفسهم بهذا الإنجاز، متناسين عوامل أخرى ساهمت في فرض الاستقرار وهي قيام الصحوة بدور فعال في طرد القاعدة من الأنبار وحفظ الأمن في المحافظات السنّية وبعض أحياء بغداد، وانسحاب الصدر من القتال بقرار شجاع ينم عن كثير من النضج السياسي. ولكن، على أهمية هذا الإنجاز في تحقيق استقرار نسبي فإنه يبقى هشاً وقابلاً للانهياب عند أول فرصة إن لم يفض إلى تحقيق تقدم في العملية السياسية.

والحق، إن شيئاً من ذلك لم يتحقق طوال السنوات التالية. فبقيت المسائل الخلافية كوضع كركوك ومراجعة الدستور والمصالحة مع السنّة والنفط والفيدرالية وتوزيع الموارد والسلطة على حالها من الجمود. ولم تتوافر أية إرادة سياسية حقيقية للتعامل مع هذه الملفات الشائكة.

خلال السنوات الست التي تلت الغزو، تركز النقاش في العراق والولايات المتحدة على كيفية إنهاء العملية العسكرية الأميركية في العراق. ووقعت الحكومتان عام 2008، بعد عام كامل من المفاوضات، على اتفاقية انسحاب القوات العسكرية من العراق نهاية العام 2011. عند توقيع الاتفاقية لم تكن نعرف أي اتجاه سيسلك العراق.

صحيح أن نظام صدام حسين سقط، وصحيح أنه بعد خمس سنوات من الفوضى الدموية كان يسود العراق شيء من الهدوء، لكن المسؤولية الأخلاقية تفرض على الأميركيين مغادرة العراق وهو بأفضل حال مما كان عليه قبل الغزو، بمعنى أن يضمن الأميركيون قيام حكومة فاعلة ودولة قادرة.

إن انسحاباً مشرفاً يفرض تحويل النجاحات الأمنية إلى نجاحات سياسية ومصالحة وطنية. من دون ذلك، فهناك خطر حقيقي يهدد بسقوط دولة منقسمة على نفسها في العنف والفوضى. ويضيف جرماً جديداً إلى سجل الولايات المتحدة في المنطقة.

كانت الساعة العاشرة مساءً عندما سمعت طرقاتاً على الباب. كنت نائمة كالعادة. قمت لأفتح الباب وإذ بي أقف وجهاً لوجه مع علاء الدين. كان قد وصل لتوه من عمان لتحضير زيارة السفير قاضي إلى البصرة. وخيّل إلي أنه كان يتكلم بصوت مرتجف ومتوتر. لم أفهم ماذا كان يفعل أمام بابي، ولا ماذا يريد! كان يعيش الآن

مع عائلته في عمان، يمارس الجنس مع زوجته بانتظام ويلعب كرة القدم مع أولاده، ولا يتأخر عن تلبية كل المناسبات الاجتماعية. ومع هذا، لا يتردد في المجيء إلى هنا في وقت متأخر من الليل ليسمعني كلاماً تافهاً.

- لا شيء تقوله يمكن أن يغيّر رأيي بك، بعد تخليك عني بهذه الطريقة الخسيسة وسط حرب ضروس. إهتم بزوجتك وأولادك ووظيفتك الجديدة الآن، قلت باستهزاء.

- كنت مجبراً على الانتقال إلى عمان. بغداد صارت صعبة بالنسبة إليّ.

- كان يمكنك أن تخبرني بذلك قبل الانتقال إلى عمان. أنت أتممت كل الأمور بسرية تامة ومن وراء ظهري. وهذا جوهر المشكلة. وشعرت أنني فقدت شيئاً ثميناً. فقدت الثقة بعلاء الدين، وبالحب الذي ينقذنا من أنفسنا ومن تفاهات الحياة اليومية، ومن الأكاذيب والضياغ. كنت لا أزال أحبه بكل قلبي المذلول، لكن هذا الإذلال أوجد بيني وبينه جبالاً وودياناً عسوية على المقاربة.

- حبي لك لم يكن من دون حدود كما ظننت لأنه لم يقبل بوجود امرأة أخرى. أنا ربيت على الأحادية في الزواج والعلاقات الحميمة. ربما هذه فكرة مشوهة عن الحب، لكن لا قدرة لي على أن أشارك امرأة أخرى في حبك.

- ألم تقولي إن الحب كالحياة يتسع للجميع ولكل شيء؟

- شرط أن يكون عادلاً ومتبادلاً. أنت تركتني ساعة الضيق في قلب المعركة وهربت.

- وابتتنا؟

- وهل تملك الجرأة لتسأل عن ابتتنا؟ أنت الذي كنت تستعمل الواقفي؟ قلت ببرود.

وانصرف علاء الدين مرتبكاً حزيناً. وبكيت حبي الضائع، وابتني التي لم تولد. ما هو الحب؟ ما هي الصداقة؟ ماذا يعني أن يكون الإنسان إنساناً؟ أن يحب؟ أن تكون له ابنة؟ كل ما تمنيت أن تكون لي ابنة تعيش بعد موتي، بعد أن أكون قد تلاشيت.

غادر علاء الدين إلى البصرة.

وألّم بي حزن شديد طوال الليل والنهار وفقدت الرغبة في العيش. وفي مساء اليوم التالي، تجمع الزملاء في الحديقة لسهرة ليلة الخميس، فتوجهت إلى صالة الرياضة طلباً للوحدة ولتسنّي لي خلالها ترتيب بيتي الداخلي من مشاعر وأفكار مشوشة.

لم أكن قد بدأت التمرين على آلة العدو عندما مرّ بي أحدهم وأغلق باب الصالة بكل ما أوتي من قوة. غضبت لقلّة الأدب هذه فقفزت عن الآلة لأعيد فتح الباب من جديد. وتسببت دعسة ناقصة بسقوطي أرضاً على وجهي، وسمعت صرير العظم ينكسر في ذراعي، فصرخت صرخة اخترقت عمّة الليل وبلغت مسامع الساهرين.

ركض الطبيب جوني صوبي مصحوباً بمساعده، وأعطاني كمية



من المورفين أثقل رأسي وجعلني أفقد الإحساس بجسدي من رأسي حتى أخمص قدمي. ثم حملني الزملاء على نقالة إلى مستشفى ابن سينا.

رفض الجندي على حاجز المستشفى أن يسمح لسيارة الأمام المتحدة بسلوك طريق الطوارئ. فنزلت من السيارة ورحت أترنح باتجاه المدخل. ثم ساعدني الطبيب الأميركي المناوب بالتمدد على مقعد طويل بانتظار الصورة الشعاعية. وقرابة الثانية صباحاً عدت بصحبة جوني إلى غرفتي.

- كان حادثاً جدياً! أنت متعبة من جراء المورفين، ولن تستوعبي شيئاً. ولكن سأشرح كل شيء غداً صباحاً. نامي الآن واتصلي لو احتجت أي شيء، قال الدكتور جوني وهو يسلمني الصورة الشعاعية. واستفقت منتصف اليوم التالي والطبيب ينقر على بابي. جلسنا خارج غرفتي وراح يشرح لي وضعي الصحي.

الكسور في العظم المسؤول عن حركة ذراعي اليمنى لا تعالج إلا من خلال عملية جراحية. وقد تسبب جراحة غير موفقة بمشكلات في وظيفة الذراع في المستقبل مشدداً على ضرورة الانتقال إلى عمان لإجراء جراحة سريعة.

- تحتاجين أيضاً إلى الخضوع للعلاج الفيزيائي ولمدة طويلة لاستعادة القوة في الذراع الأيمن. أقترح أن نجهز المعاملات فتوجهين غداً إلى الكويت ومنها إلى عمان.

وفكرت لثوان قليلة وأبلغت الطبيب أنني أفضل التريث ليومين والتوجه مباشرة إلى عمان.

- لا حاجة للقلق. نعرف الآن ما أصابني وهي إصابة قابلة للعلاج بالجراحة.

- ولكن لو شعرت بالألم، ماذا نفعل؟

- أنت موجود والمورفين متوافر، أليس كذلك؟

كنت أشعر في قرارة نفسي أن خروجي هذه المرة كان نهائياً. شعرت أن الوقت قد حان لوداع بغداد. فبعد سنتين ونيف كان الوقت ناضجاً للبحث عن الحياة ومعانيها في مكان آخر، في مدينة تنام وتفيق على إيقاع هادئ وطبيعي.

بكثير من الحزن والشقاء، انصرفت إلى جمع أوراقتي وملفاتي. الحزن الداخلي كان أشد إيلاماً من الوجع الجسدي. حزمت حقائبي وذهبت بذراعي الملفوفة أودّع زملائي الأحب إلى قلبي. وكان سرمد قد جمع المال واشترى قالباً من الحلوى ودعا الزملاء إلى حفل وداعي. أعطاني النسخة العربية من ملحمة جلجامش، وكنت قد قرأتها في سنوات المراهقة وأعجبت برحلات جلجامش في بحثه عن معنى الحياة وسر الخلود.

- عندما تشعرين بالحنين إلى بغداد، إقرأي أقدم قصة عن الإنسان وفكري بنا، قال سرمد.

- سأعود ما أن ينتهي علاج ذراعي المكسور. أتمنى أن تستعيد  
بغداد استقرارها فأزورك في بيوتكم.

- كل البيوت بيوتك، هتفت شروق.

وضممتهم واحداً واحداً، وشكرت لهم صداقتهم وتمنيت لهم  
السلام والأيام الحلوة.

- إعملوا ما بوسعكم كي تخرجوا من هذه الحرب سالمين، قلت.  
في طريق العودة حدثت في التفاصيل الصغيرة التي غابت عني  
طوال مدة عملي في بغداد.

حدثت في كل شجرة نخيل، وكل حجر، وكل حاجز، وكل  
مصفحة، وكل جندي. شعرت أنني ربما أراهم للمرة الأخيرة؛ وكنت  
أرغب في الاحتفاظ بذكراهم حية في بالي. أخرجت جلجامش من  
حقيبتني وقرأت بصوت عال:

من أجل من، كلت يداي؟

ومن أجل من، استنزف دم قلبي؟

لم أحقق لنفسي مغنماً.

يا صاحبي لقد حلت بي اللعنة.

فلن أموت ميتة رجل سقط في ميدان الوغى.

كنت أخشى القتال.

فمن يسقط في القتال يا صديقي فإنه مبارك.

وليبيكك الفرات الطاهر الذي كنا نسقى منه.

إلى أين تسعى يا جلجامش؟  
إن الحياة التي تبغي لن تجد؛  
حينما خلقت الآلهة العظام البشر  
قدرت الموت على البشرية  
واستأثرت هي بالحياة.

## وماذا بعد؟

يمر العراق اليوم بظروف هي الأخطر منذ العام 2008. فقد تجددت التظاهرات المطالبة بإسقاط النظام في المحافظات السنّية كالأنبار وصلاح الدين ونيوى وسط تصاعد أعمال عنف وخطف مذهبي وتفجيرات واغتيالات تهدد السلم الأهلي وحال الاستقرار النسبي الذي نعمت به البلاد في السنوات الأخيرة. وقد انطلقت هذه التظاهرات عقب اعتقال أفراد من حماية وزير المالية رافع العيساوي في كانون الأول/ ديسمبر 2012 في سياق تحركات احتجاجية ضد حكومة نوري المالكي، كانت تدعو إلى إلغاء قوانين اجتثاث البعث ومكافحة الإرهاب، والمطالبة بعفو عام وإطلاق سراح معتقلات عراقيات. وما لبثت أن تطورت الأمور فزادت تأزماً مع مطلع العام 2013، فتوسعت رقعة التظاهرات والاعتصامات، وعادت التفجيرات الدموية إلى الشوارع والخطاب الطائفي إلى المنابر، وقاطع الوزراء والنواب السنّة جلسات الحكومة والبرلمان، ما هدد بإغراق العراق في أزمة طائفية جديدة مفتوحة على كل الاحتمالات. تعاملت الحكومة مع هذه الاحتجاجات بالكثير من المراهقة

السياسية، فراح نوري المالكي يلقي باللوم على تركيا «الساعية إلى تقسيم العراق» ويمارس سياسة التسويق التي اعتاد على ممارستها مع كل أزمة للاستفادة من عامل الوقت. ولعل المتبعين للشأن العراقي يدركون أن بعض سياسات رئيس الوزراء ساهمت في تأجيج الأوضاع والاضطرابات في الداخل، ولاسيما إصراره على الانفراد بالسلطة واتخاذ القرارات دون العودة إلى الأطراف السياسية الأخرى.

وبغض النظر عما إذا كانت انتفاضات الشارع العراقي تندرج في خانة الربيع العربي كما يحلو للمتظاهرين تسميتها، أو في خانة المؤامرة الخارجية على حكم الشيعة في العراق كما يرغب رئيس الوزراء في تصويرها، فإن الوضع ما كان ليهتز بهذا الشكل الخطير لولا التراكمات الماضية. وهنا سرد موجز لأبرز الأحداث التي تلت خروجي من بغداد والتي تلقي الضوء على الأزمة العراقية التي تكاد تراوح مكانها منذ بداية العملية السياسية عام 2003 وحتى اليوم.

كان عام 2009 جيداً على العراق، وبدأ أن جراح ما بعد الحرب بدأت تلتئم وأن التحدي الرئيسي بات بناء الدولة. ومع تراجع حدة العنف والهجمات الدموية في بغداد أخذت السياسة تحتل مكان الصدارة. وجاءت انتخابات مجالس المحافظات في كانون الثاني/يناير 2009 لتشكّل انتكاسة للأحزاب الطائفية وتحدث تغييراً نوعياً في الإدارات المحلية، الأمر الذي كان له وقع المفاجأة. والأهم أن هذه الانتخابات أنعشت حظوظ الأحزاب العلمانية بالفوز في الانتخابات

العامّة المزمع عقدها عام 2010؛ كما أكدت كذلك، ومن دون مواربة، دخول العرب السنّة المعترك السياسي الذي كانوا قد رفضوه لسنوات طوال.

غير أن الصراعات القديمة ما لبثت أن طفت على السطح. فقد استغرقت المفاوضات الدائرة حول قانون الانتخابات الوطنية وقتاً أطول بكثير مما كان متوقّعا، ما أدى إلى تأخير انتخابات 2010 البرلمانية. وبرزت مشكلات متجذرة من حيث عودة العنف المرتبط بالانتخابات، والتوترات العرقية حول كركوك، وعودة بزوغ الطائفية، والتلاعب السياسي الصارخ بمؤسسات الدولة. وكان التطور الفاضح هو الإعلان الصادر عن هيئة المساءلة والعدالة باستبعاد 511 مرشحاً بسبب صلات مزعومة بحزب البعث المحظور، وقيام المفوضية العليا المستقلة للانتخابات بتبني القرار بشكل أعمى. وسارعت حكومة رئيس الوزراء نوري المالكي إلى احتضانه ثم ضغطت على هيئة الاستئناف لإجراء مراجعة شكلية للقرار، فرفضت معظم الطعون. وتسبب الحادث بفوضى عارمة وأدى إلى طرح أسئلة تتعلق بالوضع القانوني لهيئة المساءلة والعدالة، وصدقية القضاء، وشرعية مفوضية الانتخابات والقدرة على إدارة الانتخابات لاسيما وأن مسؤولي المفوضية هم أنفسهم مرشحون في الانتخابات البرلمانية. ففي ظروف طبيعية، كان يمكن لهذه الخطوة بمفردها أن تنزع الشرعية عن الانتخابات. غير أن هذه ليست ظرفاً طبيعية. ومن أجل استقرار

العراق وعدم الوقوع في فخ المقاطعة الذي أدى إلى تهميشهم سياسياً، لم يقاطع السنّة الانتخابات كما فعلوا في السنوات الماضية.

عندما ظهرت نتائج الانتخابات، كان تحالف العراقية الجديد الذي ضم مرشحين من كل الأطياف واعدأ كبديل علماني للأحزاب العرقية والطائفية، والوحيد الذي اجتذب الناخبين الشيعة والسنّة على حد سواء. وأطلق زعيمه إياد علاوي حملته الانتخابية على أساس غير طائفي طارحاً مبادئ تناهض فكرة الفيدرالية السنية - الشيعية.

وفاز التحالف بأكبر عدد من المقاعد 91 مقابل 89 مقعداً حصل عليها خصمه الرئيسي، قائمة دولة القانون التي يترأسها رئيس الوزراء نوري المالكي. وقد كان تحالف العراقية الوحيد بين التحالفات السياسية الرئيسية الذي حصل على دعم في سائر أنحاء البلاد، حيث حصل على اثني عشر مقعداً في المناطق ذات الأغلبية الشيعية، في وقت لم يحصل المالكي على مقعد واحد في المحافظات ذات الأغلبية السنّة.

إلا أن تحالف العراقية بالغ في تقدير قوته وتماسك مجموعته. ففي المفاوضات حول تشكيل الحكومة، أصر زعيمه إياد علاوي على أن يشغل منصب رئيس الوزراء بحكم ترؤسه للقائمة الفائزة. وتخوّفت الأحزاب الشيعية المختلفة مع المالكي من عودة البعثيين السابقين إلى السلطة فعادوا مرة أخرى للالتفاف حول رئيس الوزراء المنتهية ولايته نوري المالكي، وتمكنوا من تشكيل أكبر كتلة برلمانية. إزاء هذا الالتفاف البرلماني و الدعم الواضح من إيران تشبث المالكي برئاسة



الحكومة بعناد يذكر بسلفه الدكتور ابراهيم الجعفري. وزاد الطين بلة، قبول بعض قادة العراقية، في اندفاع لم يسبق له مثيل، بالمناصب العليا في حكومة المالكي الجديدة حتى قبل أن يتم تنفيذ عناصر أساسية من اتفاق تقاسم السلطة بين نوري المالكي، وإياد علاوي ومسعود بارزاني، والمعروف باتفاق أربيل. وهو ما قضى على آمال العراقية في تسلم السلطة رغم فوزها في الانتخابات.

والتفاؤل الذي سيطر عام 2009 تبخر عام 2010!

فمنذ وصول المالكي إلى السلطة في كانون الأول/ ديسمبر 2010، دأب بشكل مستمر على تعزيز سلطاته، ولم يقدم أية تنازلات للأحزاب الأخرى. ووجد تحالف العراقية نفسه مهمشاً، وتعرض قاداته وأعضاؤه للاعتقال بحجة اجتثاث البعث ومكافحة الإرهاب. واقتربت الأمور من نقطة الانهيار في كانون الأول/ ديسمبر 2011، مع انسحاب آخر القوات الأميركية من البلاد، فأصدرت حكومة المالكي أمراً باعتقال الرئيس طارق الهاشمي الذي اضطر للجوء إلى تركيا قبل صدور حكم غيابي بالإعدام بحقه. وقاطع العديد من شركاء رئيس الوزراء الحكومة، احتجاجاً على أسلوب المالكي في الحكم الذي بدا أنه يتحول بشكل متزايد نحو الحكم الأحادي المطلق.

في نيسان/ ابريل 2012، تصاعدت حدة التوتر بين المالكي وشركائه في الحكم إلى درجة كبيرة. فاجتمع بعض قادة اللائحة العراقية وبارزاني وغيره من الزعماء الأكراد إضافة إلى بعض خصوم

المالكي الشيعة مثل تيار الصدر، واتهموا رئيس الوزراء بممارسات غير ديمقراطية وغير دستورية. ولم تثمر جهودهم بطرح الثقة في حكومة المالكي بسبب الانقسامات الداخلية.

وفي كانون الأول/ ديسمبر 2012 ألقى القبض على تسعة من أفراد حماية الوزير رافع العيساوي وفقاً للمادة الرابعة من الدستور المتعلقة بالإرهاب والتي أعادت إلى الأذهان قضية الهاشمي. وبينما أوضح المالكي أن الاعتقالات قضائية وليست سياسية، خرجت احتجاجات مناهضة للمالكي في عدة محافظات سنية كالأنبار ونيوى وصلاح الدين مطالبة برحيل رئيس الوزراء. وقابل هذه التظاهرات قيام تظاهرات مضادة داعمة للمالكي، ومهددة بعودة المناخ الانقسامي الطائفي إلى سابق عهده وعودة العنف والفوضى إلى الشارع العراقي. ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد أن جذور المشكلة العراقية الراهنة تعود إلى اتفاق أربيل الذي توصل إليه القادة السياسيون في تشرين الثاني/ نوفمبر 2010 وأدى إلى تشكيل حكومة المالكي الثانية. إذ إن متقدي رئيس الوزراء يشيرون إلى عدم تقيد رئيس الوزراء بالاتفاق خصوصاً إخفاقه بإجراء توزيع عادل للمناصب الأمنية الحساسة، بانتهاك الدستور، وحصص السلطة بين يديه ضارباً عرض الحائط بمؤسسات الدولة كالحكومة والبرلمان والسلطة القضائية والمؤسسات المستقلة. فهو دأب على تركيز السلطة بين يديه وذلك بفضل مهارته بالمناورة في المناطق الرمادية للدستور. غير أن جزءاً كبيراً من نجاحه مستمد

من عدم قدرة خصومه على إحباط جهوده بالوسائل المؤسسية، حتى إنهم أخفقوا في استعمال قوتهم البرلمانية لتمرير تشريعات تُقيد السلطة المتنامية للمالكي. ولو فعلوا لما وجدوا أنفسهم في حال من الشلل السياسي.

ويعترف النظر عما إذا تمكن نوري المالكي من الاحتفاظ بمنصبه إلى موعد الانتخابات المقبلة عام 2014 أم لا، فالواضح أنه فقد ثقة شرائح واسعة من العراقيين بما في ذلك حلفاؤه الشيعة. في الوقت نفسه، فإن أطراف المعارضة منقسمون بعمق حول كل القضايا الجوهرية ولا يملكون استراتيجية لمواجهة تفرد رئيس الحكومة الحالي بالسلطة أو كيفية إبعاده عن الانتخابات المقبلة.

لكن المأزق العراقي له جذور بعيدة ضاربة في التاريخ العراقي الذي شكّل الذهنية العراقية. فهو أكثر عمقاً من اتفاق أربيل وأكبر من نوري المالكي وتفرده بالسلطة. إنه يكمن في عدم قدرة السياسيين العراقيين على تجاوز ثقافة البعث العراقي وممارساته القمعية التي حكمت البلاد طوال 35 سنة. فظاهرة الجشع السياسي القائمة على مقولة «إن الفائز يأخذ كل شيء»؛ والتي تشجع على الاستئثار بالسلطة عبر التخلص من المنافسين السياسيين، إما بزجهم في السجون أو بدفعهم إلى المنفى، لا تزال تسيطر على أذهان الطبقة السياسية غير المؤهلة بعد لممارسة الديمقراطية الحقة. وقد شهدنا على ذلك أثناء عملية صياغة الدستور والانتخابات البرلمانية الأولى والثانية. ولا تزال

المسائل الخلافية العالقة في دستور العام 2005 الذي أشرفت الولايات المتحدة على ولادته تشكل دليلاً ساطعاً على ذهنية «الفائز يأخذ كل شيء والخاسر لا شيء». وتشكل هذه القضايا جوهر الخلاف العراقي: كطبيعة النظام الفيدرالي وسلطات الرئيس، ورئيس الوزراء والبرلمان، وحتى هوية الدولة وشعبها، والعلاقة بين بغداد وإقليم كردستان. وتساهم الطبيعة الطائفية والإثنية للنظام السياسي، في ظل التقاعس عن توزيع عادل للسلطة والموارد، في تغذية صراعات تأخذ في معظم الحالات طابعاً دموياً.

ومع اقتراب الانتخابات البرلمانية عام 2014 وفي خطوة ملحة لتحاشي السيناريوات الانتخابية المعروفة والتي لا تنفك تعيد نفسها بحيث يخيل للمتابع للشأن العراقي أن لا جديد تحت سماء العراق، إذ يتوجب على الفرقاء السياسيين معالجة الخلل في الجسم القانوني والدستوري في البلاد والبث في القضايا الجوهرية العالقة بحيث يطمئن العراقيون إلى مستقبلهم السياسي في البلاد؛ وينبرون صفاً واحداً في وجه الفتنة المذهبية التي عادت تتسلل إلى العراق وتحصد أرواحاً بريئة في أعمال عنف وشغب تفاقمت وتيرتها في أعقاب الانتفاضات العربية، ولا سيما السورية منها.

فهشاشة الوضع السوري واحتمال سقوط نظام بشار الأسد في أي وقت، يجعل الساحة العراقية مفتوحة لتلقف الصراع السنّي - الشيعي الساخن في المنطقة. وإمكانية وصول السنّة إلى سدة الحكم

في سوريا قد يشجع المجموعات السنية المسلحة في العراق إلى التحرك مجدداً ضد هيمنة الأحزاب الشيعية في بغداد. ولا يغبن عن بال أحد أن سياسية المحاور التي تقودها تركيا وقطر والسعودية من جهة، وإيران وسوريا من جهة أخرى، قد فرضت على نوري المالكي التقرب من إيران باعتبارها القوة الشيعية العظمى في المنطقة.

أما العلاقة بين بغداد وأربيل فهي أكثر تعقيداً بعد!

إذ يبلغ الصراع الساخن على الأراضي والموارد بين حكومة المالكي وحكومة إقليم كردستان نقطة الغليان. ويتركز الخلاف حول عدد من القضايا أهمها طبيعة النظام المركزي في العراق ومستقبل إقليم كردستان، وصلاحيات حكومة أربيل في إبرام العقود النفطية، بالإضافة إلى وضع الأراضي التي يطالب بها الأكراد كجزء من كردستان، وتمويل البشمركة، ومخصصات كردستان من ميزانية الدولة. هذه التراكمات التي أفرزها دستور عام 2005 لا تزال تتفاعل وتزيد العلاقات تآزماً بين العاصمة والإقليم.

في هذا الوقت، يمضي الأكراد قدماً في تعزيز اقتصادهم ووضع سياسة نفطية مستقلة. وقد اتخذوا خطوات هامة لتحقيق ذلك. فبالإضافة إلى وضعهم مسودة لقانون نفط خاص بهم عام 2007 قاموا بالتوقيع على أربعين عقداً مع شركات نفط أجنبية دون مشاركة بغداد أو موافقتها للتقيب عن النفط في حقول تقع في الأراضي المتنازع عليها مما حدا بحكومة بغداد إلى التهديد والوعيد معتبرة أن الأكراد يقوضون

كل محاولة لوضع إستراتيجية نفطية فيدرالية موحدة، ويسعون إلى تقسيم البلاد وإعلان استقلالهم النهائي لاسيما وأنه يتوقع استكمال بناء خط نفطي استراتيجي خاص عام 2014.

الموقف التركي كان دوماً داعماً لوحدة العراق انطلاقاً من كون عراق قوي يشكل حاجزاً ضد النفوذ الإيراني، ويكبح جماح رغبة الأكراد الأتراك (والعراقيين) في الانفصال. ودرجت أنقرة منذ سنوات على تشجيع كردستان وبغداد للموافقة على قانون فيدرالي للنفط والغاز، يمكن تركيا الفقيرة بالطاقة من أن تستورد النفط والغاز من حقول العراق الجنوبية الهائلة، وكذلك من الإقليم الكردي، مقتربة بذلك من تحقيق تطلعاتها في أن تصبح ممرأ رئيسياً للنفط والغاز في المنطقة. ويأتي الانفتاح التركي على كردستان والاستثمارات التركية التي بدأت في أربيل منذ العام 2007 وتستمر بالازدهار اليوم بمباركة حكومة أبو الطيب أردوغان في هذا الإطار الاستراتيجي.

إلا أن المعضلة التركية تكمن في استياء أنقرة من تنسيق نوري المالكي الكامل مع إيران وسوريا وانحيازه إلى المحور الشيعي في الصراع الدائر في المنطقة والإدراك المتنامي لدى حكومة أبو الطيب أردوغان أن المالكي يتصرف كما لو كان رجل إيران في بغداد. وفي ضوء المعطيات الجديدة في الأزمة السورية المفتوحة على كل الاحتمالات، وتعاظم دور تركيا الإقليمي في التصدي للنفوذ الإيراني، تحاول تركيا أن توازن بين دعمها الاقتصادي وتشجيع الاستثمارات

التركية في كردستان وبين الاحتفاظ بشعرة معاوية مع بغداد. باعتبار أن تفكك العراق من شأنه أن يعزز سعي إيران للهيمنة الإقليمية، كما أن انفصال كردستان العراق من شأنه أن يشجع الأقلية الكردية في تركيا على أن تحذو حذو أكراد العراق. ويبدو أن دول المنطقة الدائرة في الفلك الإيراني-الخليجي تترقب حدثاً إقليمياً بحجم البركان السياسي الذي أسقط حكم البعث العراقي عام 2003 يغير قوانين اللعبة في المنطقة بأسرها.

وفيما راوحت المسائل الخلافية مكانها فإن بغداد لم تتمكن - بعد سنتين من خروج القوات الأميركية - من حل المشكلات العالقة مع الأكراد أو مع المجموعات السنية وبقيت المصالحة الوطنية حبراً على ورق، وبقي الفساد الآفة العنيدة التي نمت كالفيروس في كل المؤسسات العامة وباتت عنواناً لحكومة نوري المالكي في الفترتين الأولى والثانية.

وقد يكون مجلس النواب، وهو المؤسسة الأهم لاضطلاعه بإصلاح جميع مجالات الحكم، أقل هذه المؤسسات فعالية على الإطلاق. إذ تتميز أساليب عمله الداخلية بطائفية مفرطة، وتوازنات سياسية دقيقة نتجت من الانتخابات التي شهدتها البلاد منذ 2005 وحتى اليوم، والتي شلت عمل المعارضة السياسية داخل البرلمان وبالتالي نشاط الرقابة على الحكومة وإداراتها.

وأظهرت أحكام القضاء الصادرة بحق شخصيات سنية أن النظام

القضائي العراقي ليس مستقلاً تماماً عن السلطة التنفيذية، بل هو يعاني من ضعف شديد إزاء الضغوط السياسية.

إن غياب المعارضة السياسية العراقية له ارتدادات ليس فقط على الإداء الحكومي، بل أيضاً على السلم الأهلي في العراق. كما أن غياب أية مصالحة حقيقية مع السنّة والأكراد، والتمنع عن تسوية القضايا الخلافية العالقة في الدستور، ومحاولات رئيس الوزراء نوري المالكي في تهميش السنّة، واستثائه بالسلطة والقرار، والتخطيط للعودة ربما إلى سدة رئاسة الحكومة في الانتخابات المقبلة، كلها تزيد في تعقيد الأزمة السياسية الخطيرة. والانتفاضات الصغرى التي شهدتها العراق أخيراً، في محافظات الأنبار ونيوى وصلاح الدين وغيرها، وقيام ميليشيات طائفية جديدة كالجيش العراقي الحر وجيش المختار تشير كلها إلى أن جذوة التوترات الطائفية لم تخفت بعد، وأنها قابلة للاشتعال في أي وقت.

يبقى أن الفرقاء العراقيين والإقليميين في حال ترقب لما ستؤول إليه الثورات العربية، ولا سيما السورية منها التي قد تؤدي إلى إعادة خلط الأوراق في العراق والمنطقة بأسرها.



## المحتويات

7	.....مقدمة
9	.....رحلة إلى بغداد
19	.....بيتي... الرشيد
32	.....عقوبات... وسقوط
42	.....ألف قتيل وبطل واحد
52	.....صفية الجميلة
58	.....دستور تحت الاحتلال
81	.....جنس وخمر وموت
91	.....الجامع في الصدارة
107	.....نحو صناديق الاقتراع
121	.....محاكمة صدام
141	.....کردستان... جزء من العراق؟
167	.....عنف أعمى
181	.....الأقليات... أول ضحايا العنف
202	.....سياسيون يحتفلون

222	علاء الدين... مريض
232	النجف... وآيات الله
256	واحة في منطقة حرب
262	انشقاق بين السنّة
274	حرب أهلية أم لا؟
285	زيارة عند رئيس الوزراء
295	وداعاً للرشيد
306	قانون ونظام في العاصمة
320	وماذا بعد؟



الشيوعية؛ الاشتراكية؛ والليبرالية أصبحت كلها من الماضي. بغداد القديمة التي كانت تغلي بالإتجاهات العلمانية والثقافة الليبرالية؛ المدينة التي قرأت بنهم ما كتبه القاهرة وطبعته بيروت؛ المدينة التي احتفلت بالماجنن أبي نواس الذي كان يقارع الخمر بقدر ما كان المسلمون يصلون ماتت؛ الاشتراكية العربية ماتت؛ بغداد بحزبها الشيوعي الأقوي في العالم العربي ماتت؛

إسلام سياسي جديد برز على الساحات العربية ومرشح أن يبقى ويستمر. هذه القوى الجديدة تسلت عبر استياء الناس؛ وصوّرت الغرب مصدراً لكل الشرور. فالديمقراطية؛ والشيوعية؛ والاشتراكية كلها بضاعة أجنبية هدفها نشر الفوضى والارتباك في الشرق.

العراق الجديد خاضع لآيات الله في النجف. والشرق الأوسط الجديد مرتبط بالإخوان المسلمين وحزب الله وتنظيم القاعدة والنصرة. هذا الشرق الأوسط الجديد يكاد يصبح مكاناً خطراً؛ رجعيًا؛ تحركه الفرائز الدينية؛ فينتفض الشيعة ضد السنة؛ والكرد ضد العرب؛ وإيران الفارسية ضد دول الخليج العربي؛ والمسيحيون ضد المسلمين؛ إذا لم تستبدل طموحات الهيمنة والاستعمار السياسي بصيغ التعاون؛ وإذا لم تترجم العدالة إلى توافق. وإذا لم يكف الفائزون عن الاعتقاد أن من حق الرابح وحده أن يأخذ كل شيء؛ والخاسر لا شيء؛

**لورا مقدسي، صحافية وكاتبة لبنانية. عملت منذ 1994 في الصحافة السويدية والعربية. والتحقّت بالأمم المتحدة في كل من العراق والسودان. نشرت كتابها الأول بالسويدية، 700 يوم في بغداد، عام 2009 والذي يعالج المرحلة الانتقالية للعراق من الديكتاتورية إلى الوضع الحالي؛ وأسباب الفشل الأميركي في خلق عراق آمن؛ مستقر؛ وديمقراطي. صدرت الترجمة الألمانية للكتاب عام 2010.**

ISBN 978-614-432-007-5



9 786144 320075